أيام برازيلية
وأخرى من يباب

أحمد المديني

أيام برازيلية وأخرى من يباب

تأليف
أحمد المديني

هنـــداوي

أيام برازيلية وأخرى من يباب

أحمد المديني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣١٦ ١

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

الفصل الأول: أيام برازيلية أو نزهة في «حديقة الله» ٧
بمثابة تقديم ٩
(I) أي فتنة في «حديقة الله»؟! ١١
(II) بلاد الجسد، بلا منازع ١٧
(III) «فتمتَّع بالصفو ما دُمتَ فيه» ٢٣
(IV) جسد كالتلال، تلال كالنساء! ٢٩
(V) حاشية على الماء ٣٥
(VI) التاريخ دائمًا هو التليد ٤١
(VII) مدينة الكنائس المعلقة ٤٧
(VIII) المحطة الأولى إلى الأزل! ٥٣
(IX) جحيم العالم السفلي ٥٩
(X) مدينة الأشقياء المكافحين ٦٥
(XII) «المدينة التي تحمل البرازيل على ظهرها» ٧١
(XIII) الماء سقفًا والأخضر سماء ٧٧
(XIV) برازيليا ... أخيرًا بداية العالم! ٨٣
(XV) نُفاضة الجراب وحسرة الإياب ٨٩

أيام لبنانية ٩٥
بمثابة تقديم ثان ٩٧
ملحق ١٥١

الفصل الأول

أيام برازيلية أو نزهة في «حديقة الله»

بمثابة تقديم

هذا نص رحلة؛ تقرير وصفي، ونقلي، وانطباعي، عن زيارة قمنا بها إلى بلاد البرازيل، أو الجمهورية الفيدرالية البرازيلية؛ أكبر دولة، مساحة وسكانًا وثروة، في أمريكا اللاتينية. يقع بيننا، نحن في المغرب، وهذه الأرض، المحيط الأطلسي، في امتدادات شاسعة، تكاد لا تظهر لنا منها إلا أطياف أحلام ورؤى مضبَّبة، فيما ثمة عالم بأكمله يفوق غناه انبهارنا العبودي بالغرب الشمالي. العرب، والمشارقة وحدهم، مع فلول من الأوروبيين، سَلَبَتهم باكرًا، أي منذ نهايات القرن التاسع عشر، جاذبية القارات البعيدة والوليدة، فشدُّوا إليها الرِّحال ليصبحوا ساسة ورواد جاه، ومال، وعلم، وأعلام أدب؛ وقبل هذا وذاك فاتحي قارات وبناة عالم جديد.

إنه نصٌّ وضعناه خصوصًا لوصف وسرد مقاطع منتقاة، مفصَّلة ومجزَّأة، عن رحلة إلى الديار البرازيلية، استغرقت عشرين يومًا ونيفًا؛ أردناها في بدايتها سياحية صرفًا، لكن الفضول والصدف دفعتها، أحيانًا، إلى أبعد من غايتها الأولى، من ثَمَّ حفرت أفكارًا، وولَّدت أحاسيس، ونكأت جراحًا، وحفزت في الأخير على التأمل الذي يقود صاحبه إلى ما يشبه أخذ العبرة من المرئي، فتصبح المشاهدة ذاتًا أخرى في لحظة وعيٍ تنعكس على مرآة الوجوه والأشياء لتحفزها على مزيد نظرٍ وتبصُّر، مآلهما عند الكاتب ضرورة، حصيلة كلمات، ترسم جغرافية رحلة، وهوية أمةٍ، ومعالم فضاء، وخصوصًا طعم وموسيقى حياة، دعك من جراح ذات، وأنَّى لها!

عبر خمسة عشر فصلًا، وصورة، وبحبْكٍ قصصي، أيضًا، ما سيلتقي به القارئ تباعًا، وقد انتقلنا وننقله معنا بين مدن ومساحات شاسعة، في الشمال والوسط والجنوب، في تراوحٍ بين الجبل والسهل والبحر، والسماء، فوقها، نحلق لنصل من الكراييب إلى أقصى نقطةٍ جنوبًا. ثم عود على بدء إلى باريس، من حيث كان المنطلق؛ نلتقط الجوهري، نحتفي

بالمعبِّر، كائنًا ومادة ورمزًا. لا يفوتنا العارض النافل، الذي له أكثر من دلالة، وتأسرنا — أبدًا — دائرة المقارنة، كأنك حيث ذهبت تبقى مشدودًا إلى مسقط الرأس، ومهوى الفؤاد. هناك ذهاب وإياب، وخلود إلى الجمال والغرابة، وتأمُّل في الفرق، لأن فكرة العودة حاضرة — دائمًا — في ذهن الرحالة، ولذلك يُسمِّي انتقاله رحلة، وتكون كتابته ضرورية، ولها معنى: معنى وصف العالم كأنه يُكتشَف للمرة الأولى، أو يوجد في لحظة الخلق المعجزة، وفي قلبه الإنسان مهماز الوجود وقلبه النابض، وهو يريد أن يبهر — بكشْفه — السامعين (أمس) والقراء (اليوم)، زعمًا دائمًا!

والوصف — مهما دقَّ ووُثِّق — فهو أصلًا افتتان وخشوع أمام السحر، في الكبيرة والصغيرة، يتولاه صاحبه بأداة اللغة، والصورة المضاعفة، والذاكرة اللعوب، وهذه كلها مرايا خادعة، أوَليست حقيقة كوثيقة وصورة الجغرافي؟ نظن أن الحقيقة توجد دائمًا في مكان آخر، لِنقُل إنها تتموَّج في أعين القراء، وبحسب ثقافاتهم وأهوائهم. وكذلك هي، عند كاتب هذه الرحلة، مع فارق أساس أنه واضعها؛ لذلك يطلب المغفرة والسماح من كل شطط. ألسنا نقول إن «اللسان بلا عظم»؟ لكن أخشى أن أعترف بأن الهوى ظل هناك، أوَليست أرض الحب واسعة؟

هي من أرض الله جل جلاله، والبرازيل، كما يسمِّي قسمًا منها أهلُ «ريو دي جانيرو» هي «حديقة الله»، وسكانها من أقوى من عرفتُ إيمانًا وتقوى وتعلُّقًا بالغيب، وكذا، عشقًا للحياة التي هي امتحان للإنسان كي يذوق غدًا من ثمار تلك الحديقة الغناء. لا أعرف إن كنت أستحق وصفها، ولكني موقنٌ أنني فعلت ذلك إيمانًا بحب الحياة، وتمجيدًا للإنسان الذي يجترح فيها تحديات الحضارة والبناء، وقبل هذا وذاك خشوعًا أمام قوة الخالق، الذي ليست البرازيل، التي حسنت في عيني فأهديها لكم، إلا واحدة من آيات خلْقه البديع، وإحدى دُرر ملكوته المتفرد.

(I) أي فتنة في «حديقة الله»؟!

«الصب تفضحه عيونه»

كما يحدث لكل مسافر بعد نهاية الرحلة، لَملمتُ بقية أنفاسي كي أصل إلى سريري لأغط في نوم عميق؛ عساني أسترد راحة جسم كَلَّ من التنقل، وروحٍ تقلَّبت بين أهواء شتى، لا يعلم صاحبها هل عادت معه، أم ظلَّت شاردة هناك في «حديقة الله»، في البلد المذهل بفتنته. لكن حالي مختلف بكثير، أيضًا، لدرجة أني — قبل النهاية — مثلت لنفسي — مرات — الوضع الذي إما تطيَّرتُ من أن أءول إليه، أو الخاتمة السعيدة كما يتمنَّاها المسافر بعد طول تجوال.

ينبغي أن أعترف بأني، وقد حطَّت الطائرة القادمة من «ريو دي جانيرو» في مطار رواسي بالضاحية الباريسية، عمدتُ، أول شيء، إلى تحسُّس أعضائي عضوًا عضوًا؛ فقد كنتُ، قررت أن أفعلها إن كتبت لي النجاة، لا من مغبة التحليق فوق سموات المحيط الأطلسي ما يزيد على عشر ساعات في خط العودة من البرازيل إلى باريس، مما يهون مع الزمن، ويصبح مألوفًا بعد عمر من الطيران، إنما الخوف من الأهوَل، ذاك الذي يفلت من الألسنة إن قلت إنك ستقصد مدنًا منها «ساو باولو»، و«ريو دي جانيرو»، وأخريات في تلك الأرض الأمريكية اللاتينية التي هي أشبه بقارة منها إلى بلدٍ مفرد. عدا الإرشادات التي يُزوَّد بها السياح كلما غادروا الأوطان: انتبهوا! تحسَّسوا أمتعتكم! خذوا حذركم من السلب والنهب! وغيرها يردِّده مذياع ملحاح في أنفاق مترو حاضرة باريس الكبرى في كل المواسم، حتى ليُخيَّل للسائح، من حدة التنبيه، أن أيديًا ستمتد لاختطافه من بين النوافذ، أو تطير به، وهو يحدِّق ببلاهة في برج إيفل، إلى سماء ثامنة. عداها وجدتُ في انتظاري تحذيرات أخرى رهيبة قدَّمتها لي متطوعة، متبرعة، مرشدتي الأولى، وأنا أحط قدمي في «ريو»، قدَّرت أن

وجودها إلى جانبي — في بعض المواقف — سيوفِّر عليَّ وقتًا أقضي فيه أوطارًا أهم، غير السياحة.

رافقتني «تلمَى» — سأقول على وزن سلمى — إلى الفندق حيث حجزت، في مطلع صباح الثاني من يوليو (تموز) لعامنا (٢٠٠٦م) هذا، قادمًا من جزيرة جمايكا ببحر الكراييب، ولهذه موعد آخر برأسي. في الطريق ضغط السائق على زر التدفئة فانتفضتُ مستغربًا، فقد وجدت طقس الصباح دافئًا بخيوط شمس تشرق بتؤدة، لكن تلمى أكدت أن الفصل هنا شتاء، أو لا يزال، ولم يفارقها يقينها طيلة الوقت الذي قضته معي، وهي لا ترتدي إلا قميصًا أبيض خفيفًا على بنطلون يتلوى بأسفلها. في الطريق السيَّار إلى المدينة، حيث نهر العربات الخصوصية، والحافلات، يتدفق، ظهرت لي الوجوه الأولى للأقوام البرازيليين الذين سأعرف، تباعًا، في مناطق عدة، ملفوحة بشمسهم الوضَّاحة، ليس على أبدانهم إلا قمصان شفافة، ولولا أن غيرها جدَّد لي يقينها، وبثقة عمياء، لاعتبرت الإحساس بالبرد في قلب المسكينة المرافِقة، لا هو يسود الجو الذي كنت لا أزال مأسورًا إلى طقسه الاستثنائي في مدينة «مونتي غوبي» الجمايكية؛ حيث الساحل يتزوج السحر، ويعاقر الغرابة. و«تلمى» توصلني إلى فندقي لأنال قسطًا من الراحة عادت بخُفَّي حُنَين تلتحق بي لتوصيني؛ غدًا موعدنا بعد الظهر، بالأهم: Oh Monsieur Madini, j'ai failli oublier; heureusement que ... قالت بفرنسية ذات لكنة خاصة، من حسن الحظ أنها تذكَّرت الأهم، وتدفق مِن فِيها سيل الترهيب: «رد بالك، ورد بالك، وعندك وحذار من اللصوص، وأنت تمشي، وأنت تميل»، وختمتْ وقفة الذعر بأن كل ما أحتاج إليه، الآن، هو ساعة من النوم، وبعدها مدبِّرُها حكيم. وفيما انغلق خلفي المصعد كنت أسمع نذيرها يتواصل كحممٍ بركانية، قادمة لا محالة، وإن كنت لحظتها قد انزعجت قليلًا من شدة نصح مرشدتي، التي ذكَّرتني، مع الفارق، بحدب أمي حين كنت أسافر — وأنا في صباي — من الدار البيضاء إلى فاس لطلب العلم، وتظل قلقة عليَّ من الإنس والجن إلى أن تستردَّني إلى حضنها بعد شهور طويلة؛ ثم ما لبثتُ أن التمستُ لتلمى الأعذار، تبيَّنت لي فيها خصال لطيفة، فضلًا عن شأنٍ حكائي غريب سآتي إلى ذكره، إن لم يبتلعني ما تبقى من أشباح خوفها بعد رحلة، أحمد الله مجددًا على سلامتي فيها بين الذهاب والإياب.

اتجهتُ أول ما ولجت غرفتي إلى النافذة، بعد أن وضع العامل حقيبتي في مكانها وتولَّى منفوحًا، شاكرًا. فتحت النافذة على مصراعيها لأرى قبالتي الكورنيش البديع لمدينة «ريو» المشتهر باسم كوبا كابانا (Copa Cabana) ممتدًّا في لسان طويل مسافة كيلومترات،

لا يطول بصري مدَّها من حيث أنظر، وأمامي البحر صفحة واسعة، لا ساكنة، ولا هي متحركة، تخلَّلته خيوط شمس أولى، فجعلَتْه فضة متلألئة، بريقُها يكاد ينعكس في عينيَّ ليجذبني، يتغلب رويدًا على نعاسي داعيًا «أن تعال»، فهل قطعتَ زيادة عشرة آلاف كيلومتر لتنام، وأنت الذي وراءك تاريخٌ طويلٌ، وأمة تفيق من سبات عميق؟ وضعتُ في الخزانة المرقَّمة مالي وأوراقي، وفي دقائق صرت على الكورنيش ببنطال قصير ونعلين، أمشي. لبَّيتُ نداء البحر لأراه، ربما هو يريد أن يعرف خَطْب هذا الزائر المغربي، الذي ترك غرب بحر الظلمات لينزل في شرق المحيط الأطلسي، فما الخبر؟! نيَّتي لم تتجاوز أكثر من أن أرى البحر وجسدي متراخٍ، لكن البشر عن يميني وشمالي، ورائي وأمامي يمشون، إنهن يمشين، بخُطًى واثقة وإرادة ثابتة، أغلبهم من العمر الثالث، كما يسميه الفرنسيون، وهو الكهولة، وإن حافظوا على حروف الزين والعافية، ولم يكن بد لي من أن أجاريهم، (أولستُ في دارهم؟!) ألفيتني أنقاد في سربهم كأنه موج عاتٍ يجرف كل ما في طريقه، يجرفني. ورغم أن عادتي هي الركض المنظم، المنتظم، فقد انضبطت لإيقاع حركة المشائين البرازيليين. هكذا قررت أن أسميها حين رحت أنخرط في الزحام ساعة بعد ساعة، ويومًا إثر يوم، أسمع في مدينة أخرى بالشمال، أن شعار جل الناس في هذه القارة قولهم: marcher et vivre، أو كما سيخبرني، لاحقًا، بفتورٍ ألبرتو (Alberto)، الذي يفضِّل الكسل على عسل الصحة الرياضية! نسيت تعبي، أو نسيني، بعد أن أمضينا الصبيحة كلها — تقريبًا — في المشي. لن أرى بعد الآن، وحيثما ذهبت، إلا قومًا يمشون، كأنها مهنة ملزمة، عدا أنهم يمارسونها بمتعة وشغف، ودأب.

قادتني خطواتي إلى الوجه الشمالي لنهاية الكورنيش، في الصخرة العالية تضع حدًّا لـ «كوبا كابانا» من هذه الناحية، على سفحها الصاعد اصطفَّ الصيادون منذ وقت مبكر، أرخَوا قصباتهم يتسلون أو ينتظرون القوت. وفي الممر الضيق ذاته للراجلين هناك أجساد نيام أشبه بالمشردين؛ منظر يتعدد في زوايا من الشاطئ، وأخرى في ظاهر المدينة وخبيئها، كما هو حال المدن الكبرى وأرقاها دائمًا، نيويورك مثلًا، أقواها اكتظاظًا بهذه الظاهرة قبل باريس ولندن. لم يبالِ، لا هؤلاء ولا أولئك، بعبوري، وأنا نفسي كنت شاردًا عن حالي، أو قل مفتتنًا بالصورة المعمارية العالية والمنسَّقة، كما تمنحها البنايات المتصاعدة قبالتي، يفصلني عنها شارع فسيح نصفُه تقريبًا مخصَّص لحركة الراجلين. في هذا القسم من «ريو» نتبيَّن بوضوح أن المهندسين المعماريين تأثَّروا بتصميم ساحل الريفيرا الفرنسي، حيث ينتصب، على وجه التحديد، وبفخامة، «الكوبا كابانا بلاس» على غرار فندق نيغرسكو

(Negresco) الشهير في مدينة نيس، يليه الطريق الممتد على جانبيه بين نيس وموناكو، المشتهِر باسم «نزهة الإنكليز» (La promenade des Anglais) أحد أبهى وأطول ممرات المشي في ساحل الكوت دازور. عندما غادرنا المطار امتد على جانب الطريق السيَّار صفٌّ خلته لن ينتهي لدُورٍ بُنِيت كيفما اتفق، تشكِّل أحياء كاملة نراها من السيارة ذاهبة إلى عمق بلا حدود. هذه هي الصورة التي «تقيئها» اليوم مداخل بلدان عدة، إما من العالم الثالث أو ناهضة كالبرازيل، نحن نسميها في المغرب البناء العشوائي الذي لا يلبث أن يصبح نموذجًا للسكن الشعبي، يتكدس فيه البشر بلا حساب، (أي بشر؟!)، على شاكلة ما ترى في ضاحية الأوزاعي، جنوبي بيروت، أو إن دخلت إلى دمشق من طريق المطار، فتسأل متحسرًا لا محالة: أين الشام؟!

عكسها البناء الرشيق في جهة كوبا (COPA) يقابله صف أشجار الكوكو الخضراء الضليلة، وبُسط الرمل اللمَّاعة بنقائها. فقد عكفت سيارات خصوصية على غربلة الرمال، وتفرق رجال يلمُّون أي شيء نافل، وإن لم ألحظ — بعد وقت اصطياف — نفايات تُذكر. يصل السابحون بمناشف صغيرة فيلعبون ويسبحون بِدَعَة، ويتوجهون إلى مواقع مخصَّصة للجلوس في مقاهٍ للشرب والأكل ينالون فيها ما طاب وأمكن، والشاطئ على حاله باقٍ أنظف ما يكون. وسواء هنا في كوبا كابانا، أو في الوجه الساحلي الثاني، المُسمَّى «إيبانيما» فإن النظافة تبقى المظهر الأغلب يفحمك قياسًا بفارق ما. والتجول في الشوارع ومختلف الأحياء، المزرية منها، أيضًا، أو المنعوتة كذلك، لا يقذعك بتكدس نفاية، ولا نتن رائحة، ولا ساكنة تلقي ما بيدها بلا تربية أو ضمير يؤنب أو قانون يردع. ولقد اعتدنا في ثقافة طبقية أن نقرن الأوساخ والقبح بالفقر وسكن الفقراء، والذل والمسكنة بهم، أيضًا، وهنا لا شيء من هذا اللهم أن يكون سلوك فردٍ وليس طبع جماعة بأي حال، شأن المتفشي في بعض ديارنا.

وإن للمُشاهِد أن يتوقف، حقًّا، بانتباه خاص، لما يعزز هذا السلوك متمثلًا في كثرة دُور الطهارة حيثما حللت، تصل إليها بأيسر جهدٍ، خلافًا لكل الدنيا، فمطارات ومحلات أوروبا وأمريكا، تدوخ لتعثر فيها على مرحاض أو تأخذ فيه الطابور. لا شك أن لهذا علاقة بالطقس ونوعية الاستهلاك المكثر للسوائل هنا، غير أن حد النظافة معه فائق وممتع. عندما جُلت عبر خليج «ريو» الجميل أطلقت سيدة ضحكة مرحة والمركب يمخر عبابه الأول، فلفتت نظر الركاب إليها بحسن قوامها وإلى جوارها طفلها لصق فخذها، تطوعتْ وحدها تشرح ضحكها السخي: إن ابني أول ما ركبنا اتجه يبحث عن بيت الطهارة، وهو

أَلِفَ ذلك، هه، فرفع الصحبُ حرجها قائلين بتلقائية إنه شيء طبيعي، وظهر لي في هذا الموقف العابر مشهد دقيق نسيج وحدِه للجد والهزل في طبع شعب، قل أمة، سأتعرف بالتدريج، وإن بسطحية وعجلة، على بعض خصالها وشمائلها، شأن كل سائح، يغريه الفرق ويصبح بوصلته للنظر والفرز، وقد تتضخم في عينيه الصور، ويرى بعيني المسحور بما علم أو سمع من قبل عن بلد الزيارة، وهو معهود عند بعض الرواة يحكون الأعاجيب والأكاذيب عن مشاهدات مزعومة لهم في بلدان زاروها بالمسموع أو المقروء، لا بما يقع عليه البصر ويشهد عليه أو ضده الواقع، ولا أنكر أنني أذهب، أحيانًا، ضحية خداع مماثل. وإذ رحت أواصل المشي المنتظم سخَنَ معه جسمي وغلى دمي، أفتح ذراعي على وسع الهواء والضوء، وأحس بأنني أعلو فوق الرمل وبساط الماء المنضَّد كسبيكة، متراوحًا بين دهشة الوجود هنا في هذا المكان الذي حلمت طويلًا بالقدوم إليه، أوسِّع به اكتشافي الشخصي للأرض. وبين سحر يتلمظ في شفتيَّ أريد لمذاقه أن يطول، وأن تغذيه آي الجمال وصور العيش الإنساني وخليقة ما تنفك تفتن، وأرفض أن تنقلب عادية، هنا مثل هناك، وإلا أقول لِمَ السفر، ولذا منَّيت النفس بأيام عظام في أرض البرازيل العظيمة بلا شك.

(II) بلاد الجسد، بلا منازع

«ممتنة لك وللعرب»

رنَّ الجرس فلم أسمعه، ثم استمر بعد أن فتحت عينيَّ على وسعهما، وبدأت أسمع رنينًا متواصلًا لم أميز مصدره، جرس الباب أم رنين الهاتف، إلى أن مددت بعد لَأْيٍّ يدي كأني فصلتها عن باقي جسم ليس لي، مسترخ على السرير، فرفعت السماعة وقرَّبتها من فمي الذي قال: آلو، بتكاسل، حسبه الطرف الآخر في الخط نعاسًا فاعتذر عن الإزعاج ثم ما لبث أن استجمع شجاعته ليذكِّر بوظيفته والموعد المضروب: «أنا تلمى يا مسيو مديني و...»

لم يكن السيد أحمد المديني لا كسولًا ولا متناعسًا، ولكن، بالضبط، مخبوطًا على رأسه بشكلٍ لم يتعود عليه، ولا حدث له من قبل. أجل فاتت عليه حصص النوم المطلوب بعد أن غاص — شي شوية — في بعض متع «مونتيغوبي» الكراييبية، فما العمر إلا ليلة. أما الهول فجاءه من هذا البحر خلف نافذة الفندق، عندما أكمل خط الكورنيش الممتد خمسة كيلومترات بين صخرتين لطرفٍ من الساحل، لم يتذكر إلا وجسده صار بجناحين فطَار إلى البحر وسمكة غاصت تحت مائه، بين انسياب وتشنج عابر يستفيق له السابح ليعود إلى استرخائه طافيًا فوقه كقشَّة أو نسيان. لشاطئ ريو الموج الذي يحبه هواة التزلج ومحبُّو اللعب مع الأمواج، وقد تركتُ نفسي أسبح في البداية وأنا أدندن بلحن كطير يزقزق، بين لحظة وأخرى، أعابث الموج منقذفًا فوقه أو منغمسًا تحته، أعوِّل على عتوِّه، سيجرني ويرميني دائمًا إلى شفة الرمال. عدت ذلك الطفل البعيد الذي تعلَّم السباحة في شاطئ عين الدياب بالدار البيضاء الفانية، أيام كان — وباقي الشواطئ المغربية — مملوكًا لجميع الناس، كهذا الشاطئ بالضبط، وهم يسبحون ويخيِّمون ويحتفلون ببساطة ولطف، من الحامدين الشاكرين، لا مُبعَدين عنها، مطرودين كالذباب، بعد أن استولى على

هذه الشواطئ حفنة من القوم لم يكفهم ما نهبوا من الأرض وفيها انتشروا، وحتى البحار سوَّروها يا لطيف (!). عدت ذلك اليافع يقاتل الأمواج متنافسًا مع أترابه، لا يبالي بلترات الماء المالح تملأ جوفه، فيرتمي ويعود ليرتمي متقاذفًا كطرزان في أفلام سينما الباهية بكراج علال، أيام ذلك الزمان.

لكن السيد المديني وهو يتلهَّى بوهم الشباب أتته موجة أسلست له القياد أولًا، كفاتنة تجر الذيل تقول «كأني عليك أمير المومنين أمير»، وفجأة بلا سبب معلوم، تزْوَر، تقلب ظهر المجن «كفاتنة في الحي شيمتها الغدر» فيصبح لها يدان بل أيدٍ كالتنين، وتشرع في ليِّه وطيِّه وعجنه تحت الماء إلى أن انفصلت أطرافه عن بعضها قطعَ غيار لكائن سيقذفه البحر، لا يتذكر منه سوى رأسه في غيبوبة تثقبها بجهدٍ جهيد عينان تريان الكوبا كابانا بلاس، ويسأل صاحبهما من أنا؟ أين أنا؟ يعود له، مع السؤال، ساقان وقدمان إلى أن يرتمي على الرمل البليل في الخارج فاردًا مباشرة ذراعيه، وهو ما سيعطي لجسمه شكل جثة قذفها البحر بعد أن تلاعب بها طويلًا وعافها حوته أخيرًا، ربما ذلك ما جعل مصطافًا فضوليًّا يقترب منه ويسأله إن كنت بخير، فيما هو ينظر بحدة إلى قرص الشمس ينتزع منه حق الوجود عَنوة ليؤكد له أنه لم يأتِ لهذا البلد ليموت، وإنما ليعيش أطول وأجمل. ربما كان الشكل المرسوم بلحمِه، وصاحبه مسلم بالفطرة، قد تصالب مع جسد المسيح المنتصِب فوق قمة «الكوركوفادو» يُشرِف من كل الجهات على المدينة، باسطًا ذراعيه منذ ما يزيد على قرن، يحميها، يرد غائلة أي شر عن ساكنتها Le Christ Rédempteur قالت تلمى، هو من حماك ويحمي كل وافد، أيضًا، ولا بدَّ أن تشكره بالصعود إليه في عليائه، بعدما حكيت لها ما جرى، أسلمت لها أمري لتفعل بي، ومسيحها، ومدينتها، ما يشاءون، «أنا الغريق فما خوفي يا تلمى من البلل!».

على أنها لم تكن أفضل حالًا مني، وإن أوحت بتماسك ظاهر، وعمر لا يزال مفعمًا بالشباب. طويلة القامة، نحيفة، وسأخبر عنادها في الحِمية حتى لا تتضخم كبنات البلد. أخبرتْني، وأنا أطلب منها مشاركتي أكلة «الفجوادا»، الطبخة الوطنية الأولى التي نصحتني بها حين قادتني في اليوم التالي إلى قاع المدينة لنتغذى مثل كل الناس، ونِلْت منها طبقين، ما ألذها! أعجبتني فرنسيتها المفككة، المفيدة في الجوهر، وهي تعتذر، تحسبني فرنسيًّا قحًّا أنا الذي طلبتُ مرشدة بهذه اللغة لأختصر المسافة. ولا أذكر كيف محوتُ جهلها بي حين أعلمتها أنني يا هانم، وهي كذلك، مغربي، أي من البلد الواقع فوق قرن أفريقيا التي كانت ثورًا هائجًا ينطح قبل أن يروِّضها الاستعمار، ففاجأتني قائلة: كهذه الأرض قبل أن يصل

إليها البرتغاليون وبعدهم (شعوب أخرى منهم الأفارقة العبيد والألمان والعرب والإيطاليون، وهؤلاء أجدادي) ثم — وهي تمسك بذراعي ونحن نعبر الطريق تقف السيارات هنا للمارة بتسامح — تجدد المفاجأة: أنا أعرف الناضور، وسبتة، والصويرة! ثم أحنت رأسها كأنما تبحث عن أسماء نثرتها للتوِّ من فمها كحبات عقيق، معها استرجعت نفَسًا ونحن نحتسي عصيرًا استوائيًّا في مشرب ظليل بساحة «براسا كينزي» حيث عبق التاريخ، وأطياف الحب ونكهة بقايا الليل دائمًا، وعتمة تفترش عتبات الحانات الشعبية. أخبرتني أنها رحلت إلى فرنسا لدراسة الهندسة المعمارية، ومنها انتقلت إلى ألمانيا حيث اقترنت بألماني. وبنقلة سردية لم أفهمها أضافت أنها سافرت مع هذا الزوج إلى المغرب ليبحث عن زوجة مغربية سابقة له، اختفت عن ناظره، فتأمل مثلي هذا العجب البرازيلي، أليس كذلك؟! وعادت تختم، لا أعلم تعجبًا بدورها أم حسرة على «عبث الأقدار»، هل كانت تتوقع أن تلتقي بمغربي في مدينة «الكريوكا» بعد طول سنين!

سمعتها تكثر من ترداد الكلمة، ونحن نزور المواقع السياحية؛ كنائس، مآثر تاريخية لمؤسسات سياسية، الخزانة الوطنية، المتحف الوطني، والأزقة الداخلية لبقايا المدينة العتيقة وخباياها، وهي تربط المكان بالزمان، وبالإنسان خاصة، وبدت لي متعصبة جدًّا لمدينتها، لريو، لا تحفل تقريبًا إلا بالكاريوكا، أي سكان هذه الحاضرة قبل غيرهم، وتحيل في الأغلب على مآثرهم وثقافتهم، وهي مثقفة، لا مثل كثير من المرشدين أشباه المتعلمين. توجستُ من نزعة عنصرية فيها، موجودة عند قسم من بيض البرازيل، يتعالَون على السود، والمُوَلَّدين الخلاسيين، وقد قُيِّض لي الاحتكاك بهم في أماكن أخرى سياحية، لا يرتادها عموم الشعب؛ فرأيتهم يتصرفون كلوردات ولا تكاد عيونهم تقع على ما تبصر، شبيهين بنساء يقدن سيارات رباعية الدفع، المنفوخة في بعض شوارع الرباط، بعيون تخفيها نظارات عريضة فَحميَّة، مستعدات ليدسن على دواسة البنزين لسحق كل هؤلاء الآدميين، لا يفهمن لماذا يمشون على الأقدام، ولا يستحون من غرس أعينهم في عيون أسيادهم ولاللاتهم اللواتي يشرِّفن الشوارع بالظهور والمرور (هكذا ما بقت حشمة! ما بقي حيا!). أنا توجست فقط، بلا يقين، وسرعان ما أَلِفتُ النغمة وسآلفها أكثر طيلة مقامي البرازيلي، وهي تعني التعصب بلا حدود إلى الأرض، إلى البلاد، إلى الوطن حدًّا مثيرًا. ليست الشوفينية العمياء تجدها عند شعوب شتى، بوعي أو تطرف منغلق، لكنها — يا كرام — حب الوطن، بكل ما في الكلمة من معنى، ومعانقة شمسه وهوائه وترابه، بطبع كالفطرة تقول إن الطفل يُفطَم عليه. ولا شك أن التلاميذ يتربون عليه في المدارس ويكبر معهم في الجامعات وحقول العمل المختلفة.

وإذ تتجول في الأسواق بين المتاجر تريد شراء تذكارات من أي نوع، فتجدها كلها ممهورة بالعَلم البرازيلي المؤلَّف من الألوان: الأزرق للسماء، والأصفر لعمق الأرض، وما تزخر به من معادن ثمينة، والأزرق للطبيعة الخضراء الغنَّاء ذات الجمال الساحر، والنجيمات الخمس أظنها لفوز البرازيل خمس مرات بكأس العالم لكرة القدم، وحيث الصبي يخرج من بطن أمه وهو يقذف بالكرة في الهواء.

في الجامعة، حيث قابلت أستاذًا متخصصًا في الدراسات العربية، سألته كيف يستطيع شعب، أقصد الشعوب المنتشرة في بلدٍ مترامي الأطراف أن ينصهر في لحمة وطنية واحدة فلم يحر جوابًا، بينما وجدته ميسورًا عند تلمى؛ يعتذر لسانها تلقائيًّا لكل ما تحسب أنه يزعجني منظرًا أو يسبِّب سوء فهم. تقول معتذرة: إننا شعب فتي، أي غُضَّ الطرف عن أي مشين فيما وأنا — برفقتها — مفعم بكل زين، أغبط الذين حولي على تعليقهم الرايات في مداخل المتاجر، وعلى سطوح السيارات، وعلامة لكل القبعات. كنت قد وصلت إلى ريو بعد فوات الأوان بالنسبة للبرازيل التي أُقصيَت من سباق المونديال على يد المنتخب الفرنسي، لكن هذا لم يمنع الفورة الكروية من الاستمرار؛ فإني وجدت الشوارع والحارات والأروقة التجارية مزدانة حتى أعالي الأعمدة الكهربائية بأشكال وألوان العلم، والمعروض للبيع قمصانًا للفريق الوطني هو لكسوة البشرية، ورغم حسرة الخروج المبكر من لعبة كأس العالم شهدت سجالًا اعتبر ما حصل في الطبيعة لا في الفريق الوطني. أما مرافقتي فقد كان لها رأي آخر تمامًا، وخاصة حول التكهن عن الفائز: فرنسا أم إيطاليا. أعترف بأن منطقها أذهلني، وقلت هكذا تكون محبة الأوطان أو لا تكون. اسمعني، قالت: لا تعتبر أني أجاملك لأنك قادم من فرنسا، لكني أفضِّل أن ينتصر الفرنسيون على إيطاليا. أجل إن أجدادي قدِموا من هذا البلد، ولكن لو انتصرت إيطاليا فإنها ستقترب منا، ستفوز بالكأس ثلاث مرات، ونحن وحدنا فزنا به خمس مرات في العالم، أتسمعني، لعلَّك فهمتني الآن مسيو مديني!

أردتُ أن أجيبها بلى فهمتك أكثر، وإذا الصدفة تتيح لي طريقة مُثلى للتعبير عن ارتباط أقوى في نظري بأمتي ولغتي، الوحيدة المتاحة لي عندئذٍ. صادفتنا في تجوالنا مكتبة دخلت إليها بجاذبية؛ فهي الأولى في مقامي هنا، لأكتشف لاحقًا أن المكتبة في هذه الأرض مثل باريس «عيد دائم» بعبارة «همنغواي». بعد استطلاع رفٍّ أو رفين انتصب وانبثق أمامي الكتاب كالنبع في طريق الضمان، هذه مناسبة لأعترف بجهلي باللغة البرتغالية المتداوَلة شفويًّا وكتابة، ما لا يمنعني من قراءة تقرِّب إلى الأسرة اللاتينية يُقضى بها الغرض.

هكذا قرأت العنوان شبه مصعوق، أظنه هكذا Poemas suspensus، ووالله ترجمتها فورًا بـ «المعلقات»، وإذا هو المرحوم الدكتور شكري فيصل في نهايات ستينيات قرن خلا، أراه مجددًا كأمس في فاس بظهر المهراز يُورد الرايات بيضًا مع عمرو بن كلثوم ليعود «يُصدرهنَّ حمرًا قد روينا»، فألتفت إليها لم تفارق خطوي لساني يصول بشعر أجدادي:

بأنَّا المطعمون إذا قدرنا وأنَّا المهلكون إذا ابتلينا
وأنَّا المانعون لما أردنا وأنَّا النازلون بحيث شئنا
وأنَّا التاركون إذا سخطنا وأنَّا الآخذون إذا رضينا

وعيناي على عينيها: أنتم البرازيليون ونحن عرب، هل تعرفين من هم العرب، إنهم من قال فيهم ذلك الفارس الشاعر البائد في الزمن البائد:

ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخرُّ له الجبابر ساجدينا

وكان الكتاب فعلًا المعلقات مترجَمًا إلى البرتغالية كَشْفي العظيم اقتنيته وأهديته لتلمى، فضمَّته إلى صدرها لتقول بتأثُّر: «إني ممتنة جدًّا، لك وللعرب.»

(III) «فتمتَّع بالصفو ما دُمتَ فيه»

«فما أطال النوم عمرًا»

في السادسة، والشمس على المغيب زيادة، كنا نعود إلى فندقي في «الكوبا كابانا». في الحقيقة حرصت على العودة بمفردي، بل عدم العودة لمواصلة التجول على خاطري، لكن السيدة المرشِدة أبت إلا أن ترافقني إلى مثواي، بحسابها حرصًا على سلامتي، ولتطمئن أنها أدَّت مهمتها غير منقوصة. في طريق العودة مررنا في منطقة بدت آهلة بالبشر، مصطخبة بالحركة من مظهر الزحام الناشب حولها وداخلها مما أبطأ عبور سيارة الأجرة التي نستقل. بالضبط، هذا ما يلعلع فضولي، رغم اكتظاظ المَشاهِد السياحية في عينيَّ مذ ولجت هذا البلد، ومرافقة تعلمني التاريخ والجغرافيا والغزوات والفن والمطبخ دفعة واحدة، أنا من يطلب حب الأشياء جرعات. طلبت منها أن نتوقف هنا لنقوم بجولة سريعة قبل العودة المحتومة عندها، أضفتُ أن هذه فوق الحساب، وأنا أفكر في توقيت عملها المضبوط، فعلقتْ سريعًا أن لا مشكل، إنما لا داعي للخوض في مثل هذه الأسواق الشعبية. ضحكتُ أكاد أسألها: هل أنت ذات أصول أرستقراطية، فواصلتْ تتجنَّب سوء تفاهم كونها تقصد بأن الموقع غير آمن: «أنت لا تعرف، لا تدرك، هناك سلب، قد يوجد لصوص، وأنت أخبرتني أنك تحمل معك كل أوراقك ... ومالك ... ولا قدر الله ...» تركتها لاستطرادها، وطلبتُ من السائق الوقوف فأيقنتْ أني مصمم، ثم رغم فروض اللياقة معها أنا لم أقدم إلى الأرض التي اكتشفها بيدرو ألفاريس كابرال قبل خمسة قرون باسم «سانتا كروز» لأقيم في نجوم الفنادق وأبهائها، وإنما لأعرف الحياة والخلق عاليهم وسافلهم، وأندمج في زحام المتسوقين.

قالت هذه سوق بلا حدود يؤمُّها كل البشر لاقتناء كل شيء، وكان فيها المبني باللَّبِن ودكاكين خشب كثيرة تعرض الملابس والأحذية والأثاث إلى جانب صف للتوابل، ومثله للمحسوب عتيقًا وسقط المتاع. أعلى الدكاكين رأيت أدخنة تتصاعد وتسربتْ معها روائح نفاذة فأصبحتُ أنا الذي يقود تلمى إلى مصدرها، وإذا نحن إزاء مساحة انتشرت فوقها مصاطب وطاولات وقدور كبيرة وصغيرة، عليها أصناف من الطعام شتى، وأطباق خشب من مختلف الفواكه الاستوائية، فدنوتُ أرى الطبيخ، أنا الذي أعتبر بلدًا بلا مائدة مخصوصة وطيبة ناقص شرط حضارة ووجود، ووالله تتابعت الأطاييب: اللحوم، ضأنها وبقرها وخنزيرها، والطير أشكال، والمرق أحجام وألوان، فيها السائل والمائع والخليط والكث والكثيف والمنعقد والمكبَّد، ما يعلو أو يتوسط اللحم أو فراش له، والكل سائغ تشتهي يدك أن تمتد إليه بلا استئذان ولا كيل مسبق، لأن قسمًا كبيرًا من هذا الطعام، بجوار سلَطَاته الطازجة، وخضاره الغنية، وفواكهه الغضة، تناله بالميزان؛ تملأ صحنك على قدر الجوع والجيب، وتتجه إلى طاولة لتغطس في مأكولك ببالٍ رائقٍ؛ فالكل حولك مثلك أو سيصبح، وقلت لها ما رأيك في تذوُّقه، وأنا أترجم لها بيت شاعرنا المهجري «فتمتع بالصفو ما دمت فيه/لا تخف أن يزول حتى...» اخترنا نتفًا للتبرك بطعام نساء ورجال البلاد، خرجنا بعدها تدريجيًّا من هذه Sahara وإن كان عليَّ أن أعترف أني تنفَّست الصعداء وأنا أركب التاكسي لأدرك فندقي سالمًا لم ينقص مني عضو، بل زاد خيالي وعقلي، وقلت لها أستودعك الله يا «خالتي»، وفي رأسي تدور أفكار وتتحرك مشاريع.

رأيت خليلي الليلَ بالباب يرسل لي إشارته الغاوية أن تعال نغزو المدينة من أبوابها الغامضة، «فما أطال النوم عمرًا/ولا قصَّر في الأعمار طول السهر». سأتحرر، وأعود أمشي وحدي، كما أفضِّل أن أعيش وحدي، وبرفقة الليل أفضَل. إذا زرتَ مدينة لا تعرفها أنصحكَ بأن تتحرك فيها على غير هدى، وبلا خارطة ترسم لك كل خطوة مثل اليابانيين «العميان» في السياحة. استخدم الحافلة، وفي البرازيل، وريو تحديدًا، عشرات الشركات، حافلاتها أنواع ومراتب؛ امتط أول خط وامض بلا تحديد أو وجهة مسبقين. وقفزت في واحدة متوسطة، تنقد قطعة من جابية حازمة الملامح، وتجتاز عارضة حديد لتجلس في المقعد المتاح، وجدتُه جوار النافذة، فرُحْتُ أحصد ما أرى — بنهمٍ — في ليل لا أعرف كم سيطول. وأعرف الآن أنه مشعشع بالأضواء بين أنهار السيارات دافقة في اتجاهات متعددة والواجهات الزجاج للعمارات طوابقها بلا إفراط، فعدا الفنادق الكبرى ذات العلو المهول في كل مكان، تبقى البنايات وديعة وحسنة التنسيق على العموم، لكن العين لا يفوتها

أن تلحظ كيف أنها جميعها تسيِّجها مداخل بقضبان حديد تزيد على المترين، مسنَّنة في أعلاها، وخلف كل عمارة سكنية يقف أو يجلس خلف طاولة حارس بزي مخصوص دون تخطِّيه نارُ حرب توقد. دليل هاجس أمني مستشرٍ في كل الحواضر البرازيلية، وهو يبلغ في مدينة ساو باولو مداه، وتُعتبَر من خلال الإحصاءات من أخطر مدن العالم في حوادث السلب؛ ولا سائق فيها — كما في غيرها بحسب ملاحظاتنا — يغامر بالتوقف عند إشارات المرور الحمراء، ما لا يمنع الحياة من أن تسير سيرها العادي، والسكان يزاولون أنشطتهم اليومية بدأبٍ، ويعيشون ليلهم بشغفٍ. في المدينة الحديثة ما زالت الحافلة تخوض في شوارعها الواسعة، المنسقة والمؤثَّثة بصفوف النخيل وشجيرات الكوكو إلى ما لا نهاية. ومن مقعدي تغويني أضواء بعيدة ألمحها في الأعالي، أي في التلال المشرفة على السفح الذي نمشي فيه، وهي تنير كفوانيس، فقررتُ أن أكتشفها في الغداة، وحين وصلت إلى نهاية الخط غيَّرت الحافلة ومضيت فيها إلى أن انتبهت أني في شارع مشبع بالأضواء، يعج بالحركة، وعلى جانبيه ما لا حصر من المتاجر، والمقاهي، المطاعم، هذه بغيتي لأنها محافل للحياة، ولما ظهر لي الشيء الأهم قلت بعبارة المغاربة «هنا طاح الريال»، وبعبارة المشارقة هنا «مربط الفرس»، فتوكلت على الله، وسرت أمشي لا أحد يبالي بي، ولا تعرضت للخطف ولا للسلب.

بلى خطفتْ بصري واجهة، الأولى أتلفتُ إليها بعد نفس مشي طويل، معروض خلفها كتب، هي أقرب إلى لوحات صغيرة، خلفها شباب متحلقون حول طاولات، صرت بالباب لأراهم يتبادلون الحديث بهدوء وهم يرشفون فناجين قهوة باستمتاع ظاهر. استلطفتُ تمامًا هذا الوضع لأتبيَّن — لاحقًا — أنه تقليد في جُل المكتبات، ربما كلها، فهو حج وحاجة. في باريس هناك مكتبات واسعة ومتوسطة نضطر للبقاء واقفين لنقرأ فصولًا أو فقرات طويلة من كتب لا نستطيع اقتناءها لارتفاع ثمنها، أو لأننا نحب أن نتسلى. أما هنا فتستطيع أن تستشير ما تشاء كتبًا، حسنة التبويب، دقيقة التوزيع بين صنوف المعرفة على رفوف نظيفة تامة الرشاقة. أما المكان ففضاء رحب تتنقل فيه بدَعةٍ، رُصَّت في جنباته طاولات مستديرة ومستطيلة حملت جديد الإصدار بحسب الاختصاص. وكيفما كان فإن لها جاذبية وأناقة لا نظير لهما فيما سبق أن عرفت في طباعة الكتب وإخراجها وورقها وتصميم أغلفتها، تتفوق على المنجز الإيطالي، والمطبوع الفرنسي دونها بكثير. أما العربي فهو مسكين كأهله المساكين، دليل احترام الكتابة والكتاب والقراء، وهم متوفرون في البلد الذي تتعدى فيه الطبعة — بشرح متخصصين — عشرات الآلاف، والقراءة فيه

مألوفة لا يضاهيها إلا الرقص على إيقاع السامبا، وممارسة المشي الذي كأنه عبادة ثانية بعد الكاثوليكية ومتفرع كنائسها. اقتنيت نسخة من كتاب لأريه لطابعٍ مغربي لأقنعه بتغيير الحرفة والتوجُّه إلى الإتجار في قطعان الماعز أو تسويق البطاطس، أليَق به وبكثير ممن يزاولون هذه الحرفة في بلداننا، وهم ألدُّ أعداء الثقافة والكتاب، تعاضدهم حكومات أليق بها أن تسُوس السائمة لا البشر، فكيف بالقراء.

ولما قضيت هذا الوطر أحسست بأن أمامي أوطارًا أريد أن أغنم بها الليل قبل فواته، فشُدِدتُ إلى المتاجر مفتوحة والساعة العاشرة في شارع فيسكانتي، أطول جادة في المدينة وأغزرها عرضًا واحتفالًا بالبضاعة الجيدة، والأندية الفنية والرياضية، وحانات صغيرة شعبية كالدكاكين تبيع الجعة على الخصوص من القناني المصطفة، يرتادها النساء والرجال سواسية. لم أكن أشعر بجوع ملحٍّ وتنازعتني — في آنٍ — شهية لجراد بحري يشوى عند القوم بطريقة خاصة فقلت أصمد لأجوع أكثر، وبينا أنا في تجوالي سمعت ترجيع مَوَّال بأصوات طروب تتناوب بين التصعيد والخفوت، وتصل كلمات الغناء الدينية، بأسمائها وإشاراتها واضحة، تبعتُها إلى أن وقفتُ عند مدخل كنيسة صغيرة في مبناها ببابٍ كبيرٍ نصف موارب، قرأت، في لوح جانبي، أنها لفرقة دينية أنجليكانية ولم تقل اللوحة إن السود الفقراء زوَّارها الأُول. دخلتُ وصرتُ في الخلف فإذا بهم يتمايلون يمنة ويسرة على إيقاع نشيد ديني. البرازيليون السود بالذات فيهم نساء كثر، وهم خلف الكراسي قبالة المذبح، ما شعرت انتباهًا لوجودي الإضافي، وعدا لون بشرتي فأنا أشبه جميع البرازيليين الذين، بخلاف بيض وخلاسيين مطبوعين فيهم، لا تميزهم عن العرب كافة، وكم أحب ألا ألفت النظر بأي خاصية خلال السفر، أرتاح وأذوب كالسمك مع الخلق.

ولما أشبعت فضولي من الكنيسة انتقلت إلى الرصيف الثاني للشارع، فاتفق أن قابلت بعد خطوات بعض شباب تعرَّفت عليهم بسطحية في مقهى المكتبة، واكتشفت أن بلادي معروفة لديهم عبر تحقيق طويل أعدَّته وعرضته قناة «تليغلوبو» الأكثر انتشارًا، وعجبوا لما أخبرتهم أن جمهورنا مشبع بمسلسلاتهم المدبلجة إلى العربية، ذكرت منها نماذج، بحبكاتها الغرامية والمالية وامتداداتها اللانهائية، فسألوني إن بها جرأة جنسية وكثيرًا من القُبُلات، فهل هذا مباح في عالم المسلمين؟ فقلت إنها تساعد على صقل الألسنة من عربية همجية انتشرت عندنا، زيادة على لغات أجنبية تتحكم عنوة في مصيرنا. كانوا طلبة أدب وعلم اجتماع، قالوا ما رأيك أن تصحبنا إلى عيد ميلاد صديقتنا ماشا وستتعرف على

جو لطيف. شكرتهم أريد أن أعتذر بحجة أن مناي حضور سهرة سيدها إيقاع ورقص السامبا، أليست هذه عملتكم الوطنية الثانية بعد الرياليس؟ فألحُّوا يضيفون بمكرٍ محبَّب: لا تهتم، فأنت ما زلت شابًّا، والسهرة عند ماشا فيها — عادة — ما تشتهيه الأنفس وتلذُّه الأعين، ومن يدري فقد نرقص السامبا حتى الصباح. في لحظة عادت تحذيرات «تلمى» تجثم عليَّ، لكني، من جهة، كنت قد احتطت لخروجي الليلي بوضع «ثروتي» في الخزنة، ومن جهة ثانية «ما العمر إلا ليلة» وأي سفر بلا حسٍّ مغامرة هو كرحلة العجائز الأمريكيين أو السياح الفرنسيين يتنقلون في الأسواق المغربية طيلة النهار بقنينة ماء لا تعادل أورو واحدًا. اصطحبتهم بعد أن أقنعتهم بالمساهمة في السهرة بمشروب، ومررنا على المكتبة — بإلحاح مني — اقتنيت منها كتابًا لعيد ميلاد المضيفة بعد استشارتهم، وهنا قلَّبوا النظر فيما بينهم يتغامزون عليَّ، أنا العم الغريب. سمعت كارلوس يقول: إن طعمها حار ومضجعها لهب، فتظاهرت بعدم الفهم، ومضينا، ومرحهم الغنائي المفرح يفرش طريقنا، لا أشك في أننا سنقضي سهرة غنَّاء، ومن يدري فقد تحفل بمفاجآت، هي زاد طريق المسافر، كانت أولاها حين فُتِح الباب لأقابل وجهًا لوجه تلمى نفسها فغرت فاها لرؤيتي، وبيدها كأس حفَّه الحبَب.

(IV) جسد كالتلال، تلال كالنساء!

نظرتي العارمة تتكلم

إذا أتيح لك أن ترى ريو دي جانيرو والطائرة تهمُّ بالنزول في مطارها الدولي، فسيباغتك حتمًا منظرها الأخاذ بعماراتها البيضاء، منحدرة، متتالية البناء، عتباتها كألسنة تتقدم نحو البحر، يسقيها حليب الصباح بالضوء الشفاف وهو يغطي الخليج، آخذًا شكل تقويسة كالهلال شريطة أن ترى الهضاب والتلال الواثبة فوقه. ولو كان ليلًا لحسبْتها كثبانًا صارت مفخخة على غير العادة بالفنارات مرسلة تارة إلى البحر، وأخرى إلى الأفق البعيد تهدي السفن القادمة إليها والعطاش، سيطفئون يا سيدي الغلة بالماء الزلال والجسد الغض والوجه الحسن، لا بخداع السراب. هي ذي ريو تنام في حضن أبيها الجبل تكاثر جبيلات، صعد وانحنى، وما الأرض التي بُنيت عليها إلا كف مبسوطة نحو بحر منشرح يصل إليها ساكنًا قد توزع إلى بحيرات، تنظر إليه الجبال من علٍ يحذر غضبها، ونُصْب المسيح أعلاها لها دواء لكل داء.

فكرت دائمًا بأن النظر هو ما يخلق الشيء أو يبقى الشيء بدونه مادة غفلًا، وأقول الآن بأن شيء هذه المدينة يصنع العكس. إن حالات التشكُّل الباهرة للطبيعة، والكائن هنا، تصنع ضربًا من التوحد يماهي بينهما، ولن تسأل عندئذٍ أيهما الأسبق ولا الأجمل؛ فهما معًا اثنان في واحدٍ كامل. يقول الجغرافيون إن هذه المدينة إنما بنيت من انجرافات التربة، ومن تدميرات منظَّمة لمساحات في التلال والمرتفعات التي تشرف على خليج ريو، على يد الحاكم إستاسيو دي سا عام ١٥٦٥م لتصبح عاصمة سنة ١٧٦٣م بدل سالفادور باهيا في الشمال. إنها قطعة منهوبة من الجبال، ومن الغابة، ومن البحر؛ ولذلك تحضر فيها هذه العناصر متجاذبة، متكاملة ومنسَّقة. تحس فيها بأنك تعيش في الطبيعة البكر حين تصعد

إلى الأعالي فتخترق آلاف الهكتارات الغابوية بالرافعة الكهربائية، ومن حولك ما لا حصر أنواع أشجار، وأصناف زهور ونباتات وطيور، وسناجب وقردة وزواحف، تتنقل في عالمها المستقل بمنأى — ما أمكن — عن أذى البشر، وإن لاحظتُ أن السلطة في كل مناطق البلاد وضعتْ كل القوانين والتنبيه لحماية الحيوان والطبيعة، وردع الطامعين بجزاء صارم. وفي السفح الحاضرة العصرية، بكل مكونات المدنية الحديثة والعيش اللَّجب لسكان المدن بسلوكهم وأخلاقهم ومعاناتهم، هم جزء من المدينة، ويدخلون إليها ويخرجون بخمسة ملايين نسمة ونصف بين أحياء غنية ومتوسطة، والمعزولة في فقرها. بَيْدَ أن خصوبة نهر المواصلات المتفرع — غدرانًا — في كل اتجاه، ليوحي بأن المدينة تعيش ديمومة الامتلاء والفراغ، ولها رئتان عظيمتان تتنفس بهما، هما الجبل بغابته والبحر. السكان يتنقلون بينهما بالعربات للعمل، وللاسترواح برياضة المشي، فالخصلة الملازمة للبرازيلي أنه مشَّاء، وفي بلده يوجد شعار «امشِ وعِش!» والمدن مصممة — شوارعها وأحياؤها — ليمشي البشر فيها براحتهم، وليؤدوا رياضتهم، بل إن نصف طرقات ريو تُغلَق يوم الأحد، تصبح رهن إشارة الراجلين وهواة الدراجات؛ بذا يتفوقون على الفرنسيين والإنكليز بسنوات ضوئية من هذه الناحية. أما الميادين والساحات العمومية والحدائق والمنتزهات، وملاعب الأطفال، وفضاءات الألعاب الرياضية، حتى المرتجَلة منها في الأحياء المتواضعة، فحدِّث، وللعاصمة الجديدة برازيليا في هذا الشأن الباع الطويل، كما سنقف عليه.

أقول بين العالي والمنخفض، التل والسهل، ثمة الإنسان، وأنا هنا أعني المرأة عينًا. بداهة إن المرأة نصف الرجل، نصف الخليقة، الأنثى والرجل الذكر. دعونا من كل ما هو بَدَهي وتعالوا إلى بلد، أرض، نسب الولادة الأنثوية فيه مضاعفة وحتى مثلثة، وهي تكتسح مرافق المجتمع كله، وإن أرسلتَ الطرف وجدت خلقها يسبح في النهار والليل، وما أشد دلالها وتعززها على الشريك، القريب والبعيد، وإن ظلَّت المفارقات بلا عدٍّ. ولو خُيِّرت لجعلت البرازيل، انطلاقًا من ريو، أنثى، وإنها لكذلك؛ فلا أحد وشيء يشبه هذه الأرض إلا امرأتها، وذاك ما سميتُه التوحد بين الكائن والطبيعة، والله تبارك وتعالى عالم بأسرار خلقه، ما ظهر وما بطن. لكن يا سادة إن المرأة هنا ليست ككل النساء؛ وإذا كان — طبعًا — في بلدان زالت أو خفَّت فيها ضوابط الاحتشام أو تنسَّبت، الغربية خصوصًا، أن نراهن متبرجات حدًّا بعيدًا، حتى إذا جاء الصيف تخففن إلى الأدنى بتفاوت، فإن غالبيتهن هنا، وبالبحبوحة التي يسمح بها الطقس الموزَّع على فصلين طويلين صيفًا وشتاء، والاستوائي الممتد، يعشن متبرجات بالفطرة، تقول إن الواحدة منهن قُدَّت من

رخام أو بشفيف الزبد صُنِعت، لكنها لا تذهب جُفاء، بل هي البحر العاتي يجرف الهادر قبل الساكن، وعلى عتوِّها تتكسر النظرات العارمة بعد أن انخطف الطرف وطار القلب وأرغت الحواس ولَّما تزبد، يرتد لصاحبه محترقًا وهو أسير.

إنهن يضعن قوتهن كلها، جاذبيتهن أو شهوتهن أو إغواءهن في صدورهن، لا دخل للعمر، والعازب والمُحصَنة سواء بسواء. فالمرأة منهن يتضخم ثدياها بإفراط تتباين في تقديره الأذواق، وعندي مبالغ إلى درجة التشوه حين يختل التناسب مع باقي أطراف الجسد. أما صاحبته فهي لا مبالية، لعلها تتظاهر، كيف بوسعها أن تنكر ما يتحلب له ريق الرجال، حتى ولو صرفوا النظر أو غضوا الطرف، أو أبدوا ما يشبه التعود على مألوف. سألت «غابي» الصائغ في متجر داخل الفندق، وهو من أصل لبناني، عن تفسير، فارتبك قبل أن يجيب إن صدر المرأة سلاح في يدها، تغوي وتبتز به الرجل الذي لا شك يحبذ، وفيهن المتباريات بالفتنة، إذا ما علمنا أن كفة النساء أرجح على الرجال عدًّا. وكنت أعلم — سلفًا — أن هذا البلد، والمدينة خاصة، مشتهرة بجراحة التجميل، بعملية نفخ الصدر أو ما يسمى «السيليكون» كل من تحس بضمور أو تبغي اتباع التقليعة - بائعات المتاجر بكثرة - وضعت ادخارها في انتظار الحصاد. بيد أني ما لاحظت أو أحسست بأن الطفو الجسدي هذا ذو علاقة بالأخلاق أو يتطابق مع حكم مسبق أخلاقيًّا من أي نوع، كما نفهم عادة عند من يُسمَّين «بائعات الهوى» أو ما شابه. فإذا زدتَ إلى غلو الصدور قوة الأرداف والأوراك علمت أنك مع صنف نساء مخصوص ببلدٍ، يغدو «طبعة» مستقلة لما يتمازج عرقًا وسلالة ولونًا، وعندئذٍ فإنك أمام خلق باهر، جمع من كل فن طرفًا فبعث على الذهول، وسبحان الخالق. على أن لي نظرية لا أعرف — حقًّا — كيف أصوغها، وهي مبنية فقط على القياس والمتشابه، وهو في حد ذاته منطق مقبول. فإني لما نظرتُ إلى المرتفعات التي تحضن، في سفحها، مدينة ريو وجدتُ تقاطيعها، العالي والمنبسط، شبيهًا بجسد المرأة هنا تمامًا، وهي لعمري من الضخامة والتدفق في نواحٍ لتحسبها حاملًا، أو أمًّا تحنو على وليد، أو بكرًا في طور البلوغ، وما هو إسقاط أو وسوسة، فالإنسان، أيضًا، ابن الطبيعة، وفي مفاتنها يتحيَّر الناظر كما في الخلق، أو لعل النساء وَحَمْن على ما يريْن، فجئن على شاكلة المحيط، وأما أنا فلا أنكر، هاجت نفسي وتحيَّر قلبي، ولم ألقَ تفسيرًا، إن كان ولا بد، إلا أن النساء في البرازيل كالطيور على أشكالها تقع، والله أعلم.

لسن وحدهن، بل كل من يصل لا بد أن يحج إلى الأعالي في ريو، منها معلَمان لا غنى للسائح عن زيارتهما: الأول جبل الكوركوفادو بأزيد من ٧٠٠ متر ارتفاعًا، حيث

أُنجِز نُصْب ضخم للسيد المسيح، تراه من أي موقع في المدينة، حامي حماها في معتقدهم، وضعه سنة ١٩٣١م الرئيس التاريخي فارغاس، ومن هذا العلو الذي تصل إليه بقطار دُشِّن سنة ١٨٨٤م فتُطِل على إحدى أجمل مدن العالم من حيث تشاء، تراها بيضاء برًّا وبحرًا في عناق. جبل أو «قالب السكر» Pào de Açucar تصل إليه بعد مرتفعين بالسلك الكهربائي، وهو يمنح أحد أجمل مشاهد المدينة، خاصة إذا وقفت والشمس تميل إلى المغيب. وكيف يفوتني ألا أحث على زيارة «حديقة النباتات» الواقعة في المنطقة الجنوبية امتدادًا في ٥٤ هكتارًا زُرِعت منذ عام ١٨٠٨م لتتبنَّاها اليونيسكو في ١٩٩١م كخزان طبيعي بعد أن اعتُبرت في بلادها معهدًا للتراث التاريخي الوطني. يكفي أن نعلم أنها تحفل بجميع ما تمتلئ به أرض البرازيل الشاسعة من نباتات وأشجار، وهي تحتفظ بـ ٦٥٠٠ نوع نباتي نادر ومُتعهَّد. وأقوى ما شدني فيها الممر المسمى «الممر الإمبراطوري» يمتد فيه من جانبين متقاطعين صف نخيل لم أرَ ولا تخيلت نخلًا بطوله سامقًا في عنان السماء حقًّا لا مجازًا، وهو منسَّق، مشذَّب، ومحيطه نظيف. ولكل ممر، كما لسائر النبات، اسم وتاريخ ورُقًى تحرسها أحيانًا، وبين ظلالها يمشي العشاق، ولو كنتُ من الساكنة لجعلت تقاعدي فيها، بها الثمار طيبة برخاء، والماء عذب، ولن أدفع فلسًا للدخول ولا الإقامة، فسأكون بلغتُ سن الولوج المجاني، وهو احترام للكبار نعدمه مع غيره كثير. ثم سأغرف من الأخضر ما أشاء، من كل الألوان، ثم أبقى أتفرج على فصائل «الأوركيدي» كيف تتنافس في التغنج بعضها ببعض، وسأتلصص على النحل كيف يرشف الرحيق، والفَراش وهو ينام فوق أهداب الوردة.

سأغيظ تلمى إذا قلت لها إني اكتشفت أسرارًا تجهلها في الـ Jardin botànico، وقد فعلت، لأنني ذهبتُ بمفردي وتركتها لوجع الرأس مع ماشا التي لم تحرقني من حسن الحظ بالكامل. حين حضرتْ بعد الظهر طلبتُ منها أن تصطحبني فقط؛ فسأريها مكانًا، متحفًا لم تزره من قبل، وأراهنكِ لأنه خصوصي، أي لا يرتاده السياح. متحف «الفنون الفطرية». فيه تفرجنا على لوحات تمثِّل الجسد البرازيلي في أوضح وأدق وأبذخ تكويناته الزراعية والرياضية والاحتفالية، بالتقاسيم الموهوبة في الطبيعة، والألوان الزاهية؛ الأصفر، الأحمر، الأخضر، البرتقالي، وكان من أخطرها لوحة فريدة للرسام الفطري غيرسون (Gerson) سنة ١٩٢٦م خصَّصها لصورة النساء، إنما أي نساء هن هؤلاء «المولاتو» المزيج، ذوات الصدور العارمة والأجساد المتينة المسورة كالأبراج. بهتتْ مرافقتي؛ فليس فيهن من «كاريوكا» مدينتها شيء، وهؤلاء يغيِّرن عندي طعم وطبع الشقراوات في باريس

وغربها كله. رأتني، إذن، أضع قدمي في أرض التاريخ والفولكلور والتراب اللافح، رغم أني لم أستهِن بزيارة متحف الفنون المعاصرة، له نظائر. وكأنما لتقتص لنفسها رغم أن المفاجأة أسعدتها فقالت، وهي تعلم أنني غدًا سأكون في طريقي إلى أرض التاريخ البرازيلي الأول: أنا، أيضًا، عندي مفاجأة لا أشك أنها ستزيدك حبورًا. لقد تركتُها إلى الأخير الذي ينبغي أن يكون سعيدًا لا حزينًا، انظر — وهي تمسك بيدي — علينا أن نسرع، سنمشي كما يمشي كل الناس هنا، إنهما في انتظارنا. لم أسأل من، وكدنا نعدو وقد عدنا نخترق قسمًا من شارع دو فسكانتي جنوبًا، في نهايته مع لألأة راقصة لضوء نهار سيرحل تجلَّت مساحة خضراء لا تتوقعها العين تنتشر أمامك فجأة، وتنهض فيها الأشجار والنافورات والطير والنخيل، يا ربي، ما هذا؟ إنها Jardin da Allah، أي نعم «حديقة الله» هذا اسمها. ومَن الطيف الهفهاف هناك؟ إنها ماشا حارستها!

(V) حاشية على الماء

«الصبا والجمال ملك يدي»

لا هو من السهل مغادرة ريو، ولا الجو كان يلائم، أقصد اليوم الذي حجزت فيه للطائرة المغادرة إلى الشمال، سالفادور دي باهيا؛ إنه يوم القيامة الكروي. رغم أن البرازيل غير معنية مباشرة بمباراة نهاية كأس العالم، إلا أن العقول كلها ضربت موعدًا مع توقيت اللعبة، وهي بالتوقيت المحلي الثالثة بعد الظهر. هذا، إذن، يوم غير صالح للسفر، فأخَّرت الانتقال إلى الغد، وأنا واحد شغوف — مثل الملايين — بالمباريات الحاسمة، وطبعًا بما سيفعله النجم الفرنسي ذو الأصل الجزائري زين الدين زيدان، الذي أصبح أشهر رجل بين الأعلام. حين طلبتُ تمديد إقامة يوم في الفندق نصحني مشرف الغرف بانتهاز فرصة الصبيحة للقيام بنزهة بحرية حول خليج المدينة؛ أكد لي أنها أمتع ما يكون.

في التاسعة والنصف كنت عند رصيف المارينا السياحية مع مجموعة نساء ورجال وأطفال. دفعت عشرين دولارًا لتذكرة الجولة. وفي الوقت المحدد كان المركب ينطلق من الميناء، يمخر الماء الوديع بوداعة. طيلة تنقلاتي بهذا البلد الذي تُعَد الطائرة وسيلة نقل أساس فيه، لاحظت الحرص التام على إقلاع الطائرات في مواعيدها والنزول كذلك، وجميع من يتواعدون يصِلون في أوقاتهم بل يؤكدون قبل الوصول، وهو مظهر جد في التسيير مرصود في معاملات شتى، وفي دولة عريقة وحديثة في آنٍ، تُحسِن تصريف شئونها الإدارية والتنظيمية، وتتقن استقبال الأجانب وفن التعامل السياحي، وتهيئ — لذلك — كل الوسائل ما دامت المرافق السياحية تدرُّ مدخولات جيدة، ويعيش عليها قطاع واسع، فضلًا عن أنها تعرِّف بالتراث والثقافة والخيرات الرمزية الوطنية، وهي مصدر اعتزاز وشرف لدى المواطن.

كنت العربي الوحيد في المركب مع ألمان، وأمريكيات يدور بينهن حوار كمواء القطط، وأزواج برازيليين مع أطفالهم … سارت الباخرة تبتعد تدريجيًّا عن الساحل، وتخرج من الحوض باتجاه بحر خليج ريو. ونلتفت لتعود المدينة تتشكَّل، وبناياتها ومواقعها تعلو تدريجيًّا نراها تتسربل بوشاح أبيض تضرب فيه بقوة شمسٌ شديدة السطوع هذا الصباح. ريو ليست واحدة، إنها متعددة، وكلما واصل المركب ابتعاده، أو التفَّ من ناحية مختلفة للخليج رأيت أخرى، وإذا أدخلتَ في الحساب حركة المركب وتمايله فتأمَّل معي كيف ترى مدينة ترقص في عينيك، شأن أهلها الذين يتفوقون على العالم طرًّا في هذا الفن. بلباقة قدَّم لنا الربان ومساعدوه ضيافة من فواكه طيبة: إجاص وبطيخ، وعنب، وشطائر أناناس، يفترض أن نتذوقها، لكن الأمريكيات أجهزن على المعروض وزِدْن، بينما تناولنا قطعة واحدة للفرد.

لما طاب الركوب واستقر البحر بعد لأي، صرنا على مسافة معقولة من الساحل فظهر من الأسفل ثلاثة شباب ذوي سمرة مذهبة يحملون آلات عزف، وقفزوا رأسًا بين الممرات إلى الخلفية، لهم دائرة صغيرة، وانطلقوا يعزفون ويغنون بسعادة ومرحٍ. غناء لطيف وإيقاع محلي طغى — من حسن الحظ — على المواء، وتجاوب معه الركاب المحليون بحركات راقصة أدَّتها برقة سيدة رشيقة القوام ما زالت تحمل حروف الزين، وأخرى ملونة متقدمة السن ترى جسمها — بحركات منتظمة بين الكتفين والقدمين وأصابع اليدين — كأنه عازف الموسيقى وإيقاعها في آنٍ. والراكبون صاروا جوقة واحدة ترسل الغناء وترد بتلقائية، وكلما خفتَ طرف أو أوحى بالفتور استجاب الثاني، فما عرفنا أخيرًا مَن يغني ويرقص، نحن أم المركب أم المدينة أم الجبال والتلال، المسيح وقالب السكر، نساء «غيرسون» الفلاحات القويات في المتحف الفطري، أشجار الكوركوفادو لو قلبت السماء لكان أفضل لطولها اللانهائي، أضف الفتيات والفتيان، كل الرجال والنساء على الكورنيش، في الأسواق، بين مزارع القهوة وشجر الباو الصباغي والموز، ونهود الكاكاو المنعقدة بفصاحة في الشوارع نضَّت عنها حشمة منافقة، وكل ما يدبُّ على وجه الأرض في لحظة رقص وغناء. لا تعجب، فالدندنة هي خاطر وسلام الصباح، والمرح بلا نزقٍ هو لغة الخطاب، آه، والرزق على الله.

لا عجب إذا كانت هذه بلاد الكرنفال، ينعقد طولًا وعرضًا، في كل الحواضر، وحيثما يعيش يطرب الإنسان، لا تفريق في المزاج والشعور ومسِّ الجسد بين غني وفقير، متعلم ودونه، ابن حاضرة أو بادية. غابي الطروب بطبعه تمنى أن أحضر في شهر فبراير، قال

تعال مع مناسبة الكرنفال وسترى عجبًا. لا، ليس ذلك الذي تسمع عنه أو ترى صورًا منه في التليفزيون، لكن كما ينظم هنا ونعيشه عيدًا لثلاثة أيام متتالية. من أسفٍ أن أهم مدرسة متخصصة في الإعداد مغلقة هذه الأيام لأشغال الإصلاح وإلا لقُدتك لترى كيف يتم تدريب الأفراد والفِرق على رقص السامبا، والتباري بينها لاختيار أفضل المشاركين. هؤلاء هم الذين يُسمَح لهم بالمرور في العرض الرسمي مرتدين الأزياء المثيرة، راقصين الساعات على الموسيقى الصاخبة أمام جمهور حجز له من قبل مقعده المدفوع. مررتُ — برفقة تلمى — في إحدى أكبر جادات المدينة بخطى ذهاب وإياب، قالت هذا شارع الكرنفال، وهذه المنصات المُخصَّصة للجلوس، ولا بد لك من حجز لأشهر سابقة إذا أردتَ أن تفوز بالمشاهدة المباشرة لأعظم ما يعبِّر عن تقاليدنا ومزاجنا، أم كنت تحسب أن كل ابن امرأة مؤهل للاستعراض؟ إنها موهبة وثقافة أيها السيد الكاتب. لكنها أضافت بأن مناطق أخرى في الشمال، إلى حيث ستذهب في الشمال، مثلًا، تسير فيها كرنفالات مختلطة، يشترك فيها عامة الشعب بفِرق السامبا المحترفة، وتتضارب فيها الأهازيج من ثقافات متعددة، ويظهر فيها فولكلور عنصر السود على الخصوص، وهو غني وأصيل. جددت قول غابي: تعال في فبراير فهو أجمل الأعياد، ولكي يورطني قال: ما رأيك أن نحجز من الآن، فالعالم كله يأتي إلينا، والأوروبيون الذين يبحثون عن الفرح والمرح اللذين اختفيا من حياتهم؛ إنهم يعودون معنا إلى الطفولة.

بدا لي محقًّا وثاقب النظر في ملاحظته عن غربٍ فَقَدَ روحه وأضاع تلقائية المعاملة الإنسانية، وأصبح الفرد يعيش فيه تحت اختناق العمل وضواغط الكسب والحياة المنهوبة من زمن منفلت. فرغم الفقر، ورغم أن داء البرازيل العضال هو التوزيع غير العادل للثروة، مع وجود مناطق وفئات كبيرة متروكة لحالها في أوضاعٍ معيشية متدنية، في الداخل خاصة؛ بهذا كله لا يتنازل السكان للزمن عن خليقة السكينة والبحث عن اللحظة الفرحة، واصطناع طقسها بأقل وسيلة. ولا شك أن المدخل الأول لهذا هو نبذ الوحدة والميل إلى الاختلاط والحياة الجماعية بما تفرضه من تشاركٍ وتكافلٍ وصبر. كل الناس يمشون هنا جماعات، ينامون ويستيقظون جماعات. الفقراء ينظمون شئون فقرهم وسكنهم، والمشردون يتقاربون في هجوعهم، والطبيعة؛ الشمس، القمر، الأغاني، قصائد ومعزوفات الحب هي للجميع، والحب الذي هو فردي وذاتي يباركه الجميع. وفي السراء والضراء تتنزَّل «الآلهة» لتصد الشر، وتعطي المدد لكل فرد على حدة، وللجميع في نهاية المطاف، في طقوس غريبة وبديعة.

دامت نزهتنا في المركب، وعبر خليج ريو، زهاء ثلاث ساعات عدنا بعدها إلى رصيف المارينا، والركاب — في هذا الزمن الوجيز — تحس كأنهم صاروا أصدقاء، وهم يتوادعون بمشاعر ظاهرة بعد تبادُل العناوين. وحدها القطط الأمريكية انصرفت لا يفارقها مواؤها الرتيب. دعتني عائلة برازيلية للغداء، فشكرت معتذرًا بالشبع، وخاصة بالمباراة الحاسمة لكأس العالم، وتبادلنا العناوين بأمل اتصال أو لقاء. كانوا لطيفين معي، وداعتهم طافحة، وليس عندهم تحسُّس مسبق للأجنبي، بل أنت لا تحس أنك غريب فيهم. أجنبيتك لا تتميز إلا في المحال التجارية التي يرتادها السياح على الخصوص؛ حيث يحدث، كما في كل مكان، تكالب على السائح بالإغراء والإلحاف، لكنه لا يبلغ درجة الابتزاز التي يلقاها السائح في بعض البلدان العربية أو أخرى من العالم الثالث؛ تعود منها بالحسرة والندم. هذا اللطف عند القوم تراه سجية لا خصلة مكتسَبة أو مصطنَعة، ولذلك لن يغضب منك أحد إذا لم تقتنِ بضاعته؛ فالكرامة موقف وشرط كل معاملة، وقد علَّمتني الحياة أن أستشفَّ أخلاق البشر من العلاقات الصغيرة واليومي الغُفل، تُبرِز المتأصل لا الطارئ، أو ما هو مستفز تُمليه ظروف استثنائية، لذا لا أحتكم إلى المتداوَل عن شيوع الجريمة وحوادث الخطف والسلب في ساو باولو، مثلًا، وهي معهودة في عواصم كبرى، وقد كدت أصبح شحاذًا ذات يوم في لندن بعد أن جُرِّدت من كل ما أملك، وصرت بلا هوية، أما في مطار رواسي فإني تحسَّست أعضائي بقيت كاملة، وهويتي مشبعة بمعرفة أعمق وإنسانية أرحب.

في الطريق إلى الفندق، وأنا أمضي في مشي لاهث، واليوم أحد؛ حركة السير أخف، والطرقات حُوِّل معظمها للمشي ورياضات الراجلين، ولا تسمع رنين مزمار سيارة واحد، وقبله لم تلحظ أحدًا بصق في الشارع أو ألقى كومة نفاية؛ في الطريق توقفتُ فجأة كأن أمرًا صدر لي بحزمٍ: قِف! نَفَسي طبيعي، ويدي حملتُها إلى قلبي فوصلني النبض معقولًا، وإلى جبيني لأعرق انفعال، خاطري غير مشوش، بل إني كنت أعود إلى فندقي مغمورًا بحبورٍ أسميه «ضربة الشمس الشعرية» بأثرها لا بد أن تكتب قصيدة أو تبقى عاديًّا مثل سائر الخلق أجمعين.

ماذا حلَّ بي، إذن، فجأة؟ توجهت إلى أقرب مصطبة حجرية، وهي متوفرة في الطريق الساحلي، وأسندت ظهري مادًّا — في الوقت — ساقيَّ ورجليَّ، متنفسًا بأعمق ما يكون، وفاردًا ذراعيَّ على طول المصطبة، ومتصالبًا مرة ثانية مع مسيحهم الذي إنما شُبِّه لهم قتلُه؛ لعلَّ صوتًا في داخلي صاح مثل الفيلسوف اليوناني القديم: وجدتُها! وجدتُها! الحقيقة الجديدة التي ينبغي أن أعتنق من الآن فصاعدًا، وعنوانها بالبنط العريض: عليكَ

أن تهدأ أيها الفتى القديم. انتبهت أني، ومنذ خمسين خلت ونيف من عمري، قضيت ثلثي هذا الزمن وأنا ألهث في الحياة والسعي والعمل وطرقات العمل، وبحث بلا هوادة عن بديل لعيش لآدميتنا مكلل بالكرامة والعدل والجمال. وكلما ظفرت بقليلٍ تتسع موهبتي لشمولٍ بلا حدود، وها أنا ذا، كما قال سَميي وجدي أحمد المتنبي، باقٍ «على قلق كأن الريح تحتي/...» فاهدأ، انظر إلى الخلق هنا، وتعلَّم حكمة المسافر، فإنك عندئذٍ ستدرك اليقين، ولن تضل في أي سفر. وسفر في الحيرة هو تيه وهروب أكثر منه خبرة، وأي عالم هذا الذي لا يهديك إلى مجاهل نفسك إنما تكدُّس حجرٍ بلا روح ولا عبير؛ فاهدأ عساك تصيب من تجوالك حكمة عمرك الأخيرة. في غرفة الفندق، وأنا لا أزال سارحًا مع هذا الخاطر، أشاهد — مثل ثلاثة مليارات نسمة — نهاية كأس الكرة، رأيت فيما يرى الصاحي النجم العالمي زيدان ينطح برأسية أفقية غريمه الإيطالي ماتزيراتي ويرديه أرضًا، فنهضت من فراشي لأخطو كالسائر في نومه، أترك المكان قائلًا: هذا العالم ليس عالمي، قاصدًا البحر الساكن سأغطس عميقًا ... وأستريح.

(VI) التاريخ دائمًا هو التليد

امتحان ممر البامبو

لكي تتجه نحو المدينة تحتاج إلى اجتياز أول «اختبار» في بهاء الطبيعة، كَشَرَك تنصِبه لتمتحن أي دراية لك بها، وهل ستعرف — حقًّا — كيف تصل الليل بالنهار في مدينة، عجبًا، هي ذات طابقين، كيف؟ سترى، وليس من رأى كمن سمع، هكذا تحدثت العرب. إنما خبِّرنا، كيف طُقت وداع Rio أيها الرجل؟ لا، والله، لكني مثل ابن عمي أمس: «وتلفتتْ عيني فمذ خفيت/عني الطلول تلفَّتَ القلب.»

بعد ساعتين من الطيران نزلتُ في مطار Salvador (de bahia) . إنها مدينة وعاصمة إقليم أو دولة الشمال الشرقي؛ فنحن في البرازيل الدولة الفيدرالية، المكوَّنة من ٢٧ ولاية، كل واحدة بحكومتها، ومدينة برازيليا عاصمتها المركزية. ريو سكانها خمسة ملايين ونصف وهنا مليونان، هنا أقل بثلاثة، أي أقل بكثير من جحيم ساو باولو ذات ١٧ مليون نسمة. قادم ومعلومات تخبرني أني سأنزل في أعرق مدينة، أول عاصمة أنشئت، والمدينة الثانية في الإمبراطورية البرتغالية بعد لشبونة، القوة الأم الغازية، وجالبة العرق الأسود من أفريقيا لخدمة زراعة قصب السكر، ومؤسسة الدولة وصاحبة اللغة، وإن كان مكتشف موقعها هو البحار الإيطالي فيسبوكي عام ١٥٠١م، ولتبقى عاصمة ثقافة السود وتقاليدهم العريقة.

تركب السيارة تاركًا المطار خلفك، وتعبر الطريق المؤدي إلى الخط السيار. إنه الممر الذي نبت على جانبيه قصب البامبو الطويل ذو الحجم الأسطواني الضخم، يصعد مستقيمًا فلا يلبث أن يميل كلما علا بأوراق تنمو على طرفيه كالأجنحة، غير أنها، عوض أن تحلق، تتشابك في ميلان القصب شكَّل قوسًا، أقواسًا ممتدة غدت خميلة كثيفة يسبح

تحتها نهر من الظلال اخضرَّت من قوة انعكاس خضرة الأوراق الصقيلة، قد تناثرت عليها حبيبات نور شمس تصارع بعنادٍ لاختراق الكثافة. عدا الأسفلت تظنك في غابة، سيكذبها الانفتاح على الطريق السيار، لكن إلى حين؛ فبعد ربع ساعة ترى السيارة تصعد تدريجيًّا، وقد صارت تغذُّ السير فوق منحنى لسان على جانبيه ارتفعت التلال غطَّتها الغابات الخضراء على الشمال، وتلال أخرى اختنقت ببناء هجين له قصته المفردة، وراءه البحر المديد، المبين. أنتَ المُبتلى بالأخضر في باريس؛ حيث له آيات ودُرر بين الفصول، وتنعى بلدكَ المغرب؛ يأتي المضاربون على أخضره واليابس، تشهق دهشة بالغضا والغضارة، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنك ما رأيت ولا تحسب يوجد هذا الأخضر، بعد رسول الله، إلا في هذا الربع المشعشع بالنضارة. هو اللون المخضرُّ يكاد يسودُّ، وتراه ينجذب إلى قوة خفية في عتمة الدغل المختفية بين المسارب الغابوية، بعيدًا عن أعين الراكبين. فهل أنت ذاهبٌ إلى مدينة أم إلى مشتل آخر في حديقة الله البهية، أوليس اسمها بهية؟! لا يعطيك الآتي من تشكيل الطريق والبناء، هابطًا وصاعدًا، مستويًا ومنحنيًا، وامتداداتُ الماء، وسماءٌ تشعشع بالضياء، وألوان في الأرض ترقص أمواجًا حول خاصرة السماء. لا يعطيك احتقان أحمر الآجُر على خدِّ الجبل الأجرد، يخرج من جوفه العمال الفقراء فرادى تارة، وأخرى بالعدد، أضف إليه قوافلَ العبيد ينفثون الزفرات حنينًا إلى الأبد، طوابير أراها تمشي نهارًا وفي الليل، لا شك تحلم بالجنة السرمد؛ لا يعطيك اغتنام النظر، وتنسُّمَ شذى التاريخ، وما لم يصدأ بعدُ من صقيل القلب، في صدر غانية، ومزاد جارية، وانتظار حبيبة أن تُواتي الريحُ المراكب التائهة، ويفقأ الحبيب آخر عين للقراصنة ليستقر دائمًا في حضنها، ويذوق طويلًا كما يشتهيان من أطاييبها، أوليست هي البهية؟! لا يعطيك كل ما تحدس، وما لن يمنحه لك مدخل الأخضر هذا غير حق العجب.

لكن سالفادور تقدِّم إليك — ببداهة — حقيقةَ الزمن، وهيبة التاريخ، وفوقهما رهبة الأزل. فأنت فيها تحلُّ بمدينتين في التكوين الجغرافي: العالية والسفلى، القديمة والحديثة، بتسمية اليوم. الأولى نشأت منذ خمسة قرون، وبها ارتبط اكتشاف هذه الأرض حين رست بواخر البرتغالي «بيدرو ألفاريس كابرال» للمرة الأولى في ساحل باهيا، وبعد عام سينتبه الأوروبيون أنهم وضعوا اليد بفضل إرسالية «أمريكو فِسبوتشي» على القارة الرابعة. في ١٥٤٨م سيتم تأسيس سالفادور على يد أول حاكم عام «تومي دي سوزا» لتبقى عاصمة إلى حدود ١٧٦٣م. على مدى هذين القرنين وصعدًا سينشأ التاريخ السياسي والعمراني والثقافي، والديني الروحي والاقتصادي، ويتراكم طبقة، طبقة. ما ترك حصيلة مائتي

كنيسة، وما يزيد على ألفي مقرٍّ عبادة خاصة بالبرازيليين ذوي الأصل الأفريقي، الذين كانوا ممنوعين من ولوج الكنائس، وهكذا بوفرة دور العبادة هذه، وباذخ بنائها المعماري مع الفخامة الباروكية وثراء ما تحويه من نفائس وذخائر وأيقونات ذهب، في منطقة تعجُّ بالفقر والعَوز، استحقت اسم العاصمة الروحية للبلاد.

اخترتُ أن أنزل في مقام العلو، لأن الأسفل هو الغالب على البسيطة والخليقة، والسفر من معانيه عندي انتقال بالمرء إلى أعلى، كلما تعرَّف على جديدٍ ارتقى وسما، فكرًا ووجدانًا وخلقًا، أو لا يكون. قصدت المدينة التاريخية بعنوان، حيث أخذتُ غرفة في بيت عتيق رمَّمه مالكه وحوَّله إلى نُزُل، تبيَّنت أنه وضعُ عشرات البيوت القديمة، وحتى الأدنى منها الآيلة إلى السقوط، تُرمَّم وتُحوَّل — بذكاء وترتيب — إلى فنادق تُسمَّى Pousada، يقبل عليها السياح بكثرة لإيجارها المناسب قياسًا بالفنادق الكبرى، وباعتبارها تقوم عند منافذ المدينة التاريخية، العليا. والحقيقة أنك فيها، كما تهيَّأ لي، تنزل في متحف صغير، لحرص أصحابها على تأثيث المكان وتزيين الفضاء بكل ما دلَّ وعبَّر عن ملمح عرقٍ، وميسم تاريخ وأسلوب فن وحياة. هكذا تحس — وأنت في الداخل — بأن الزمن يجاورك برفقٍ، حتى إذا وضعتَ قدمك في الخارج، وقد تجاوزت وعثاء السفر، كما يقال، هجم عليك التاريخ من كل ناحية، صرتَ في جوف العتاقة ومهد السلف، ربما تسابق في خيالك، بعد ذاكرتك، الرواد البناة من شادوا هذه الصروح، صالوا في الوعر وجالوا، جلبوا العبيد بعضلاتهم، بنوا الكنائس وحرموهم من إلههم، وقصب السكر مع القهوة، والذهب الغالي استخلصوه بزنودهم، على ألا يذوقوا إلا سياط العقاب، ولهم فن «الكابوويرا»، رقصة رياضية كانت حربية وصارت بهلوانية، يعلو بها الجسد ويتمطط أقصى ما يمكن فوق قيد العبد وشرط عبادة السادة. أيها السادة: أين أنتم اليوم لترَوا أن تاريخكم لم يبقَ منه إلا هذه العتاقة على جدران الكنائس، وشقوق السقوف، وترهُّل الأعمدة، والخرقة السوداء الخلقة لراهبٍ يستجدي بعض الزوار لما يصلح به — عبثًا — ما أفسده الدهر الغشوم.

لكني عقلت بعيري، قلت لأرى أولًا، كعهدي بي، قبل أن أغتبط أو أتطير، ينبغي أن أحارب فيَّ عادة استباق النظر والانطباع، رغم أن هذا الأخير ليس حكمًا فهو جائر ومتسلط، إن لم يجد ما يمهد له. ألم أقل إن وجود الشيء قرين بتحصيله في دائرة المنظور، أولًا، قبل المحسوس، يكون مرتبطًا به، مغذيًا لحصوله، والانطباع هو آخر مرحلة، بمثابة الشعور أو ما يتخلَّف في النفس منه. هل يمكن أن نتحكم في هذا حقًّا؟ أم أننا، ونحن أمام فعل الكتابة، نخضع لأسبقيات تفلت منا كل رقابة عليها. ففي مثل هذه الكتابة

يركض التذكُّر ليحاول مغالبة النسيان، وتتنازع الأشياء جاذبية الهوى، أي الإحساس يولِّ الانطباع فورًا، وقوة الإدراك نتيجة الوعي هي تركيب للآني والبعدي. لذا فإن ثمة مآزق بلا حصر في كتابة الرحلة، ليس أقلها أنها تأتي بعد حين، فلا تدوِّن — بالضرورة — ما عشتَه في المكان والزمان، وإنما بقايا وأصداء منه. ولأنك أنت، أيضًا، تكون قد صرتَ آخر بفعل عوامل شتى تلحق — بكل تأكيد — تأثيرات على الشعور والوعي، ويتداخل فيها الماضي بالحاضر، والخيال بالحقيقة؛ إذ لا توجد أو تبقى إلا حقائق محدودة من ذكرياتنا، ذكرياتنا ذاتها نعيد تركيبها وتطريزها بخيط الخيال، ومن ثَمَّ فإن كل رحلة، كل كتابة سفر هي سرد محتمل، راويه أو ساردُه ليس ثقة بالضرورة، ونحن، المتلقين عامة، قراءة أو سماعًا، نمحضه ثقتنا، بل ونزيد كلما شطَّ به الخيال لأن ذلك يعجبنا، لأنه ينقل المشاهدات والمرويَّ من صعيد الواقع المبتذل، الذي نعيش فيه، ونود الإفلات منه، ولو في زمن الرواية، نحو المدهش أو الاستثنائي. لكني — شخصيًّا — لا أحبذ هذا الصنيع، وإذا كنت أنهجه في خط السرد القصصي التخييلي، فإني أرى أن متعة كتابة الرحلة وضرورتها تكمنان في العثور بالضبط على المألوف الذي يصبح بليغًا، بحسب زاوية النظر الخصوصية التي نراه ونقدمه منها، وهذا أهم من الوثيقة للتحقق من فعل. كتابة الرحلة هي تذكُّر بليغ للواقع، وسرد للمشاهد بعين مكحولة بالمجاز، ولذلك نحب السندباد، بريًّا وبحريًّا، ولذلك لا بد أن نحذر سجل الرحلة فلا نعتمدها — بإطلاق — تاريخًا؛ ولذلك — دائمًا — إن خلت من التأويل واكتفت بالوصف والتفصيل؛ جاءت باردة وكتابة محنطة، لا نريدها ترقى الكذب الفني لسرد التخييل، ولكن، في الوقت نفسه، نعتبر التذويت أحد أعمدتها الأساس.

ما علينا، ولأعر نظري الآن قليلًا إلى البحر خلفي، تركت غرفتي وتوجهت إلى السطيحة الورائية للبوسادا، حيث وجدت زوجًا ألمانيًّا وفرنسيين أعجفين، وهم يلتقطون الصور لبعضهم طلبًا للأبدية، على خلفية البحر البعيدة، البحر الشاسع، انسدلت عليه أشعة الشمس ففضَّضته، أولًا، ثم تململت بين ثناياه، أراه مختلفًا عن بحر ريو الذي يتلاعب بالأخضر والأزرق والرمادي بين الصباح والظهيرة والعشي، وفي الليل يغشى المحيط العائد بدوره من مدِّ الفاني إلى جزْر الأزل. ظهر لي البحر من السطيحة ممتدًّا خلف الميناء؛ حيث الأرصفة والرافعات والحاويات تمتلئ بما جلبته البواخر، وأخرى أبعد لم ترس تنتظر لتفرغ حمولتها، مثل كل البشر الآتين إلى عالمنا، المحكومين — تباعًا — بإفراغ حمولة عمرهم والزوال. نُزلي — قياسًا بما أرى — عالٍ حقًّا، ومعناه أنني أقف فوق سقف

مدينة، السفلى يا سادة. سكناي في La cidade alta الواقعة أعلى La cidade baixa، وأنت لن تعرف مقدار العلو ولا غرابته إلا إذا علمت أن أقوامًا طردوا البحر، ومنه انتزعوا القطع السفلية المبنية التي موجُها اصطخب عبر قرون، مصطدمًا بالمرتفعات الهائلة التي تقوم عليها هذه الحاضرة المغموسة في القِدم. هؤلاء شيدوا الجنائن المعلقة الوحيدة في الإمبراطورية البرتغالية فوق صخر أصم، وحين أطلُّوا منها ظهر لهم فراغ مهول، قالوا ننتصر عليه فنبني فوقه، فجاءت المدينة السفلى، وعادوا قالوا نحن الأُلى نبقى نحكمها، نفرض فيها سلطتنا نهارًا، وليلًا نعود نصعد إلى العُلا يليق بنا، والدهماء نبقيها أسفل سافلين لتعمل في الأسواق والميناء، وكذلك كان. من هنا أنشَئوا مصعدًا بدأ العمل به سنة ١٩٣٠م يشتغل بلا توقف، ينقل يوميًّا ٢٨ ألف راكب بسعر زهيد، يعاضده نقل آخر بالرافعات الكهربائية، لكن المصعد وحده يمثِّل معْلمًا نادرًا، سواء في طوله، أو الطابور لولوجه ممتدًّا مئات الأمتار. رأيت الباهيين واقفين يأخذون دَوْرهم، إما للصعود أو للنزول، دون ضجر أو تأفف ظاهر، أخذتُ معهم دوري وأنا أسمعهم يتناغون ويتحاكون، وبعد ساعة انسحبت متعجبًا، أغبطهم على صبرهم، قائلًا: إن لله في خلقه شئونًا.

(VII) مدينة الكنائس المعلقة

حين يصبح الزمن رثًّا

من البوسادا التي نزلتُ فيها أستطيع أن أصعد إلى المدينة العتيقة أو التاريخية من زقاق، على جانبيه تقابلت مبانٍ قديمة، وخربة، ومرمَّمة، كلها حفر الزمن فيها أخاديد عميقة. صُنِعت الأرض من أحجارٍ مربعة صلبة؛ لذا تحتاج إلى حذاء متين. والسيارات في مثل الأزقة المشابهة لها كلها تترجرج، ونوابضها تهتز تحتك وأنت مخضوض فوقها. زقاقي يمتد إلى منعطف عبارة عن نافورة نضب ماؤها، تفضي شمالًا إلى زقاق آخر هو الذي أنهج لأصل إلى المركز. سيصبح الصعود وعرًا وحجر الطريق ناتئًا، وعلامات التاريخ تتحدد أكثر فأكثر. البيوت إما بطابق أو طابقين ذات شرفات، أو نوافذ مستطيلة، وبأبواب تُرى مفتوحة خلفها إما ممرٌّ تجلس فيه امرأة تصفِّف شعر ابنتها، أو رجل لا يفعل شيئًا، وربما ينهمك في ضبط وتر قيثارة، أو لعله استيقظ توًّا من نوم ثقيل. على القرب حانة شعبية من النوع المسمَّى Batecos بداخلها مالك خامل، ومستهلك يشرب جعة «براهما» المحلية، وأمامه وقتٌ بزمن الأبدية. قد تصلك موسيقى من شجو السامبا، أو لا أحد غير عتمة مجوفة بالصمت في انتظار زبائن يفضِّلون الليل للعيش، أما النهار عندهم فلحياة التنابل.

على الجانبين دائمًا، إما حوانيت أو محترفات للرسم، هي قاعات لبيع مشغول الصناعة التقليدية من أيقونات ودمى خشبية وقمصان منسوجة على الطرز المحلي، بيضاء وخفيفة. جميع الثياب ستلحظ خفيفة الملبس، فطقس البلاد لا يتحمل السميك ولا الكنزات والمعاطف. سلفادور باهيا تعيش بدورها فصل الشتاء واللباس قميص نصف كمٍّ والبنطلون، أيضًا، إلا ما يضطر إليه الموظفون. في الليلة الأولى لوصولي ضقت ذرعًا بالحر

إلى أن هطل مطر استوائي أغاث الروح وغسل الأزقة وسقى الطير والقطط، مع الكلاب الضالة الكثيرة التي تبحث عن شيء تأكله. في النهار الحركة خفيفة في المدينة القديمة، تعجُّ أساسًا بسكانها العاديين، وكلما حلَّ العشي ستنبعث النسمات التي تأذن بحياة الليل، ما أجمله. لكن للسياح تنقلهم الخصوصي نهارًا في أرجاء منطقة Pelourinho تضم سبعمائة مبنى شُيِّدت من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، تعتبرها اليونيسكو بمثابة أهم تجمُّع معماري في العالم احتفل بالطراز الباروكي في البلاد الأمريكية. وهي، بعد خضوعها لأعمال تجديد وترميم هامة، تضم تسع كنائس، واثني عشر متحفًا، وثلاث ساحات تتحوَّل إلى حلبات مهرجانية فنية. بل إنها تحمل اسم مدينة الكنائس والقديسين Bahia de Todos Santos. سمعتُ الدليل يقول لجمع سياح إن عددها يزيد على مائتين، متباينة المذاهب وأعراق الارتياد. وإنك لتستغرب لمظهر هذه الكنائس من الخارج حال طلائها، وتقشرت جدرانها، واسودَّت أعاليها، كما هي أغلب البنايات في المنطقة، فترى المقربصات والشرفات البرَّانية مدبوغة اخضرَّت صدأ بسبب ما تحدثه رطوبة الطقس الاستوائي. والحق، أيضًا، أن ليس لمداخلها زينة ولا للأبواب خشب باهر، لكن الداخل ثمين، ثمين جدًّا، سواء الأسقف والأعمدة والتزاويق الضخمة الباروكية بامتياز، أو كميات الذهب التي استعملت للنقش والصبغ وتذهيب الأيقونات. وفي كنيسة سان فرانسوا دي فرانسيسكان، العائدة إلى القرن الثامن عشر، يشغل ٨٠٠ كلغ من ورق الذهب ديكورها الداخلي، وترى الزليج الأزرق والأبيض هو الغالب عليها، بينما قسم كبير من أفراد الشعب، وأبناء باهيا فقراء، وهذا الحال السائد، لا أحد يستهجن هذا التناقض، خاصة في التفاوت الكبير بين دور العبادة. إن ثمة كنائس للأغنياء وغيرها للفقراء، وهذه على حال من التفسُّخ مؤسفة، ذكَّرتني لما رأيتها بالمسجد الأموي في دمشق، عجبت كيف لا يهبُّ مال العرب لتجديد غرَّته، وهو من أعظم التراث العربي الإسلامي. كنائس الفقراء مغلقة أكثر الوقت، وقساوستها كالشحاذين، عليهم سربال دين كالأسمال. الفقراء عمومًا هم السود، أبناؤهم يلعبون الكرة أو أي أَلْهِيَة على عتباتها، ولا ترى أطفالًا بيضًا تائهين، وإنما مدللين في المتاجر والمشارب والمطاعم.

لك أن تقول إن المدينة التاريخية أو العتيقة في النهار هي للدين أو التديُّن، وما تعرضه المتاجر أكثره من صنفه، والناس كذلك. وهو ليس دين التعبد ومذاهب الكنيسة وحدها، بل تُنافسها — إن لم تهيمن هنا — قوة الأرواح السحرية والمعتقدات الغيبية البدائية والوثنية؛ أوليس هذا حال بلدان كالمغرب، تطغى فيها الأضرحة، ويُتوسَّل فيها لقضاء الحاجات بتعاويذ وطقوسٍ الدينُ منها براء؟ هكذا ترى قرب الكنائس، وفي جوانب

الساحات النساء والأطفال عارضات، بل ملحَّات لتشتري، سبحات وعقيقًا وماسورة خيوط تلفُّ بالمعاصم جلبًا للفأل الحسن، وإنها لتجارة رائجة لا بد أن تحاصرك حد التأفف. ولقد عدت من رحلتي بكوم خيوط اقتنيتها من عدة مدن، وباهيا خاصة، اضطررت لذلك اضطرارًا. وعندي، رغم تأففي، أن كسب القوت بالتعلل خير ألف مرة من ذل السؤال وتجمهرات الشحاذين، وهو ما أعجبني عند أطفال ونساء في أرجاء جامع الأزهر وأسواق خان الخليلي، حيث يتكاثر السياح الوافدون على القاهرة، دعك من أنها بركة قد تجنِّبك خفة أصابع النشالين وتنجيك من القوم الظالمين، ما أكثرهم، ذات الشمال وذات اليمين!

وسوف يرسخ يقيني في الأيام الموالية، وعندما أزور بحيرة الآلهة أن التدين والطقوس الدينية هي الناموس الثالث في البرازيل عمومًا، والشمال الشرقي، المركز الحيوي للسود، خصوصًا بعد لعبة كرة القدم والتشبع بالموسيقى. ففي هذه البحيرة الفريدة يجد الرائي «الآلهة» أو القوى المفترضة، الموكولة بكل داء أو حاجة، أو هاجس، أقيمت في شكل تماثيل من البرونز، بين نساء ورجال، بالأزياء الوطنية القديمة أو المفترضة، تحيط بوجوهها هالات غموض، وإذا ظهرتْ لك فولكلورًا فاعلم أن الخلق هنا يعتقدون بها على الغيب. وعلى العموم لا ينبغي التحرش بمعتقدات الناس، والعابر، خاصة ممن لا يلم إلا بأطراف الأمور والمعتقدات، بعد هذا وذاك، جزء من ثقافة السكان، ولا بد أن نؤمن بأن الثقافات، شأن العقائد، متعددة، لها قيمتها فيها، وتستدعي منا الاحترام بلا شروط، ومن الأفضل تجنُّب لصق الصفات وإطلاق الأحكام عليها؛ فلا ثقافة عليا وأخرى دنيا إلا عند غلاة الاستعمار والفكر العنصري. وقد كان تدشين آخر متحف في باريس خاصًّا — في الدرجة الأولى — بالفن الأفريقي، مناسبة سعيدة لتأكيد هذه الفكرة؛ حيث حمل بتوجيه الرئيس جاك شيراك، رائد المشروع، اسم متحف «كي برانلي» على عنوان موقعه عوض متحف الفنون البدائية، وهي كما نلحظ تسمية تتضمن حكم قيمة سلفًا. أعود، إذن، لأقول بأن استقرار النواميس الثلاثة المذكورة تلك لا يلغي أو يجعلنا نستثني، طبعًا، فنونًا ورياضات شعبية مقترنة بتاريخ السود أساسًا، وتعد قيمة مضافة للمخيال البرازيلي الغني، أشهرها La Capoeira مزيج رقص ونزال لن يفوت المتريث أن يرى الشباب في الساحات وعند مداخل الأسواق يمارسونها تلهِّيًا أو تكسُّبًا، حسب الحال. وهي تحتاج إلى مرونة وترويض شديدين للجسم لما تتطلبه من قفزٍ متكررٍ في المرة الواحدة وسقوط قوي على الأرض، عدا مهارة الرقص الذي هو لُبُّها. هي النشاط الرياضي الفني للسود، أو بالأحرى كان لهم وحدهم في الماضي، اضطروا إلى التحايل به على أسيادهم الذين منعوهم

من الفنون الحربية ورياضاتها الحقيقية بأنواع، وهذا تاريخ صراع امتد إلى أن غدا من الفنون الشعبية، له مدارسه ومعلِّموه بقوانين محسوبة شرحها يطول.

قلت إني غادرت زقاقي المحجر، صاعدًا إلى أعالي المدينة التاريخية وكنائسها، ومتاحفها، وأسواقها، ولأعترف بأني لست من هواة المتاحف، أو أزورها إذا لم يكن من الأمر بد، والسبب في رأيي — الذي قد لا يهم القارئ — أنها تقوم على مبدأ تقديم المنتقى وليس النفيس، النادر ضرورة، هذا الذي أعجب آخر بناء على ذوق وتصور مسبقين، فيما الشارع يبقَى المجال المفتوح يمنحك — قد يمنحك — من الصور والأخبار ما لم تزود. ما بالك يا سيدي حين تكون في مدينة، هي كلها فضاء التاريخ، يغمرك من حيث أتيتها، وهذا حال المدينة التاريخية، العليا، التي تعطي للثقافة والفن أبهى مقام. معارض لأبدع التجارب، قديمها وحديثها، ضاجة، متصالحة، متخاصمة مع المدارس والخطوط والألوان، اقتنيتَ أو شفت فأهلًا بك؛ تأمل أو ألعق الصور سريعًا، ذاك شأنك.

إنما، وقد وصلت إلى منتصف الطريق إلى ساحة الكنائس، في المرتفع المتوسط فإنك تحتاج لالتقاط أنفاسك قبل أن تواصل. تواجهك بناية من الطراز الكولونيالي، طلاؤها ناصع البياض، وخُطَّ عليها فوق لوحة مستطيلة حروف سوداء بارزة: Fondacaus jorge Amado هذه مؤسسة جورجي أمادو (١٩١٢–٢٠٠١م)، مولى الرواية البرازيلية، وسيد الكُتَّاب الرواد الذي يقترن اسمه بتاريخ وخيال وعذاب وتعاسة وحب هذا البلد. كما تعرف فرنسا بلزاك، وإنكلترا شكسبير، واليابان كواباطا، وكولومبيا ماركيز، ونحن العرب «ألف ليلة وليلة» ونجيب محفوظ، يمجِّد البرازيليون، ومعهم الأمريكيون اللاتينيون كلهم، جورجي أمادو الروائي الفخم بأعماله المشتهر منها تحديدًا: «باهيا كل القديسين» (١٩٣٥م) و«البحر الميت» (١٩٣٦م) و«غابرييلا وكبش القرنفل» (١٩٥٨م)، وجُلها تعالج أوضاع البؤس في منطقة شمال شرقي البلاد حيث وُلِد. تحتوي المؤسسة، ذات البناء العتيد، على ببليوغرافيا شاملة لأعماله، مع الأغلفة التي تمثِّلها في سائر طبعاتها، وبعشرات اللغات المترجَمة إليها، إضافة إلى شريط حافل بالصور تُظهِره في مراحل عمره المختلفة، والمناسبات السياسية والاجتماعية والأدبية التي جمعته مع شخصيات وأعلام كبار من العالم أجمع. ويمكن للزائر — مقابل تناول مشروب فقط — مشاهدة واحد من الأفلام المقتبَسة عن رواياته تُعرَض في قاعة صغيرة مفتوحة على المعرض العام. مؤسسة أمادو تعكس صورة مصغرة ومتميزة للبرازيل على امتداد نصف قرن مطبوع بأحداث العسف ومظاهر البؤس وحلقات النضال من أجل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

قضيت ساعة في المكان، أتتني — مرات — لحظات انخطاف تخيَّلتني مع كل صورة للروائي العظيم في بيت لمبدع عربي جُمِعت أعماله، وخُصِّص له فضاء لذكرياته وصوره، وغدا بإمكان عامة الناس زيارة ماضيه وهم يحسُّون أنه جزء من تاريخهم الثقافي وعزَّتهم الوطنية. ولقد زرت بلاد العرب كلها، وعواصمها الثقافية البارزة، فما وجدت أي حكومة أو جمعية خصصتْ بناء مستقلًّا لأحد رموزها الفكرية، أو سمَّت به إحدى جامعاتها، كما هو الشأن في بلدان أمريكا اللاتينية وبلدان غربية عديدة؛ يُعتبَر الأدباء والمفكرون فيها ذخيرة وتراثًا، ورأسمالًا قوميًّا، فأي درس مفيد آخر تقدمه لنا البرازيل في صون ذاكرتها للأجيال القادمة، كما تشهد بذلك أعمال الترميم والصيانة المشتغلة بدأب في كل أرجاء المدينة التاريخية، وبتكافل بين الدولة والمنظمات الدولية، والخواص المحسنين، حريصين على وجه بلادهم، يخصصون جزءًا من أرباحهم لهذا الغرض، وبدون ذلك، فإن المعالِم المتبقية من تراثهم سوف تتعرض للانقراض، وأظن البرازيلي من أحرص من عرفتُ في الشعوب على الفخر بوطنه وتاريخه، ولكن ...

(VIII) المحطة الأولى إلى الأزل!

«يا زمان الوصل في الأندلس»

ليل المدينة التاريخية مختلف، يخرج ما ظل مختبئًا في جوف النهار من أسرار، ويعرضها على عتبات البيوت أو في الشرفات فصيحة، متبرجة بلا غضاضة. الحر يطرد الأمهات والأبناء ليصبح الزقاق العاري بيتهم الثاني، وكل فسحة في الطريق العام مَشاع، أما الآباء فإما بين «زقٍّ وقينة» أو في سعي متواصل. الليل صنو السكينة، وهنا أضف إليها الانشراح وبعض الأطايب من مأكل ومشرب، وغناء ورقص مما يُبذل للسياح بأسعار لا تُقلِق جيب الأمريكي أو البريطاني. ليل شبيه بتلك الأمسيات التي قد تكون عرفتها في غرناطة، مثلًا، عدا أنك هنا لا تتعرض للنصب، وتحس بأن التاريخ والجو الذي تعيش فيه توءم، لتبقى البساطة غالبة. ثم إنك إن توجَّست كل الوقت مما حولك، وهذا سلوك الأجانب، فإنك ستفقد متعة الاكتشاف ونزوة المغامرة؛ أنت — عندئذٍ — تصبح مثل قطيع السياح الذين يتم برمجة حركاتهم وسكناتهم سلفًا، بما فيه وجباتهم لما بعد أسبوع على بعد خمسة آلاف كلم، وعند انتهاء الوجبة يحملون بقية قنينة الماء المدفوعة بزعم تجنُّب ماء الحنفية الملوث في العالم الثالث، وهم إنما يقتَّرون، أووف!

أوه، لا مغامرة هنا إلا الدَّعة في الباحات الصغيرة نُثِرت عليها طاولات على قدر الوافدين، وفوقك السماء ترسل الموسيقى تقطر في أوتار العازف ينقر لحنًا أسيانًا، ستكتشف عند الدفع أن وصلته مشمولة في الحساب، وهو تقليد متَّبَع. في حارات أخرى تستطيع الاستماع إلى موسيقى مجانية صاخبة، هي ضرب صنوج بأداء فولكلوري للشمال الشرقي بأزياء الماضي، تهديها وزارة السياحة للعموم، وتسهم بها في إنعاش أطراف الليل. هذا الليل حلو هنا، مديد، يغويك أو يجبرك الطقس على أن تسهره مثل

سائر الخلق الذين لن تعرف متى، ولا كم ساعة نوم ذاقوا، لأنهم أنفسهم المشاءون مع الخيوط الأولى للصبح، والذاهبون إلى تحصيل القوت. جربتُ أن أنام في البوسادا، لكن الجيران أرادوا لي السهر عنوة، فَقُربنا حانات شعبية ترسل ألوانًا من السامبا، وروادها يخوضون في لغط لا ينتهي، تحسبه جدل نقابيين أو برلمانيين. ولما أطللت من النافذة أنوي تهدئة فورتهم رأيتهم مقتعدين الأرض نصف عراة وأقداحهم ملأى، ورفعوا لي نخْبًا فلم أملك إلا العودة، وفي الصباح لما اشتكيت لمسيِّر الفندق من الضجيج لم يحر جوابًا، وهذا ببساطة لأن الحياة في الليل هكذا، أما النوم فغفلة يسرقها الزمن منك، أو تسرقها منه، ربما!

لكن للمسألة وجهًا آخر عند الشعب البرازيلي؛ فهو مكلام، في كل الأوقات، وترى عدد العاملين المتكاثر في المكان الواحد فوق الحاجة، وهي ظاهرة مثيرة، ينشغلون بالثرثرة أحيانًا قبل تلبية طلب الزبون، بلا حرجٍ، ولا هرج، أيضًا. على أن الكلام وديع، ورغم ضخامة المدن؛ الصخبُ قليلٌ إلا ما يفرضه ازدحام السير؛ فلا ترى حادث سيارة أبدًا، وهذا عجيب، وأنا لا أملك إلا أن أقارنه بالمدن المغربية انقلبت معاملَ للضجيج، وشوارعُها قبل طرقاتها الخارجية حلبات للسباق وقتل الواقف والجالس. وإذا استثنيتُ أصوات جيراني المستأنسين بالليل؛ فالكلام رقيق، واللغة البرتغالية التي زادي منها قشور، وكلمات — إذا كانت أو نبرتْ — فجة، خشنة بعض الشيء في بلدها الأصلي، حيث تسود تلك الكآبة الخصوصية الرومانسية، المسماة «سوداد»، فاعلم أنها هنا رفيقة يموْسقها اللسان والجسد معًا، وهو مطواع.

وكثيرًا ما يخفي الليل تجاعيد الزمن، هي الأشد انغراسًا في المدينة التاريخية حتى لتؤذي العين وتجرح الفؤاد. في النهار، وأنت تمتلئ بالتلادة وما شاده الأجداد في قارة الخمسة قرون لا تمتلك، رغم ذلك، إلا الإحساس بأسفٍ على زمن يفتت كل شيء؛ فالكنائس والبنايات العالية، ذات الرءوس والأقواس أصيبت في مقتل جراء اهترائها. أجل، حيطان مهترئة وأسقف مبقورة. مدينة رثَّة تتجمَّع في عينيك قذًى، من كثرة ما تداولتها أنواء الطبيعة، وأهملتها يد الإنسان لم تعُد تقوى على علاج، ما دام الزمن، في النهاية، أقوى من كل أحد وشيء. تقف قبالتها، وأنت فيها، وتنظر إلى البناء صامدًا، رغم عوادي الدهر، لكنه يتآكل في كل لحظة، تراه ذاهبًا إلى البدد. يقينًا لن يبقى هنا إلا المعالِم المصنَّفة؛ أقدم كلية طب حيث المتحف الأفريقي البرازيلي والمتحف الأثري والعرقي، تبقى كنيسة الفرانسيسكان ومثيلاتها، إلى حين طبعًا، فيما ستنهار كنائس وبيوت الفقراء، السود

العبيد، سابقًا، وسوف يضطرون إلى هجر منازل ما تنفك تتصدع. وقبالة نُزلي بيتٌ كنت أرى غرفة نومه، نوافذها مهشمة وأعمدتها تداعت، يعيش داخلها عجوز يأكل بقية قوت وينتظر الموت، أي يشبه تمامًا المكان الذي هو فيه، قل هذه العالية كلها والأيام تفعل بها الفعائل. لأمر ما تذكرت فاس حيث قضيتُ شطرًا من عمري، ما أجمله وأتعسه في آنٍ. مدينة المولى إدريس الثاني، وحاضرة أسر حاكمة عديدة ذات محتد عريق، وحيث جامع/جامعة القرويين أُعطية فاطمة الفهرية، وبيوت الله والعلم والتقى والورع، ومرتع حسن وجمال يخلب الألباب. الأندلس الصغرى، يا إلهي كيف تطيق اليوم أن تنظر إليها من علو أسوار المرينيين، أو تنزل إلى منحدراتها وحاراتها السفلى، البيوت داخلها جنان، والحريم حور العين، يشربن ويستحممن بماء أصفى من بدر وضَّاء، كيف وغَدها على وشك التفتُّت، بعد أن آلت أحوالها إلى بوار، وبناؤها الذي اقتضاه زمن سيذهب به لا محالة زمنٌ آخر، فأي قدر مأساوي هذا!

في اليوم الثالث من إقامتي في سلفادور باهيا، وكنت قلت بيني، وأنا على سفر، إني سأغادرها بلا أسف، ولن أعود إليها مطلقًا؛ لكن صدفة صنعتها السماء غيَّرت هذا القرار حينًا. فإني وأنا قاصد نُزلي، أتعثَّر في الزقاق ذي الحجر المدبَّب، فإذا بي — وجهًا لوجه — مع صديق أديب قديم، تعود معرفتي به إلى مطلع سبعينيات القرن الفائت أيام أقمت ودرَّست فترة في الجزائر، وكان هو لاجئًا سياسيًّا فيها. أخبرني أنه اليوم وزير في حكومة بلاده الأفريقية الديمقراطية كذا، وحضر إلى سالفادور للمشاركة في المؤتمر العالمي للدياسبورا أو الجاليات الأفريقية. وبلا مقدمات طلب مني أن أنضم إلى وفده، وبعد تدشين دار لدولة بنين تخفَّف من رسمياته، وأصر على أن أرافقه إلى سهرة قال حميمية، وإذا يا سادة أنا جالس مع صفوة أفريقية، وفي قلبها المغني الأمريكي الشهير المعتز بأصوله الأفريقية Stevie Wonder من شخصيات المؤتمر، عزف فأبكى وأبهج؛ رحت — إثرها — أعيد النظر في قراري ومزاجي، ويكفي أن تكون هذه الأرض ملتقى للسود الذين ظُلِموا عبر التاريخ وسِيمُوا كل عذاب، ليصبح للحاضر طعم الحرية، والماضي يستعيد كل بذاخته.

قبل أن أغادر إلى صقع آخر في مسار رحلتي حدث لي شيء لم يكن في الحسبان، هو مزيج من واقع وخيال، والتائهون مثلي، الهائمون على وجوههم ومشاعرهم، كثيرًا ما يتفق لهم ما يُعدُّ في عُرف الناس خروجًا عن العقل أو الموضوع وما شاكل، لكني لم آبه يومًا لمثل هذه التعليقات والتصنيفات، وبات عندي «الانزياح» عن المألوف — طبْعًا وسلوكًا —

هو المألوف عينه. ما علينا، فقد عدتُ أصعد إلى المجمع التاريخي، وبينا أنا أمشي صاعدًا في حر الظهيرة، وجسمي يرشح بالعرق، شعرتُ به طَفَقَ يخفُّ رغم تصلب عضلات ساقي وانحناء ظهري لمجاهدة وعورة الصعود. حين وصلت إلى ساحة Pelourinho أو «خوسي دي ألنسار» كما تُسمَّى رسميًّا، تحدُّها شمالًا دار الروائي المجيد جورجي أمادو في مهابة لا نظير لها، المخاصرة بزقاقين مشغولين بقاعات للرسامين، هواة ومحترقين؛ أظن أني، وأنا أنظر — عندئذٍ — إلى الطابق الثالث لمبنى المؤسسة، تقدَّم للسلام عليَّ صاحب الدار مرحِّبًا، محفوفًا بأبطاله وشخصياته الشهيرة أنطونيو بلدينو، والعريف مارتان. ومن حُفَرٍ، تتفتح في الأرض كالبراعم، يخرج كينساس بيرو داغا، جوبيابا، جزوينو غالا دوادو، وفي الجو نفحة من العطر الفاغم لتيريزا باتيستا. أحسستني في خفة ريشة، وسأطير إلى علو الطابق، بل حلقتُ نحوه، وعلوت أجتاز الدور الأخرى، ومعي يحلق فقراؤه الذين سكنوا سروده حتى العظم، و«الكابويرا» يقفزون بحركاتهم البهلوانية الحربية متابعين عزف المعلمين، ورجال باهيا أقبلوا يلوحون بلحومهم السمراء والشوكولاتية، أما النساء فقد ائتزرن بأثواب بيضاء فضفاضة تتهادى داخلها أجسادهن ذوات الهضاب والوهاد، على الرءوس شكَّلن مناديل، كالأحراش كثافة والكرنفال لونًا، فيما الصدور المتلئة تتململ كثبانًا يلمع فيها عرقٌ خفيف ووشي زينة كقافلة تتموَّج في لألاء السراب، حسبتُه — أنا الظمآن — ماءً، لولا أني رحت — شيئًا فشيئًا — أفيق، أستعيد رشدي، وأنا مصدق رؤيتي وإحساسي.

بدأ الكابوييرا يلعبون في الساحة الكبرى الخلفية قبالة طابور طويل لمواطنين ينتظرون دورهم لفحص مجاني للعيون، ومثلُه سبق أن شاهدت متطوعين لفحص مجاني لضغط الدم، وكان عندي، لا يزال أظن، ارتفاع في ضغط الوهم. حركاتهم تستوجب قفزًا متكررًا، تستلزم الارتفاع، وصاحبها لا يمس الأرض إلا بكفَّيه وباطن قدميه، ولا قيمة لفنِّه واقفًا، فهو فن العلو والإيقاع المتسارع دائمًا، لذلك يحدث فيه التناوب بين اللاعبين هذا يخلف ذاك وهكذا دواليك. عندنا في المغرب قفز من يسمون أولاد سيدي أحمد وموسى، هو في طريقه إلى الانقراض، يتكسَّب به أولاده في الأسواق وبعض المناسبات، فطري وساذج، ويقال إنه يوهب من وليِّهم. فيما الصينيون أمهر الشعوب طرًّا على ما أتيح لي عيانًا عندهم في هذا المضمار. إلا أن الطقس الذي وُجِدتُ فيه ذو جذر تاريخي أبلغ، وطقوسيته مثقَلة بالدلالة، لمن يتأمل. لما أكملوا دورهم دعاني واحد منهم إلى تقليده، سهَّل عليَّ الأمر كأنه يدرِّبني، وأوحى لي أن جسمي مرن، وانظر فلا شحم فيه فاقفز الآن، هيا!

بعد تردُّد وجبن قطعت دابرهما بسرعة ألفيتني أقفز، وأعيد، وفي كل قفزة علوي عن الأسفل يزيد، أسمع التصفيق حولي فأزيد وأنا أحس بجسمي ينفصل عني، صرتُ أخف من ريشة. في لحظة لمعت كالبرق الفكرة، أن المدينة التاريخية لسالفادور هي الطريق، المحطة الأولى إلى الأزل، من هنا تأخذ التذكرة لتصعد إلى العالم الآخر، العلوي، لتنفصل عن الزائل، لذا هي رثَّة، تتفسخ، لذا هي مليئة بالساحرات يبعن الرُقَى والتعاويذ، ويقرأن الكف، وفيهن من يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به. كلا، هذه ليست مدينة حقيقية، وإنما صورة، حدس من بنات خيال أمادو، والبشر الذين يُخيَّل للزائر أنهم ساكنتها إنما هي أرواح تتسلل من داره، وتتحيَّن سهوهم في النظر لتوسوس لهم بخواطر غريبة، والدليل هو الطابور الآخر، هناك للواقفين ينتظرون دورهم للمصعد الذي سينزل بهم على المدينة السفلى، أي إلى الدنيا، حيث الواقع والإنس العادي، لا الأرواح والأشباح، وكل هذي النساء المذهلات.

ومن شدة النظر في رحابتهن وكثبانهن اختلط الأمر عليَّ؛ أأنا في صحوٍ أم منامٍ؟ عندها قلت لا ينفعني إلا أن أنضم إلى طابور فحص النظر، فلما جاء دوري طلب مني الطبيب أن أميز حروفًا ثم كلمات، فشرعت أقرأ وأقرأ، لا أعرف كيف أتوقف، إلى أن دخل اثنان ثبَّتا فكيَّ، وتوجه الطبيب إليَّ قائلًا: اسمع يا هذا، مشكلتك أنك ترى ما في رأسك لا الحقيقة، وعليك النزول تحت للعلاج.

(IX) جحيم العالم السفلي

لماذا أنت هنا؟

أذعنتُ لنصيحة الطبيب، ولتنفيذها أخذت مكاني فورًا في طابور المصعد بدل طابور العميان. حين تركب المصعد ترى البشر وجهًا لوجه. تستطيع أن تفحص ملامحهم، ويمكنك أن تُحصي عدد البثور في وجوههم، والنساء تميز نوع صباغة الشعر وقيمة المساحيق على وجوههن. هناك الرائحة طبعًا، الأكتاف وحتى الأرداف المتماسة. حين تكف عن شم الرائحة ستصبح واحدًا منهم بالتمام. اركب مصعدًا أو حافلة، واذهب إلى «سوق عام»، لتعرف ناس بلد ما، ولا تكن مثل سياح القطيع؛ إنهم فعلًا مقرفون. لم أكن أختلف عن سائر مستعملي المصعد، وفي السفر أتجنَّب أي أناقة لباس أو أثر لافت، لذا ذبتُ وسطهم، وحسبوني — من غير شك — عامل خدمة في مطعم أو مخبزة أو أي مصلحة بريد. هذا مناسب، ومريح.

في دقيقة تركت العلياء ونزلت إلى العالم السفلي، وطبعًا ليس من أجل الطبيب وحده، بل لأبحث عن وجهي، تبعثرت ملامحه في المعالم والآثار، وقررت أن أستردَّه من خلال المعيش واليومي، والظن لا يفارقني لأن هذين الوجهين يتطلبان الاستقرار في المكان والزمن. لذاك للمسافر عدة وجوه، وسيول من المشاعر خلال تجواله، دمه يغلي ومزاجه يتبدَّل، فمتى يكون هو إن لزم بالضرورة تحديد هويته؟ عند الاستقرار في دائرة المألوف، عندما يكون قد نسي كل شيء أو تقريبًا وهو يعايش المتبقي، تمامًا بحسب تعريف هيريو الشهير للثقافة. هل أنا الآن بلا وجه؟ كلا، أحسب أن المرء يلتقط قليلًا أو كثيرًا من سيما الآخرين وخلائقهم ليكتمل، والنزول هنا بالضبط دليل حاجة لم يشبعها التاريخ،

الماضي الذي اكتمل، أما الحاضر الحي فيتقدم بخطى الأحياء وبالأنفاس الحارة للغادين والرائحين، المتفرقين شَذَرَ مذر.

إنهم أهلي وأصحابي، فأنعِم بهم وأكرم. خاصة وأنهم غير متعجلين. خرجنا من المصعد بلا تدافع كالثيران، بهدوء لافت. في الأعلى يمشون كما تدب النملة، في الأسفل الخطوة مرتاحة، والحافلات وحدها تسرع لتفرغ وتعود تملأ، سنة الله في الخلق. إذا طلبتَ وتعجلتَ ستفضح نفسك، ستُنعَتُ بالمتوتر، ويتهامس حولك القوم، الذين من عادتهم الانصراف إلى شئونهم، والصفير، لا الزعيق، مع مطلع الشمس كالطيور. إذا حللتَ بأرض، أنت العابر في الوجود، في زمن قياسي هو حياة إنسان، لا تتطلبْ أن تجد بين من تحل بظهرانيهم ما اعتدتَ عليه، وتتأفف مما لا يعجبك من مألوفهم. لا فائدة، ابقَ في مربعك، في الدورة التي يعتاد عليها الكلب بين نقطة البدء والمنتهى لجغرافية محدودة، بالعلامة والرائحة ومثله. بطيئون قلتُ هؤلاء الناس، وأنا الذي لم يعد يمشي إلا مهرولًا أو بخطوة متر. في باريس عندي مشكلة مع الزوار العرب؛ هم يتنزهون، وأنا لم أعد أعرف كيف، جُزتُ ذلك من دهر، وفي الحقيقة تعلمت طريقة القوم الباريسيين، المتسابقين، الواثبين، القافزين، اللاهثين من الصباح إلى المساء، من الخريف إلى الصيف، من نهاية الويكند إلى اللاحق به، الضجرين، المختنقين، المشحونين بالأزمات الوجودية، والفصامات الشخصية، ساكني غرف مترين والقواقع الذاتية، المتخوفين من التجمهر والأنوية الجماعية، مفضِّلين عليها، أو نزَّاعين إلى القعود على أرائك التحليل النفسي أمام فرصة للكلام، لإنسان يسمع مواجعهم وهوسهم الشخصي؛ أما وقد أرخيتُ سمعي هنا فإنني أرى الكلام يسري موجًا، ويهب رخاء، ويتبادله العشاق غناء.

الساعة العاشرة صباحًا، وقد قادتني قدماي صدفة إلى الشارع الرئيس للمدينة، غاص حتى الحلق. نحن الأربعاء يوم عمل، والخلق فيه رجال ونساء، والأواخر أكثر، تختنق بهم الأرصفة والمتاجر ومحلات العصير والفطائر، تعجبتُ ألا يعمل هؤلاء؟! وهل هذا وقت تبضُّع؟! وعلمتُ أن لا عيد في الغداة، أيضًا. فما الخبر؟ استحضرت أني، أولًا، في العالم السفلي، حيث يتحرك البشر ويصخبون، يبيعون ويشرون ويستهلكون بنَهمٍ، وتؤخذ الدنيا غلابًا. أدركت، ثانيًا وقوعي في شرك مقارنة عسفية بين عالمين توجد بينهما قواسم مشتركة وإن متمايزة. عزوتُ الظاهرة، ثالثًا لسبب البطالة تدفع إلى الانتشار في الأرض على غير هدًى، هذا بعض ما أراه في بلادي، المتنقلون في الشوارع والأسواق في كل وقت بلا حافز، كأنهم في «مولد» بلغة أشقائنا المصريين، اصطنعوا لهم مثلًا دارجًا،

ملفوظه فصيحًا: «من لا يشتري في السوق يتنزه!» اعتمدت أخيرًا منطق أن العالم السفلي جحيم، لا أحد يرحمك فيه، الهدوء في المدينة العليا هو الطريق السالك إلى الفناء، إلى العالم الآخر، بعد أن قضى الواقفون في الطابور من الدنيا ما تأتَّى لهم من أوطار؛ لذا التدافع بالمناكب، والكدح، يعرفون أن السماء، بكل دعواتهم وقرابينهم للعذراء، لن تملأ القفَّة، وهم غير مرجفين، لا يكفُّون عن التماس بركاتها بإيمان ملتهب. لذلك يعملون متوزعين على كل ما يخطر، ولا يخطر، على البال من صنائع، الصحيحة والمتاحة، يستوي الكبير والشاب والصبي، والمهم أن تعود بزادٍ ما والشمس مالت إلى المغيب.

هذه الجموع أحب أن أنحشر فيها. أراها حقيقية فوَّارة بالحياة، تصنع لحظتها ومصيرها بيد الغير، وقدرُها معلق بالغيب، القلب واجف، وفي السماء — دائمًا — كوة مفتوحة تتلقَّى الدعوات؛ تلك حياة البسطاء. لذا قليلٌ أرَقُهم، فأجسامهم مهدودة بالتعب، والمحبُّون منهم، ما أكثرهم، يطوون الليل في حلم هو غد لقاء الحبيب إذا تحقق. المهرجان في البرازيل ليس مناسبة عارضة، هو اليومي في الشارع والأسواق والحركات والأصوات وفسيفساء الألوان نهارًا والأضواء ليلًا. المهرجان طقس داخلي تجلياته البهرجية، ولغاته الجسدية، وتشكيلاته الشهوانية، رموز مواجد الذات واستيهاماتها، ومصطلح تعلُّق الجماعة بالمطلق. في شارع العالم السفلي أعبُّ الهواء ساخنًا، وأحتك بالجسد متماسكًا أو نزقًا، وأنسى من أنا لأصبح أنا من لا أعرف. الحياة مع شعوب العالم تتم دائمًا في درجة الغليان، وإذا أردتَ التحفُّظ والأناة، وابتغيت اللياقة المحسوبة بدقة الساعة السويسرية، فاذهب إلى البيض القاطنين وراء نظرات التعالي ونظارات الريبة، أولئك الذين يملكون ثروة البلاد، ويحصدون أغلى مزارعها، وأثمن مناجم ذهبها وأحجارها الكريمة، رامين الفتات لأغلبية، هي — رغم كل شيء — تعيش، وتغني، وترقص في الكرنفال. هم والسمر والأخلاط من يعمرون العالم السفلي، هم الفقراء، المرحون، وهم مهذبون وطيبون، وهم مشردون، وينقضُّون على أول فرصة لأن الحاجة تتضوَّر فيهم، كما يتغول الجشع في حفنة الأثرياء، ما أنا عنصري في أي تصنيف.

من أتى بك إلى هنا؟! سمعتُها صيغة استفهام إنكاري من صاحب محل ذي أصل سوري، سألته عن بضاعة، وسرى بيننا تفاهم الدم الأول عرفني به عربيًّا، فانتفض سائلًا: حضرتك من وين؟ فلما عرف جدَّد السؤال: وماذا أتى بك إلى هنا؟ يقصد شارع العالم السفلي. أجبت بانفعال: انظر، ها أنت ترى أن أعضائي كاملة، لم يمسسني سوء، ثم لماذا هذا الاستغراب؟ فهمته فحاول التهرب: لا، كلا، لا شيء، كل ما هنالك أن لا أحد من

السياح يأتي هنا، فضلًا عن العرب، على كلٍّ، أهلًا وسهلًا! لقد قال إضمارًا: هنا الجحيم، هنا أنت عرضة للمخاطر، مع الشعب الحار كرغيفٍ خارج من الفرن، أو امرأة فمها قوي برائحة الثوم والبصل، سلني أنا، ومن هذا القبيل مما هلكتني به تلمى تحذيرًا في ريو دي جانيرو، فقلت صريحًا: هذا وطن آخر لي، وهي أمة ثانية لي، أيضًا، وObrigado (شكرًا) على كل حال.

بعد توديعه بلطفٍ قصدتُ ساحة منفتحة على المكتبة البلدية توزعتْ حولها أكشاك لمشروبات، وفي ظلال أشجار تفرَّقت أجسام بلا حرج، فيها الناعس أو الساهي، وشاب يكثر من التلفُّت يمنة ويسرة ربما تأخرت عنه ملكة النحل. ابتعتُ عصيرًا، وافترشت بساط الأسمنت لأشعر عندها براحة وانتشاء، فهذا بعض ما أحب في السفر، أن أتحرر من ضوابط التهذيب الصارمة، ولازم تقعد هنا، وتلبس كذا، و... و... لم أستطب قهوتهم رغم أنها عالمية. بعد طول تجوال في العالم السفلي جاءتني الفكرة أستخلصها من مجمل النظر، في البشر، والمشهد، والمعروض، والسلوك أو ما أسميه ثقافة اليومي. عالم سالفادور السفلي يرسم لي صورة بلاد وأمة تعيش في المابين: تنتشر فيها ظواهر المدنية الغربية المعلومة، ومنجزات الثورة الصناعية، وفزاعات الرأسمالية الأمريكية والوطنية؛ معالم وأسلوب استهلاك، طبعًا بتفاوتٍ بين دولة (إقليم وآخر) حتى لتحسب أنك في عواصمها الأم. وإلى جوار ذاك، قل يوازيه، تشكيل المجتمع الأصلي يتخلله في نسيج بآلاف الأمتار، يعبِّر عن نفسه بحسب المناسبة لينطق في كل مرة عن جماعة وفئة وثقافة و«جالية» خصوصية، وفي جميع الأحوال، وخارج مصطلح الأحزاب والنقابات، لا يتعرف باسم الطبقة، السياسة ليست هوية لأنها ببساطة طارئة ومتقلبة أي براغماتية. إنها ثقافية، دينية وطقوسية ووجدانية ومخيالية الشعب عامة، وهذه راسخة. رأيتها في شارعي، في أحياء العالم السفلي وسيميائيته اليومية، تشبه الشرق، بنت عالمنا الثالث الناهض، وهذا بلد ينهض بقوة، وإن على وجهه خدوش وبجسمه رضوض، والثالث كأنه بين بين في فهم معين، في التفكير التوفيقي الجامع بين «الأصالة والمعاصرة» كأن هذه نقيض لتلك وبالعكس.

لكن، وأنا أتلذذ بعصير الفاكهة الاستوائية، لا أفكر بالوقت وضغط المترو، ولا بحسابات صندوق النقد الدولي، انتبهت أن ما نسميه المابين افتراضٌ، وهروبٌ في حقنا أن نكون ما نريد، أن نصوغ الهوية الملائمة لنا بملء إرادتنا، وهذا طبعًا يستلزم الحرية أولًا ودائمًا. في عالمي السفلي اكتشفت أنني أخطأت في التسمية والتوصيف منذ البداية، أخطأت

خاصة في التفريق بين المدينة التاريخية والثانية المشيدة تحتها. ظهر لي الفرق جغرافيًّا محضًا. لن أقول إنهما تتعايشان، بل تتبادلان الأدوار بحسب الظروف والأحوال، وهي مدينة واحدة، أمة واحدة، أصلها في الأرض ثابت وفرعها في السماء. تقتات من التراب وثمار الله، وحين تموت تترك جسدها في ثراه، وتعود تصعد لتثوي في كنف الله. الدليل هذا المصعد، لا تنقطع حركته والطوابير الواقفة في انتظار دورها، بين الأعلى والأسفل، والنازلون هم أنفسهم الصاعدون، لكن من غير أن تميز لحظتها إلى أي عالم ينتمون، بالأحرى ينتمون إلى عالم لا يفهمه الزائرون مثلي. وعليك ألا تنشغل به أو ستضيع في الأحكام المسبقة، وهذه بعض آفة السياحة ومزالق الترحل. سالفادور باهيا خلاصة البرازيل وسلافة دهرها، لا عجب أنها عاصمتها الأولى، وبحكم عراقتها تصارع الزمن العاتي بأَنَفَة، ككل الشعوب العريقة — انظر إلى اليونان، مثلًا — وتتشبث بتاريخها العرقي، والسود فيها يحسُّون بآلام السياط التي جلدت أجدادهم، وفي الليالي المقمرة في الحقول الخلفية لسالفادور، حيث امتدت إقطاعات السادة والملاك، وعلى أرصفة الميناء التحتي، وفي الزقاق الحجري الضيق — حيث يقوم نُزُلي — يرسلون حناجرهم بالغناء الشجي، والكابويرا يقفزون في دوائر الشهب لذكرى الأجداد الذين أفنوا أعمارهم، وعلى أجداثهم أينعت الزهور البرية لحريتهم.

(X) مدينة الأشقياء المكافحين

«خبز وحشيش وقمر»

لو كنت أعلم أن القدر سيضع ألبرتو في طريقي لتوسَّلت إليه باكرًا بكل الأدعية والقرابين، كما يفعل سكان الشمال الشرقي هنا بثقة عمياء. لا أحد يتحكم في القدر، ولذلك فهو الذي جاء ووقف قبالتي يعرض عليَّ خدمته. بعد أن سرحت ما يكفي في الساحة، واختلطت بالكسالى والمتفرجين مثلي، عزمت على مغادرة العالم السفلي، لكن مبنى المكتبة البلدية جذبني بطرازه الكولونيالي العتيد ونوافذه العالية، وخاصة بوابته الواسعة الداكنة. وقفتُ أمامها أتفحص معالم المبنى، أتملى وأتحسَّر في آنٍ، سيظل شرك المقارنة يصطادني. قال، وقد انتصب في عرض الباب قادمًا من الداخل، بإنكليزية ذات لكنة: أي خدمة؟ فأجبته شاكرًا «كل ما هنالك أني عابر، وأعجبني المبنى.» قال: أنا أمين المكتبة، تعال بعد ساعة — إن رغبت — وسأفرجك على مكتبتنا، عندنا بعض النفائس. وإذ علم أني من المغرب قلب حديثه رأسًا إلى الفرنسية منوهًا: أوه، لغتكم هناك هي الفرنسية، وقد عشت بعض الوقت في المارتينيك حيث تعلمتها مع الكريول المحلية. فضَّلتُ الصمت؛ إذ كيف أعلق على ملاحظته، وهي صحيحة ومريرة في آنٍ؛ شعب يتخلى أو يُجبَر على التخلي عن لغته، ويتحرر من استعمار سياسي ليقع في آخر ثقافي، تتنازل فيه دولته على قدم وساق، كيف يمكن، والحالة هذه، الحديث عن تعزيز السيادة الوطنية؟!

في رمشة عين أحسست كأن تعارفنا من دهرٍ. التقينا بعد نهاية دوامه وفي رأسه شيء، فقد لَّمحت له أني سأغادر سالفادور وفي نفسي شيء من ... استبقني: آه، أنت لم تذهب إلى السوق السفلي قرب المرسى، ثم إياك أن تقول مثل كل السياح — طالبي العجائبية — إنك تريد زيارة الفافيلا (Favela)، ومع ذلك أنا على استعداد لإرضاء فضولك. عجبتُ

كيف حدس رغبتي الخجول، بقيت مترددًا طيلة إقامتي في تنفيذها، بدءًا من نزولي في ريو، ووصولًا إلى هنا، حيث برزت لي ناتئة خطوطها وأخاديدها في المرتفعات المشرفة على باهيا، حمراء وبكل الألوان. في ريو سألني مسئول الفندق — في كوبا كابانا — هل أرغب في الانضمام إلى مجموعة ستزور إحدى الفافيلات فأجبت بالنفي، كاظمًا غيظي؛ أوليس مقتًا أن تذهب للفرجة على بؤس الخلق ومآسيه في أي ظرف؟! لم تجرؤ تلمى على عرض مماثل، وقد التقطت بعض انطباعاتي، وهو ما لم يمنعني من مواصلة التفكير في الموضوع. كلما عُرض تحقيق أو استطلاع عن البرازيل في أي تلفزة إلا وبدأ بكرة القدم وانتهى بعد غابات الأمازون بالفافيلا، أي بالأحياء العشوائية، المبنية بخليطٍ من مواد وبدون تصميم، وخارج إرادة البلديات، في تراب مكتسح على أطراف المدن زحف إليه أو عليه — كما نشاء — نازحون من القرى ومناطق معدمة، يصلون إلى المدينة بحثًا عن حظ نادر في الوجود، ويتكدسون بأعداد، لا تحصى، ويتناسلون. من مرتفع الكوردوفار ترى منها ريو على كفك تعلقت بمنحدرات جبل مقابل بقع حمراء وصفراء متكاثرة كالصناديق على مساحة شاسعة، قسم على هامش، وقسم ثانٍ يشرف على الأحياء المنسقة والمحروسة (يبلغ عددها في ريو وحدها ثمانمائة، لإقامة ربعٍ الساكنة). ذاك عالم وحده، قال ألبرتو، وهنا كذلك، لكنه في النهاية طبيعي بالنسبة لمن يعيشون فيه؛ سوف ترى، إنهم يستحقون العيش وجديرون بالاحترام كذلك.

لم أستطع أن أثنيه عن هذه الدعوة «المريبة»، وفي الخامسة كنا نعبر الجسر الموازي للميناء، يلقي بك مباشرة في طريق فرعي تخرج كلها عن الطريق العام، بالانحراف يمينًا للصعود إلى هضبة عليا هي، أيضًا، جزء من أرخبيل صغير لباهيا. سمعت السيارة تلهث في صعودها الصعب، وهي من طراز فولكسفاكن قديم، ثم أخذتْ تتململ ونحن نخوض في البناء الجديد، أقصد ننسلخ عن طريق الأسفلت، الأسفلت حد فاصل بين طبقتين وعيشين، وسأعرف أن المفردة مصطلح طبقي فعلًا. حين وصلنا إلى ما يشبه باحة تراكمت فيها أجزاء سيارات مكسورة وقفنا، وانزاح يصفُّ سيارته. ذهب وسلَّم على ميكانيكي هناك في مرأب، واستقبله الآخر بحرارة؛ كان ذا ملامح زنجية. حيَّا بعد ذلك أفرادًا آخرين مررنا بهم جالسين عند عتبات بيوت يقشرون قصبًا، وإلى جوارهم عجوز تبيع فاكهة المانغا للا أحد. فهمت أنه معروف هنا، وسهَّل عليَّ الأمر أنه قضى بالحي قسمًا من الطفولة، وأشار إلى أولاد يرتدون كلهم قميص رقم ٩ للاعب الماهر رونالدينو في المنتخب الوطني البرازيلي، يلعبون الكرة في حيز مربع ضيق. مضى بعد ذلك صامتًا وأنا أتبعه في خط

حلزوني، تصاعدي، سرنا فيه لأرى دُورًا كعلب الكرتون، خليط من آجر وصفيح، صلب ورخو، بنوافذ وشقوق، وأحيانًا شرفات معلقة، وأسطح تتشابك فيها أسلاك الغسيل مع أسلاك الكهرباء مع أسلاك الهاتف مع مقعرات.

تصاميم متنافرة لا تشبه إلا مكانها، ومن ثَمَّ فهي في فوضاها الكلية تصوغ انسجامها الخاص. كلما حرص المستقرون، المتمدنون زعمًا، على توحيد الألوان وضبطها بين لونين لا أكثر في المبنى أو العمارة الواحدة، كلما تشظت الألوان هنا في انفجار لوني يباغت العين صادمًا مألوفها بفسيفساء مشعشعة، احتوتها هندسة المربعات والمكعبات والمستطيل، في تواتر — لا نهائي — يجبر العين على أن تدور في محجرها، وشِبه دُوار للرأس يلاحق عدَّ تراكب بيوت لا تنتهي. بيوت متراصة كعمارة ذات طوابق، لكنها منزاحة عن بعضها بسطيحات، وتحسبها — عن بُعد — معلقة في الهواء فيما هي منحوتة نحتًا على جسد التل أو الهضبة. نظر إليَّ ألبرتو وأسعفني: أوه، لا تخف، فلم يحدث أن وقعت هذه البيوت! قبل ثلاثين سنة لعبتُ في أزقتها، هذه نفسها ما زال ماؤها آسنًا، والنفايات تعلق بها، والناس يدبِّرون أمورهم كما يستطيعون. انحرف إلى دكان تظاهر فيه بشراء شيء، وهو في الحقيقة، كما شرح لي، أخذ تصريح المرور نحو التلة العليا؛ لست معروفًا لديهم، ثم إنك أجنبي، فربما حسبوك ثريًّا، وأنت مجرد مغربي بلاده محاطة بمدن الصفيح، فلقد شاهدناها في قناة غلوبو، ويحكمكم ملك اسمه ... أليس كذلك؟ فضحتنا، إذن، غلوبو هذه، نحن الذين ظننا أنها متخصصة في الحب وحده.

سنة ١٩٨٥م زرت كولومبيا، المشتهرة بزراعة المخدرات أكثر من منطقة كتامة عندنا، وبحرب العصابات، وبغارسيا ماركيز، من حسن الحظ. في بوغوتا وقعتُ في اليوم الأول بمطب أمام قصر العدالة تحاصر فيه القوات الخاصة متمردين ثوريين، تصوروا! بقينا خمس ساعات، نحن جماعة مارِّين، تحت وابل الرصاص بين الجانبين، وحين انقشع بارود المعركة وبَّخنا قائد القوة، لأننا — في نظره — لا نعرف أين نضع أقدامنا، وقد فعلتُ حسنًا أن بلعتُ لساني. لمَّا حكيت القصة في الغداة للصحافية ماجدلينا قالت: معه حق، وأنت مساء لتصل إلى بيتي ستحتاج إلى خفارة. كانت تقيم فوق تلة على هامش العاصمة، وفي السفح وجدت صبيًّا ينتظرني في محطة التاكسي، هو من قادني — بعد مناورات وتحيات مشفَّرة — إلى«نعيم» ماجدلينا. رويت الذكرى لألبرتو فلم يتأثر، ماذا تريد، إنه الفقر ينبت — في محيطه — فطر خبيث: المخدرات، الجريمة، الشذوذ، التهريب. لكن حذار أن نشمت في هؤلاء السكان أو نستضعفهم؛ إنهم خميرة مجتمعنا رغم كل

شيء. هنا تعلمتُ الحياة الأولى وانطلقت. لا تسقط في الأحكام المستنسخة، وهؤلاء جاءوا في البداية من العدم. بقطعة كرتون، بخشبة، وأسلاك، وينزلون إلى تحت، هناك في الأسفلت يكدحون يومًا وعمرًا إلى أن يبنوا هذه الدور العجيبة، ويتزوجون، وينجبون ويرسلون أبناءهم إلى المدارس، أيضًا، ويبعثون بعض المال إلى ذويهم في المناطق المنسية من الدولة. إنهم البرازيليون المكافحون، وخطأ شنيع عندي أن نسمي هذه المساكن أحياء الفقر، كما هي الكناية الشائعة لفافيلا، وإنما مدن المكافحين.

الظاهر أن قناة غلوبو لم تنقل إلا صورة جانبية عن مدن الصفيح المغربية، وأحزمة أخرى لا تحمل هذا الاسم، وإن لم تقل عنها زراية، وإلا لهوَّن رفيقي من ملاحظاته وفخره. ونحن إلى مائدة العشاء، حاولت التخفيف من غلوائه قليلًا، وإن قدرتُ — كثيرًا — تسلسله من فقير معدم إلى رجل تعلَّم وارتقى إلى أمين مكتبة مهمة. حاولت أن أقنعه أن الحال هنا أهون من عوالم أخرى، أن الفافيلات في البرازيل، ما شاهدنا اليوم، وهناك في ريو، ربما أفضل، أو في مستوى عمران في عواصم ومدن في أفريقيا، أما أريافنا فهي لا تشبه شيئًا، هي لا شيء. تذكرت، وقد زرت للمرة الأولى أحياء سكنية بعمان ودمشق، قبلهما ببيروت، عرَّفني الشباب أنها مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. كان غرضهم أن أرى — وكنت مكلفًا بإعداد تقرير لمنظمة دولية عن أوضاع الفلسطينيين — عن كثب، وقد استغربوا كيف أنني اكتفيت بالتقاط بعض الصور من دون تدوين ملاحظات؛ قلت لهم: إن عندي ذاكرة فيل، وما أنا في الحقيقة إلا أعجب لنفسي وأندهش، فمثل هذه التجمعات عندنا منها في المغرب، وفي الجزائر، وتونس، ومدينة كاملة اسمها إمبابة داخل القاهرة سكانها ملايين، وسأنسى الصومال وإريتريا ودارفور وأمثالها كثير، فما بالي أزور مخيمات الوحدة وعين الحلوة، ونحن يا رب صرنا شعب لاجئين.

طبعًا هذا كلام يثقل على المعدة إذا طال، وكنت أسمعتُ ألبرتو — خلال تجوالنا بين أزقة الفافيلا — صدى حسرتي على أكلة فاتتني وأنا أتشمم أبخرتها ولا أعرف كيف أصل إليها. تصور أني قطعتُ كليومترات على كورنيش باهيا لينزلني التاكسي بعنوان قال: «هذا مطعم يقدم أكلة ولا أشهى» ولَّما استعجلني النادل طلبت شريحة لحم بخضر. إثرها صرتُ أرى جفانًا صغيرة تمر أمامي تتصاعد منها الأبخرة، وداخلها يبقبق مرق أصفر يتقافز إلى سطحه القريدس، تحملها نساء مشدودات القوام كالرماح، مفتولات اللحم كالجبال، يتبخترن مشيًا ويصرعن باللحظ عرضًا، فغضبت حقًّا؛ كيف فاتني هذا الإدام، وإذا امرأة — كالجبل الأشم — رصدت غضبي فاقتربت، وكلما دنت عدتُ أراها مسربلة

بالغابات، خلفها الأدغال والأكمات، ويسرح فيها كل وحش وأليف، دابة وطير. ووالله، وأنا أحمل إليها بصرًا مرتجًّا، سمعت قلبي يتزلزل بين جنبي، فأردت أن أتكلم، عاقتني القفقفة في لساني، ومسَّني مخمل ثوبها مع حفيف صوتها تهدئني معتذرة وواعدة: لا بأس يا حبيبنا، ما فاتك الليلة ستناله غدًا أضعافًا، فـ ... تعال ...! وطبعًا تهادت في سمعي، ومن محفوظي كلمات الأغنية: «تعال، أحبك الآن أكثر!»

قهقه الرجل، كل هذا الهيام من أجل «موكيكا»! أي نعم يا عزيزي، فأكلتك هذه أو حبيبتك اسمها عندنا «موكيكا دي كمرون» (Moqueca de camaro) قلت: نحن نسمي القريدس قمرون. زاد يقهقه، وقال لا تهتم، ستكون ليلتنا قمرونية وقمرية، وليس في شاطئك ولكن هنا في الفافيلا، لتشترك في العيش والملح مع هؤلاء المكافحين، أظنك منهم؟! هه، ألست تحبهم؟! هه، ألست في صفهم؟! هه ... نزلنا إلى المدينة السفلى، جلبنا منها كمية من الأطعمة والأشربة، وعدنا نصعد الجبل، أصبح سماء ذات نجوم، ودخلنا بيت أصدقاء به ضيوف مثلنا، جلب كل واحد آنية، ولما شبعت الكرش قالت للرأس غنِّ، فاصطففنا رجالًا ونساء، تخاصرنا، رقصنا وغنينا، وبقينا على هذا الحال إلى ما قبيل الفجر بساعة، ليقودني ألبرتو إلى المطار لأغادر نحو صقع برازيلي جديد، نازلين من علياء الفقراء على طريق الأسفلت ... وداعًا سالفادور، أيتها البهية!

(XII) «المدينة التي تحمل البرازيل على ظهرها»

هل عرفت سبيل الهلع؟

قبل أن آخذ الطريق إليها تذكرت روائيًّا مصريًّا، صديقًا قديمًا، عبده جبير، كتب قصة ملتبسة الرؤية، مركَّبة البناء، عنوانها: «سبيل الشخص». تذكرته من باب التداعي، كما يقال، وإن كان السبب الحقيقي هو أني، وأنا أترك ورائي سالفادور باهيا وهي تستيقظ في غلالة الفجر، انتابني بعض القلق، كل القلق، للسبيل المرسوم في رحلتي البرازيلية، واخترته بملء إرادتي. لم أتحمس للمحطة المقصودة، ولما أحسست أن الخوف، بالأحرى الوساوس هي العائق، حسمت أمري أخيرًا أضع نفسي على محك اختبار. الذين سبقوني إليها، والاستشارات بالبريد الإلكتروني، وأضيف إليها أخيرًا نصائح ألبرتو من قبيل التحذير، وهو يودعني في المطار، ويأمل أن تتم مغادرتي في المحطة الأخيرة لوطنه بسلام وانطباعات جيدة؛ كله محبط، وبه أقلعت في السادسة والنصف صباحًا على رحلة خطوط «طام» المتوجهة إلى «ساو باولو» (Sao Paolo). لا يشبه ما اعتراني من مخاوف شُحِنتُ بها وأنا ذاهب إلى (س. ب.) إلا زيارتي الأولى إلى نيويورك سنة ١٩٧٥م عندما رسم لي معارف مغاربة خريطة أحياء وشوارع حرَّموا عليَّ التنقل فيها، وأظنهم منعوني من المترو، وجدتُني أستقله بجسارة وأمان في الثانية بعد منتصف الليل، ربما أخافت لحيتي المتمردة آنذاك، وشعري الفحمي المرسل.

ما أهونها تحذيرات تلمي إزاء ما حُوصرتُ به من ترهيب، حدًّا يحيل الحركة إلى مغامرة: لا تخرجْ في الليل مطلقًا؛ لا تحملْ معك أي مبلغ مال؛ لا تزُر أي فافيلا؛ لا تركب سيارات التاكسي؛ البِس الدرابيل فقط، إذا اعترضكَ لصٌّ أعطِه كل ما عندك، لا تقاوم،

استسلم دائمًا؛ أنت في عاصمة الجريمة، إحدى أكبر عواصمها في الدنيا، وإذن أنت إذ تذهب إليها، رغم هذا الترهيب، فإنك إما مازوخي، أو تلقي بنفسك عمدًا إلى التهلكة، وفي الحالتين هي حماقة!

الذهاب إلى المدن الكبرى، الخطيرة، الإحساس بخرق العادة مسبقًا، هذا بعض ضرورة أي سفر ومِلحه، أيضًا، وإلا امكُث في بيتك آمنًا مطمئنًا. من مخرج المطار طلبتُ من سائق التاكسي أن ينقلني إلى L'Avenida Paulista، سألني بالبرتغالية ما كنت أتوقعه، فأجبت بحركة عشوائية فحواها حيث تشاء. فكرتُ أنه إن كان لا بد من العنف فلأواجهه من البداية، وليس أكثر من أكبر شارع في المدينة حلبة له. على كيلومترات يمتد، وفيه أقوى محلات التجارة والصناعة بالمدينة والبلاد كلها، تجتمع فيه أمهات المصارف، والحركة على مدار ٢٤ ساعة. عدا هذا الهدير بأي مباهج يحفل أحد أكبر شوارع أمريكا اللاتينية، وأي أسرار خبيئة فيه؟ ما عناني أولًا هو مواجهة القوة، جبروت رأس المال، أن أسمع دماغي يتحول إلى أوتوستراد تعبر فيه السيارات بسرعة قياسية لأحس في اللحظة نفسها قدرة الإنسان على تدمير العالم والذهاب سريعًا إلى الفناء. عندما بلغت منعطفًا مختنقًا بالزحام طلبت الوقوف، ليس في ذهني لا عنوان ولا اتجاه. بينئذٍ دفعتُ حسابي بلا انتباه للعدَّاد؛ احذر سينهبك السائق، يا سيدي لينهبوا بضع قطع إضافية، أوليس العالم قائمًا على النهب؟ هنا، في الدار البيضاء وفي القاهرة طبعهم واحد. لكن هذا السائق لم يكن لصًّا بتاتًا؛ فإني ما إن قفزت إلى الرصيف وسرت خطوات إلا وسمعت صوتًا ينادي، تلاه — بعد إلحاح — نفيرُ سيارة، وهو نادر، فالتفتُّ كأي واحد، وإذا هو السائق يلوح لي، يدعوني للتريث، بينما سلَّ هو عربته بمهارة من نهر السيارات الدافق، وسلَّمني حقيبتي التي نسيتها بتهور.

كنت محظوظًا حقًّا، فقد توقفتُ حيث ينبغي، أمام مدخل فندق صغير تهلل وجه القائم في مدخله لَمَّا رآني. العرب معروفون بالفِراسة، يشمُّون بعضهم بعضًا من أقصى الأرض إلى أقصاها ولا يقصرون مع الغريب، وهل مثل الفلسطيني أشد إحساسًا بقسوة الغربة، لذلك، وبسرعة، حجزت غرفة «وأنت معك». حمدتُ للرجل لطفه، خاصة أنه عاملني كشخص راشد سيعرف سبيله بنفسه، «سيدبر رأسه» كما تقول بعاميَّتنا المغربية. رحت أمشي مثل أي Paulistano، وهو اسم الساكن الأصلي لساو، نظير الكاريوكا قاطن ريو. نهر السيارات في الوسط يوازيه نهران على اليمين واليسار. هما من بشر أخلاط، أجناس وأصول: ألمان، يابان، طليان، أفارقة، عرب، مسلمون، مسيحيون ويهود، وأنا أذوب في

هذا التعدد المثير، عقلي يدور، ومشاعري لا تستقر. هذه هي المدن الحقيقية أقول؛ حيث الاختلاف، ولا أحد يلتفت إليك كما في البلدات ليعرف أصلك وفصلك. هنا والضواحي قرابة عشرين مليون نسمة، يا للهول! كما في مكسيكو سيتي حاليًّا، في ١٩٨٦م دخت بها وتعدادها ١٢ مليونًا فقط، لكن العرب فضَّلوا القدوم إلى البرازيل بكثرة، وها أنا أقرأ أسماء محلاتهم تتواتر كما في الشام ولبنان والقدس، وأدخِّن نرجيلة تفاحتين محترمة في مقهى «جارة الوادي»، مع قهوة مضبوط بالوش.

بدخان النرجيلة تشابك السؤال، هل كان سيخطر ببال الرهبان الجزويت، وهم ينشئون مؤسسة «بيراتنيغا» ليبنوا معها مدينة ساو باولو سنة ١٥٥٤م، أن صوت الله سيُسمَع من مئذنة في جنوب غربي المحيط الأطلسي؟ وأن مدينتهم الوديعة الأولى ستصبح إحدى العواصم المخيفة في الأرض؛ يشار إليها في معدلات الجريمة القياسية. كنت قد تركت ناطحات السحاب بعد مشي ساعة ورائي، وامتلأ سمعي بهدير مليون سيارة ربما، وأنا مرتاح، مع ذلك، لشعوري أني أشبه الخلق الساعي كالنمل من أجل القوت، بسحنتي وثيابي، ومشيي شبه المهرول معهم، وهو ما سيختلف عندي في اليوم التالي وقد تباطأ خطوي لمَّا طرقت المدينة القديمة.

التليد هو الحضارة، هو التاريخ، يدعوك، بل إنه ليجبرك على احترام المكان، والتنفس بهدوء، النزول إلى داخلك كلما سلبك خارجك، لأنك ببساطة في حضرة الزمن، الزمان مطلقًا. في Patio do Colégio ستنحني إجلالًا وأنت تمر أمام الكنيسة، وتشعر بضآلتك وأنت قبالة الكاتدرائية. لا صلاة الآن ولا جنَّاز لتسمع «باخ» يرسل بأوتار الأورغ موسيقى رهبة الموت والدهر. الجزويت يظهرون ويختفون، ما زالوا متقشفين في الوجود. كلا، الجزويت لا يراهم أحد، وفي جامعة جورج تاون بولاية واشنطن، أحد معاقلهم الأكاديمية، تلقيت جوابًا غامضًا حين طلبت مقابلة عَلَم منهم. جاء الرد إنك تحل ضيفًا علينا، وسنرى لاحقًا، فاستبدلتُ سؤالي بمراقبة كيف تقشِّر السناجب البندق وتمرح في منتزه الجامعة وحتى خارجه، لا تتعرض لأي عدوان، أي كما نرمي نحن المغاربة الكلاب بحجرٍ بمجرد ظهورها من بعيد. ثم مضيتُ إلى السوق البلدي، غرضي مقارنته مع سوق سلفادور، لأرى درجة الفرق بين الشمال والجنوب؛ فليس مثل الأسواق، وهي تقود إلى المطابخ والموائد، لقياس الأذواق ونكهة عيش الشعوب، فضلًا عن غناها وفقرها. أحسب أن واضعي الأرقام القياسية أخطَئوا لَمَّا قدَّموا نسب الجريمة في ساو باولو على غنى السوق ومتع الطعام، تكاد تكون بلا نظير. في سلفادور أخذني ألبرتو إلى أكبر سوق للولاية، ما يعتبره حافلًا

بالغرائب، حتى إنه قال مهوِّلًا إنك واجد كل شيء هنا، والبشر تشتريه إن شئت، والحق رأيت العجب بين حلال وحرام، وما يدب على الأرض وينبت بالغمام.

وكما بهرتني ألوان الفافيلا، خاصة النماذج المرسومة لها في لوحات الرسامين الفطرية، أثارتني الروائح الطافحة في السوق البلدي، أقصد العابقة من أطباق التوابل، تفوح منذ الرابعة صباحًا إلى مغرب الشمس، وكم وددت أن أعدِّدَها لكنها مئات وأكثر. أما تسميتها فلا مبالغة تحتاج إلى قواميس العالم، لأنها، فعلًا، توابل العالم. وبما أننا نقول في مَثَلنا إن الشوف (النظر) لا يبرِّد الجوف، فإن تهييج التوابل قادني لما هو «أهْوَج»، إلى أضخم مطعم متنوع وقفتُ عليه في أسفار سابقة. ظننت أن التقليد البديع للسوق الشعبي للطعام في المكسيك لا يضاهيه شيء، حيث تتناثر الخيام، وتتوزع الموائد، وتتجاور المواعين حافلة بما لذَّ وطاب، تغرف وتعيد، أقوام تأتي، أخرى تذهب، فقراء وأغنياء يتجاورون. أما هنا فعندك أشهى مطابخ الأرض ربما، بسبب التعدد العرقي والأجناسي لسكان هذا البلد، ولك أن تتذوق طيباتها كلها: يابان وطليان، سود وبيض، عرب وعجم ومن كل فجٍّ عميق. أعترف بأن نهمي أضرَّ بي، لكنها ضريبة جوف ابن آدم، موزعًا بين نهم النظر والشم والتذوق، وحاله أي حال.

هنا تتعلم درسًا إضافيًّا من هذه الشعوب، أن تأكل بانتقاء، ما قلَّ ولذَّ، أن تستمتع بطعامك، ضئيلًا وسمينًا، لا فرق، فالقناعة تراها في العيون، كلٌّ على رِسْلِه وجيبه، بلا هرجٍ. وبعد الزاد ترى الخلق ينصرف مباشرة بلياقة إلى ما يجدر به، وكذاك الطعام والأيام يُتداول بين الناس. ألطف أشكال الأناقة والبساطة في الطعام وأصول تناوُله كنتُ قابلتها بين التايلاند والفيليبين، وفي بانكوك ومانيلا شاهدتُ، ربما أفدتُ، إلى حدٍّ، كيف يحسن المواطنون تدبير الحاجة أو قلة ذات اليد، ويتكيفون مع أحوال الطقس بوجبات قليلة الشأن لكن منمقة. ولا أعرف في المغرب على الأقل غير أهل فاس تفنُّنًا في حسن التدبير، ولذلك فلهم القدح المُعلَّى في الحذق والذوق وحسن الخلقة، سبحان من سوَّى. رأيت منه هنا ويزيد، وظهر لي أن هذا الغصن من تلك الشجرة، وهذا من فضل الله وتعدد الأجناس، فتتضافر المواهب وتتنافس القدرات، ويأتي كله لصالح الأمة جمعاء، وقوة البرازيل الناهضة تعود، بعد ثروتها، إلى غناها البشري تحس به، تراه في ساو باولو حيثما حللت، ولذلك يقولون إنها المدينة التي تحمل البرازيل على ظهرها.

حتى إذا أسدل الليل أستاره، وضربتَ بعرض الحائط بكل تنبيه وتحذير، قلتَ النهار عُري، والليل سترٌ، فماذا ترى يخفي ليل هذه المدينة الكوسموبوليتية في أعطافه؟ وهل

تصبر على النوم في حاضرة لا تغلق فيها الأجفان إلا للعميان؟ وما هو بسجع الكهان ولكن حقٌّ وبيان، وكذلك كان. الكوسموبوليتية ثقافة لا تكاثر أجناس في المكان الواحد فقط، الدليل عليها أن تحار مع فن أي شعب أصلي تسهر، ويحسن بك أن تذهب إلى مقصف حسن الإضاءة، يجتمع فيه من الموسيقى ما تفرق في غيره. لا بد من «السامبا» التي بدورها أنواع: س، بوب، س، كانكاو، الرائجة في مناطق الفافيلا، بسوداويتها وحزنها، س، ريغي، المتأثرة بالإيقاع الكراييبي للجماييك.

حسنًا، فما رأيك بكوكتيل لطيف المزج اسمه «بوسا نوفا» يجمع بين السامبا، طبعًا، والجاز. دفعتُ الباب ودخلتُ، من حسن الحظ لم يكن سياحيًّا، أنا وجدته بحدسي، وقد طربتُ وعادني ما يشبه أجمل ما في الكون عبر عينين، محمول على غناء كالأنين، وأقدام توقع، فيما أصابع ترعش بالحنين، غادرت إثرها، وما أبقت للعبد الضعيف أي يقين ... لولا أن ساو باولو تحب أن تذكر زائرها من غير البوليستانو الخُلَّص أن عليه أن يأوي إلى فراشه سليمًا ما أمكن، فأحشاء الليل غير مأمونة دائمًا، خاصة وأنت تنزل يا سنيور في شريان خطير بالمدينة، ولولا أن وجهكَ أوحى لي بالثقة لما نقلتك، ولما قبلتُ هذه الأجرة، وسترى لن نتوقف في أي نقطة حتى فندقك، وهمهمتُ بأني صرت أحفظ هذه المحاذير عن ظهر قلب، وأني سأنفحه زيادة؛ والآن احرق جميع إشارات المرور، وأجبني هل ثمة ما يُسرَق بعد أن يضيع القلب؟!

(XIII) الماء سقفًا والأخضر سماء

«طيور في غوانتانامو!»

من سيجادل في أن الطبيعة أقوى من الإنسان وأدْوَم؟ أكيد لا أحد، والطبيعة، أي التفاحة، هي التي طردت آدم من الجنة، أي الأزل، وهوت به إلى الأسفل، أي الأرض، أي الزوال. الطبيعة مسئولة بطريقة ما عن وجود الإنسان على هذا الكوكب؛ وبذا تبقى لها اليد العليا عليه. كنت أعلك هذه الفكرة الساذجة في مخي والطائرة تغادر ساو باولو في اتجاه موسوم بالدهشة، بحسب جميع الأوصاف. من علٍ بدت المتروبول الرهيب منتشرة في كل النواحي، بمئات الشرايين وآلاف الأوردة، والبناء من شدة تراكمه تحس به يخترق حنجرتك، ولا بد أن تتساءل كيف يمكن للإنسان أن يعيش في مدينة بهذا الثقل، تسأل وأنت تترك مكسيكو، بومباي، حيث يتساقط الناس جوعًا وسهوًا، والقاهرة تتعجب كيف ما زالت تواجه زمانها العاتي، والآن ساو باولو قائمة مثل فظاعة بلا حدود. تقول لا ملاذ للإنسان أخيرًا غير الطبيعة، العودة إلى الجنة التي طُرد منها مبكرًا، ويؤمن في الحياة إن آمن ليحيا فيها أبدًا.

وكذلك كان ذهابي إلى Iguaco القائمة عند الحد الأقصى من ولاية Parana غربًا بمحاذاة دولة الباراغواي. لست من عشاق الانفراد في الأصقاع الخالية، وتبقى المدينة بكل توترها، وحيث أعيش غُفلًا، موقعي الأثير، لكن يظل للماء دائمًا عليَّ سطوة، وحيث السقي والمرعى بهجة للعيش. ولذلك، وبعد انتهاء إقامتي في «إغواسو»، قلت هذه «جنة» الله في الأرض، بعد تلك التي وعد بها المتقين في السماء، أخذتُ بلُبي، وهدأت فيها روحي، وطاب فيها المقام، وما ذلك إلا لأنها تطهر من أدران المدينة، بله الحياة، تعيدك إلى فطرة الأشياء وجمالها الأول.

إغواسو، مدينة صغيرة، إحدى الهبات الإلهية العديدة إلى أرض البرازيل. بساط أخضر في عدد محدود من الكيلومترات، وأبنيتها — عمومًا — وطيئة لا غلو في ارتفاعها، فلم أرَ عمارة تزيد على طابقين، وشوارعها ذات الأرصفة العريضة أقرب منها للنزهة لمرور السيارات. في الجولة الوحيدة بين أحيائها اكتشفت أنها معمورة بذوي أصول الهنود الحمر، وعربنا المشارقة مهنتهم التجارة، والناجحون بينهم يملكون ضيعات كبيرة للزراعة والخيول في الضواحي تسمى Latifundio، وهي ملكيات إقطاعية مشتهرة في أمريكا اللاتينية، ومثار صراع وخيال. لكن هذه البلدة اشتهرت بشيئين: أولهما، تماسها بالحدود الجنوبية لباراغواي، بما يفيد أنها ممر تجاري حساس للتبادل التجاري، ومضخ للبلدين بأنواع البضائع والتهريب. والثاني، الأهم، يتمثَّل في الطاقة الطبيعية من غابات ومنتزهات، ومتاحف أثرية، وحدائق للحيوانات والطيور، أظنها — بحسب ما شاهدت وعلمت — من بين أغنى وأندر ما في العالم. وإذا كان برازيليو الإقليم يجذبهم الإغراءان التجاري والطبيعي فإن فتنة الطبيعة، وفي قلبها شلالات إغواسو هي ما يجلب آلاف السياح على مدار العام إلى هذا الصقع البعيد، لكن الفريد حقًّا.

وصلت إلى المكان ليلًا حيث نزلت في الفندق الوحيد. قبل أن أصل شممتُ ليلًا عليلًا، وبدأت أمتص الهواء مثل غواص سيهبط إلى الأعماق. عند الوصول، صوتُ الصمت يصل إليَّ تدريجيًّا عندما سمعت كخشخشة بين أوراق أشجار على الطريق الغابوي، لا شك حيوان تأخرتْ عودته بسبب موعد غرامي، أما الطيور فنامت مبكرًا. نمتُ بدوري بسبب يوم طويل، ومن أجل أن أستيقظ باكرًا، كما يفعل الجميع لرؤية الشلالات توقظ الليل من نومه ويتوضآن معًا بطهر الفجر. لم تمهلني إلى الصبح، فقد تسللتُ إلى غرفتي وسحبت سريري منها، وفوق سحابة بيضاء صنعتها من زبدها الطافح من نثار الماء شرعتْ تدفعني كأنها تهدهدني، تؤرجحني، تدغدغني ونحن نتضاحك — بشكل حوارٍ — مع نجيمات أضاءت لنا المسار. إلى أن أدركنا سفحًا، لكن في العُلى، ممتدًّا كبحرٍ معلَّقٍ في الهواء، ويوشك أن يسقط من ذروة وأنا أتشبث بالبقاء على الحافة، أصابعي مغروسة في صخرٍ مسنَّن، وهي تجذبني بآلاف الأيادي والأذرع أراها كلها بيضاء بعد أن اختفى الليل، وتلألأت الأشجار، وفات الحلم المخدِّر، الذي ظننتني استسلمتُ له، وما أنا إلا صاحٍ في نومي، خدر كالنوم في صحوي، والماء الأبيض يا سادة يطرق — هذه المرة — شباكَ غرفتي المواجه مباشرة للشلالات يدعوني بلطفٍ: تعال.

الطريق إلى شلالات إغواسو (Cataras) وعرة خلافًا لما يرسمه مزاج الحلم. هي هناك، تراها — عن بُعد — تتدفق، وبخارها يصعد كالأدخنة صانعًا كتلًا ضبابية خفيفة،

بينما صوت تتابع التدفق يحدث في المدى جلبة متصاعدة لا يملكها إلا هذا الصوت ذاته، يصخب في أذنيك أوَّله، وكلما تقدمت نحوه خفَّ، لا تعرف أَمِن التعوُّد أم تتضاءل هيبته لتصبح أسير سحره أكثر من أي شيء آخر؟ ولكي يتحقق لك ذلك تحتاج إلى السير في طرقٍ ملتوية صعودًا ونزولًا، تعبر أكمات بينا الأشجار تنحني عليك، في الانحدار النازل تدريجيًّا إلى أن تصل مع النازلين إلى الموقع الأخير للمنحدر الغابوي الكثيف، وقد تعرَّى قليلًا ليصبح له أنف يستدير تحته برج منه يشرف السياح مباشرة على وجه الشلالات، وماؤها يتدفق بقوة ٦٠٠٠م٣ في الثانية. كان المغامر الإسباني «ألفارنونس» أول من أطل على المكان سنة ١٥٤١م، وتمضي القرون ليُصنَّف في لائحة التراث العالمي لليونيسكو، بجميع المرافق المحيطة به. لكن النظر إليه — عن بُعد — فيه أشكال وزوايا كأي لوحة تشكيلية، والموقع بحكم توزع ترابه بين البرازيل والأرجنتين، تتعدد رؤاه، تتقارب، تتباعد، لكنها في الأحوال كلها باهرة للنظر، فكيف الإحساس بشلالات تتدفق أقوى من تلك التي في نياغارا وفكتوريا، والوقوف تقريبًا تحتها ليس للعبادة، شأن الهنود القدامى، إنما للقيام بنوعٍ من التحدي العبثي في النهاية ما دامت الطبيعة جبارة لا تُقهَر؟!

ذاك ما بوسعك أن تتحقق منه إذا سعيت إليه، بمقابل سخي، ففي أحد مداخل مجمع إغواسو الطبيعي الضخم توجد نقطة منها يتم الانطلاق على متن عربات عارية يجرُّها محرك، وتمضي في طريق شديد الضيق، كيلومترين داخل الغابة، إلى أن تصل إلى ضفة النهر الموعودة حيث ترسو زوارق مطاطية مجهَّزة بمحرك، ويجري تزويد ممتطيها بملابس وأحزمة وقائية ستعرف ضرورتها حين يجدُّ الجد. ينطلق الزورق أول مرة خافتًا، ينساب في النهر خفيفًا، مرحًا، والنهر يمتد كشِعب بين جبلين، وهما سيتشكلان على جانبيه تدريجيًّا، اكتسيا بأشجار متكاثفة بلون أخضر مضيء تحت شمس ساطعة، قبل أن يتبدَّل مكتظًّا ومسودًّا في الغابة الداخلية على مسافة آلاف الهكتارات. فجأة تحس بالزورق يغيِّر ربانه «مزاج» سرعته ليصبح سهمًا، وهو يتلوى وينعطف بين نهر هو الآخر يلتوي، ثم ها هو يهمد تدريجيًّا، قد أصبح وجهًا لوجه مع عشرات صبيب الشلالات، متفاوتة حجم ماء وقوة وسرعة هبوط، لكن ماءها ينشطر في الفضاء، وهديرها ملء السمع حتى السماء. تتسارع متلاهثة في النزول من علو ليس غير لسان ماء هادئ، لكن الحافة تفاجئه، تنهب وداعته، لينهار بغضبٍ وعنف هو الموج المتكاثف، الواقف ينازل بعضه، أبيض من الثلج، حين تعلك الخيل في المعارك تثير النقع وهي تثير أبخرة فوارة تتجمع في موكب حاشد لتصعد إلى السماء، ولكأن الشمس التي تريد أن تنفرد بالعلو

تتصدى لها بأشعة نفاذة تخترقها، عساها تبددها، ومن عجب لا تنال منها، فها البخار تراه يخطف شعاع الشمس إليه، ويعقدان قرانهما على مرأى ومسمع منا نراهما تخاصرا، تعانقا، في هيئة قوس قزح، وللتوِّ أنجبا ذرية من ألوان لا تعترف بالحدود المتقابلة للبرازيل والأرجنتين، ويعلمان الإنسان البطِر أن الطبيعة ديدنُها الجمال والانفتاح بلا حدود.

حين يتناثر عليك نثيث الصبيب الشلالي تحس أنك تغتسل من درن، وتبترد من حر، ولعلك تتوق إلى البقاء هنا حرًّا، بعيدًا عن لوازم العالم المادي ومشاغله، عن اختناق المدن وتلوثها، وصراع البشر وحروبهم وتضييعهم لإنسانيتهم الأهم، في تفانٍ لا مُجدٍ ينتهي بهم إلى الفناء. تراهم في طريقهم ذلك يدجنون كل ما يصادفهم، الطبيعة والحرية في المقدمة، وإلا ماذا نسمي تأسيس سجن للطيور، أو ما أطلقت عليه بعد نهاية الجولة المؤسفة: «غوانتنامو الطيور»؟! لأترك محافظ الحديقة فاغرًا فاه. ترددت قبل أن ألجها، غير أن الإشهار أغراني: «أجمل وأندر طيور العالم في ساعة!» تراها كلها وتراك في جولة ساعة هي فرصة لا تتكرر، وأنا الذي، مثل كثير، ما عدت أستمتع بالعصافير إلا من ربيع لربيع، عن بُعد أسمع التغريد وأطرب له أعذب من غناء لقيط. دخلت إلى القفص بحريتي، أقصد إلى السجن الجماعي الكبير، وإذا هي أجناس الطير ما لم أشهد، ما لا يُعلَم إلا في القواميس والمصنفات الخاصة. معظمها اثنان، ذكر وأنثى في قفص واحد، كل قابع في زاوية، أو معلق فوق غصن مصنوع.

في أقفاص أخرى اثنان يتقافزان، من سياج أسلاك يصطدمان بالسياج، فإن حرَّكا الأجنحة فلرفيف خفيف لا يسمح بالتحليق، أما الطيران فذاك هو المحال عينه. تتابعت الأقفاص صغيرة، كبيرة، متوسطة، أحيانًا بسعة فضاء رحب توزعت فيه الأشجار والنخيل وأشكال الطير فيها صورة عظمة الخلق والخالق، ولألوانها خاصة فتنة. أراها تحدق في الناظر إليها، وأتلهَّى عنها، عن سجنها، بها، بألوانها؛ فهي مدهشة في نوعها، وتعددها، ولويناتها، وتفاصيل اللوين. ويعرف عامة الناس، وأزيدُ نخبتهم المتعلمة، أصنافًا من الألوان، والرسامون خاصة، لكني أجزم أن ما اكتسته هذه الطيور في الأزرق والبرتقالي والأصفر والأحمر والأخضر، وقس، لم ترسمه ريشة فنان من قبل ولا حلم به. وقد كنت قدَّرت مرة بعد زيارة إلى متحف متروبروليتان في نيويورك، ووقوفي ذاهلًا أمام لوحة «الحمار» لشاغال، صبغ أطرافها بألوان من أفانين الخيال؛ اعتبرتُ أن الفنان لا يتسمى إلا إذا أبدع الجمال صنيع العبقري الفرنسي مارك شاغال. لكني وقد رأيت هذا الزهو،

في ريش تلك الطيور، أراجع ذوقي وما هام به من شاعرية وتحلل مقاييس، وأدعو كل رسام لزيارة هذا المكان، وإن كنت أخشى عليه أن يكفَّ عن التصوير من ذهول ما سيراه.

ثم أعود أعاتب النفس على الزيارة، أحب ألَّا يكررها أحد بعدي. أحب أن تترك تلك المقصوصة الجناح، أوليست تراوح في قفص، وسيدها رمز البرازيل كلها الطائر الاستوائي المشهور باسم «توكان» Toucan المزدهي بمنقاره الطويل جامع الألوان، إلى غبن عزلتها، ورتابة عيشها، وبؤس سجنها. أي متعة هذه، حتى ولو كانت عاقلة، يحس بها المرء بسجن كائنات الله الجميلة، وكل خلقه. وإني لأعجب— حقًّا — لهؤلاء «المرضى»، وأشفق عليهم — في آنٍ — كيف يحبسون العصافير في أقفاص لتملأ الجو طربًا وتغريدًا؟ ومثلهم القناصون يسقطونها من العلياء جنونًا، أو تباهيًا بمهارة وادعاء. خرجت وأنا أتمنى أن يكفَّ السياح عن زيارة الحديقة وعندئذٍ، ربما، يتم إطلاق سراح سجناء غوانتنامو «هؤلاء»، ولم أتردد في قول هذا للمحافظ وأنا حزين، وهو ينظر إليَّ باستغراب، وكان آخر ما شاهدت قبل أن أغادر، وقد صرت خارج السياج العام، نعامة تدفن رأسها في الرمال، فتأمَّل!

(XIV) برازيليا ... أخيرًا بداية العالم!

بشر على أجنحة الحجر

في الحي التجاري لإغواسو التقيت — صدفة — بشاب مغربي رحَّب كثيرًا على طريقتنا، وأراد أن يستبقيني لمزيد ترحاب فاعتذرت بأن ورائي «مشوارًا» أخيرًا قبل أن أنهي زيارة البرازيل. لم يكن سرًّا، فأخبرته أنني مسافر من غد إلى برازيليا. لاحظت مباشرة علامة تحيُّر على محياه أعقبها بتفسير انتظرته: ولكن، ماذا ستفعل في برازيليا، إنها ... فهمت قصده ونُبتُ عنه في الكلام لأقول له باختصار إن ما في رأسي في راسي. عنى أنها مدينة حديثة، أغلب الظن عنده أن السائح مثلي لن يجد فيها أي علامة تليدة أو أثر تاريخي، وبالتالي لِمَ أكلف نفسي مشقتها، وأنا هنا في خضم العمارات المتناطحة ومئات الطرق المتعانقة؟ وهو ولا شك محقٌّ من هذه الناحية، ولكنه — في آنٍ — غير مُطَّلع على ما في الصدور، وأنَّى له!

لو أدرك مواطني أن هذا البلد بأجمعه حديث عهد قياسًا بأمم موغلة في العراقة، ولو فهم أنه يعيش فوق أرض تعطي معنى مغايرًا للزمن، وتحتفي بالإنسان كأقوى ما يكون لأنه صانعها لغيَّر رأيه ورافقني من توِّه إلى حيث انتقلت، إنما لا بأس فالعمر الغرُّ له شأنه وعذره. كنت سمعت عن هذه المدينة التي اتخذها البرازيليون عاصمة جديدة للدولة المركزية عوَّضت العاصمة القديمة ريو دي جانيرو، كفَّت عن تلبية المطالب الإدارية وتحريك دواليب الحكم لدولة يقارب سكانها مائتي مليون نسمة وتبلغ مساحتها ٨٥١١٩٦٥ كلم٢. سمع كثير عن أن بها تحفًا معمارية بلا نظير في العالم كله، وجعلتني الصور المتلألئة في عديد التحقيقات التلفزية أشعر بالأرض تدور فوق رأسي، وقلت لا بد أراها مهما كلفني الأمر.

عندي يومان فقط، لذلك استعنتُ بدليل سياحي أرشدني إليه، يا للمفارقة، الأخ المغربي. أخبرني أنه يتردد على العاصمة لصفقات تجارية فسرَّني أن العرب شاطرون وليسوا إرهابيين، كما تصر على ذلك «ماما أمريكا». هذا دليل كوري فرنسيته فصيحة، بل راقية وحركاته راقصة، يرغمك حين يشير ويحكي على أن تنظر إلى تقاسيم وجهه وتقاطيع جسده المقدود من تناسق ومرح. وصل إلى فندقي في التاسعة صباحًا بسيارته الرونو، فتح لي بابها فقفزت بلا كلفة وانطلق. قال مباشرة: الآن سنقلع، أجل سنقلع! ثم أردف: معذور لأنك لا تعلم أنك تنزل بطريقة لطيفة في طائرة، أو لنقل إنك — بعد قليل — ستأخذ مقعدك كاملًا في طائرة. طبعًا، وجدته مدخلًا لطيفًا توسَّل به ليقدم لي المعلومات الأولى مما يحتاج إليه أول واصل غريب. وطفق يسرد متمهِّلًا، أنيقًا ومتنقلًا في مكانه كممثل يؤدي دورًا فوق خشبة مسرح:

أنت الآن فوق أرض هي نتاج فكرة تستطيع أن تقول إنها مجنونة، لكنها أصبحت حقيقية ابتداء من سنة ١٩٦٠م. أنت كاتب، تستطيع أن تتخيل هذا. رئيسنا — آنذاك — جوسلينو كوبتشيك هو من في دشن المدينة، حيث لم يكن أحد بعد، ثم كرَّت السبحة، هكذا يقولون في الشرق. لكن المجانين الحقيقيين، قل العباقرة، اثنان: المهندس المعماري أوسكار نيمير، والمصمم الحضري لوسيو كوستا، أحب أن أضيف إليهما قوة الملايين من اليد العاملة في شمالنا الشرقي. هؤلاء جميعًا اجترحوا المعجزة التي ترى أمامك. في ظرف ثلاث سنوات وجيزة شادوا صرح أكبر مدينة مخططة العالم، وفي ظروف طبيعية شديدة القسوة. جاء كوستا، وببساطة رسم طائرة. كنا قد وقفنا فوق جسر بجنوب المدينة وخاطبني: انظر، ماذا ترى؟ هناك ذاك الامتداد، الجسد الطويل يطول حتى يصل في نهايته إلى قُمرة الطائرة. يصف ويلح، ولا يترك لي فرصة لأتحقق، وفعلًا حاولت، ولكني صرت متنازعًا بين رؤية مضبَّبة للجسد في ذاته، من جهة، وبين الجسد الموصوف على لسانه. الإيحاء يصبح أحيانًا أقوى من الحقيقة، أقوى من بصري يتتبع الخط المديد يراه تكاثف بالبناء وتبعثر، لكن التصميم — كما سأقف عليه عن كثب شديد الاتساق — ينتظم في سلسلة بنايات - عمارات مستطيلة — متراصة الواحدة خلف الأخرى إلى ما لا نهاية؛ هذه هي البنايات الحكومية. وانظر إلى اليمين والشمال ترى جناحي الطائرة، إنها البنايات السكنية ومراكز النشاط التجاري والتعليمي وغيرها. لم أكن في حاجة لسؤاله عن بقع بناء مبعثرة في كل اتجاه، خارج التصميم العبقري، فحيثما ذهبت ستجد للمدن زوائد دودية، كيف بمدينة لا يزيد عمرانها على نصف قرن.

أخذنا بعد ذلك نجول في الممر الطولي للطائرة، ولم نحتج إلا إلى دقائق لنتعرَّف على جميع الوزارات، الواحدة خلف من الأخرى، لا حراسة عليها، خلافًا لمزعم الرعبوت المنتشر، مكاتب بلا فخفخة، وليس أمامها أسطول سيارات. وانتهى بنا المشي إلى ساحة خضراء فسيحة لها مدخل جانبي يقف أمامه حرس عسكري، أما الجوانب الباقية فعارية من أي سياج. أشار كيم، وهو اسمه العائلي كأغلب الكوريين، إلى بناية أرضية عند نهاية مساحة العشب الأخضر، قال ذاك بيت رئيس الجمهورية، وقد تعجبت حقًّا من صغر البيت، وأردت أن أمازحه بطلب مقابلة الرئيس «لولا دا سيلفا»، لكني تذكرت للتوِّ أنه مدعو ضيف شرف إلى قمة الثمانية في سان بطرسبورغ، وقلت لنؤجلها للزيارة القادمة، إذا تجدد انتخابه، وقد تجدد بعد كتابة هذا العمل، ولم تسقط راية الحزب العمالي، بسبب تراكم فضائح الفساد والرشوة في البلاد، والمزاجيات التي تشيع عن فخامة الرئيس وهو الذي أوصله الفقراء إلى الحكم. لم يعرف دليلي ما يدور في رأسي لأنه واصل يشرح: انظر، هناك، وقد أدرنا ظهرنا لدا سيلفا، ترى العمارة الزجاجية البنية، إنها إقامة لأي رئيس دولة ضيف، وهناك إلى جوار مبنى البرلمان ووزارة الخارجية فندق خاص ينزل فيه ضيوفنا الأجانب، أيضًا. هكذا لا تنقلب الدنيا عاليها سافلها، ولا تنقطع حركة المرور، ويختلط الحابل بالنابل بسبب الموكب الرئاسي وما شابه؛ جميع الطقوس الرسمية والحفلات تجري هنا، بينما الحياة تواصل مجراها العادي؛ هل عندكم الشيء ذاته في المغرب أم ...؟ تجاهلتُ السؤال إلى أن عدت أتذكره ونحن نتوقف بالسيارة في شارع لم يسبق أن رأيت أعرض وأطول منه، والغريب في مكان قفر من المارة وأي بناء. علامته الفارقة وجود منصة عالية تتوسطه، مغطاة بسقيفة أعلى، يذهب حول المكان ويجيء جندي بهندام الشرف. لم يكن ثمة نصب للجندي المجهول، لذلك سرعان ما بدَّد مرافقي حيرتي بالشرح؛ إن هذا الشارع كله مخصص للاستعراض العسكري وعروض أخرى مماثلة، وهكذا تبقى المدينة آمنة، ولا هرج ولا مرج وهو أفضل للجميع. طبعًا أفضل من أي حماقة وتهويل وتحويل سير. اللطيف أننا قبل ذلك، وقد استرعى نظري ميدان واسع قبالة البناية الصاعدة كالرمح لمجلس نواب الأمة، لم ألحظ فيه لا أشجار ولا مقاعد، فأفهمني بحركاته الراقصة وكلمات موقَّعة أن هذا الميدان مخصص للتظاهر؛ تأتي وفود النقابات والجمعيات وأمثالها لتعلن احتجاجها بما تشاء من الصراخ والشعارات والمطالب، ما أكثرها، وترسل مناديب بلوائح المطالب، وبعد ذلك تنفضُّ المظاهرة، ويبقى كل واحد على خاطره، بينما المدينة — دائمًا — في حمى من الضجيج وزحامها يكفيها،

فماذا تقول في هذا يا سيدي؟! لم يكن سؤالًا، ولا أنا أحار جوابًا لمثله، ورأسي يفكر في بعيد غريب. أجل، ألم أقل إنني مذ بدأت هذه الرحلة، وسابقات عليها، أسقط في ورطة الفرق، شأن كل الرحَّالة قبلي، وهذا مرض معدٍ ينبغي استئصاله لمن يريد حقًّا التمتع بسفره أو سيزداد غمه.

نقلني كيم في المرحلة الثانية من جولتنا لتفقد جناحي الطائرة، أي الأحياء السكنية، انبهاري بطريقة شرحه تفوق عندي ما أرى. علمًا أنني — فعلًا — أمام نموذج سكني متميز يراعي، في التصميم والتوزيع، المادي والروحي لدى الإنسان: عمارات بثلاثة إلى أربعة طوابق مزروعة وسط المنتزهات، ومتوفرة على: المدرسة، ملعب للأطفال، كنيسة، متجر عام، محطة التاكسي، النادي الرياضي، باختصار كل الخدمات الضرورية. تلاحظ أن المصممين راعوا أن يعيش الإنسان في الطبيعة وهو مغروس في المدينة، يراها حين ينتقل إليها للعمل، أو كلما اقترب من نهر السيارات المتدفق في شوارع مديدة إلى ما لا نهاية. لا أثر لأي تزيين أو زخرف في الخارج، والألوان نفسها باهتة، لكن الداخل مهيب وفخم، يتناغم فيه عناصر الفضاء والمساحة واللون، فهي ما أهَّله المهندسون وهم يصممون الآيات العمرانية الفريدة لبرازيليا، أعظمها بلا منازع الكاتدرائية المتروبوليتانا، والمسرح الوطني ذو الشكل الهرمي.

غير أن الداخل إلى هذه العاصمة الجديدة، وهي تقدُم يومًا إثر يوم، لا بد سيثير انتباهه انتشارها اللانهائي في بطحاء انتزعها التخطيط الهندسي من الأرض، لكن ظل حريصًا على حياتها؛ هكذا جلب إليها كل الأشجار المتوفرة في المنطقة، ووفَّر الأغراس، ونظَّم المنتزهات بعشرات الكيلومترات، ومن ثَمَّ مهما اتسع العمران وتكاثرت الديموغرافية فإنها تبقى مذعنة للطبيعة، أو هذا هو المراد.

برازيليا — في عُرف منشئيها — هي مدينة المستقبل، على ألَّا يرتد ضد الإنسان، لأنه المعني الأول. وحين تكون في مدينة جديدة كهذه لا بد أن تتساءل أيهما يخضع أو يحاول التكيف مع الآخر، هي أم هو؟ ومما لا شك فيه أن الحي هو من يفعل في الجامد، وإن لم يخل من تأثُّر أكيد به. في جميع المدن البرازيلية لاحظت أن السكان لا يعيرون اهتمامًا خاصًّا للهندام، نساء ورجالًا على الخصوص، بسبب المناخ بلا ريب وظروف العمل، فيما تراهم هنا منضبطين لوضع مدينة إدارية، كما أن سيماهم مطبوعة بجدية استثنائية بحكم الوجود في عاصمة الدولة، لكن بلا مبالغة أو تسلط. الدولة هنا ليست بعبعًا، ومداخل مؤسساتها غير منفِّرة كما لاحظت ذلك وقد طرقنا باب وزارة الخارجية، الدولة هنا هي الرصانة لا التخويف والمهابة المفتعلة.

وبرازيليا سكانها — تبعًا لذلك — رصينون، طباعهم أهدأ من غيرهم، نهارها منقاد وليلها مسالم. هي مدينة للعمل، وتكاد تقول للعمل فقط: هل هذه حياة المستقبل؟ لست أدري، إنما إذا نظرت من علٍ إلى ساحة قصية في الجهة الشرقية من المدينة، وظهرت لك صفوف متراصة من الحافلات متعددة الألوان بالمئات، علمت أي علاقة خصوصية يمكن إقامتها في المكان أحيانًا. تلك الحافلات تنقل الموظفين والعاملين كافة من الضواحي، تحملهم منها لتفرغهم في المدينة، وتعود تربض هنا — في جثوم غريب — إلى ساعة نهاية دوامهم. تجدد نقلهم بالآلاف إلى بيوتهم، قُل إلى مضاجعهم، كل مسافر يتعرَّف على حيِّه من لون الحافلة؛ تضيق الهوة بين المتعلم والأمي.

وتبقى المدينة وحيدة في الليل؛ شوارعها مقفرة، جناحا الطائرة المنطفئة، السكنيان نوافذهما، لا يصدر منهما ضوء، قد خلد سكانها إلى نوم عميق. الأشجار أغصانها أراها من نافذة غرفتي إما جاثية، متضرعة للتراب تحتها، وإما مجنحة تهفو إلى نجوم منبثقة في سماء عالية، ما أعلاها سماء الله هنا حتى لتكاد تنفصل عن الأرض، وأنا متعلق بها في غرفة الفندق بمدينة اسمها برازيليا، أبحث تحت نجومها عن نجمة تكون لي وحدي، تسطع في ليلي، ونبقى معًا أو نفترق سيان؛ المهم أن تبقى منيرة في داخلي، على ضوئها أغتدي وأواصل طريقي، أضرب في الأرض ورأسي مشتعل أبدًا بالسحر، حين ألقاه أريد أكثر، وأشهد أني لم أشبع من سحر هذا البلد أريده أكثر.

(XV) نُفاضة الجراب وحسرة الإياب

وساوس الرحَّالة الأخير

شغلتني برازيليا بعد أن تركتها أكثر مما غمرتني وأنا فيها. تجاوزتُ مشاهداتي الأولى، وما يحتمل الإعجاب أو الانبهار يبقى نسبيًّا في كل الأحوال. ما شغلني حقًّا هو فكرة أن تؤسس مدينة؛ فهذا فعل خلْق حقًّا، وليس مجرد تصميم هندسي وحضري يمكن أن تبدع فيه موهبة أو مهارة. في بدء الخليقة سكن الإنسان الكهوف والمغارات انعكاسًا لبدئيَّته واحتماء من المجهول المسيطر. ثم راح يبني وفق توسع هواجسه ودرجة معرفته بما حوله. نحن لا نعرف إلا القليل عن سكن مطلق البشر لأن التاريخ لا يحتفظ — أو يعنى في الأغلب — إلا بالحكام، وهؤلاء يقيمون دائمًا في أبراج مشيدة، همُّهم أن يصعدوا إلى السماء كآلهة، لذلك تتم الإطاحة بهم. منذ وُجِد الإنسان وهو يسعى لتشييد العمران، وجميع الحضارات تثبت ذلك، لصنع المدينة النموذج، سواء في الأسطورة أم في الواقع: إرم ذات العماد، البتراء، إيتاكا، أثينا، بابل، روما، بعلبك ووليلي، وكل فكر ابن خلدون العظيم مداره العمران الحي، ومظاهر وجود الكائن فيه، وكيفية درء الخراب وأسبابه. ومن فلاسفة اليونان إلى الفارابي، لو شئنا، كلٌّ يبحث بطريقته عن كيفية إرساء المدينة الفاضلة، التي لا أعرف إن وُجِدت ذات يوم، أم أنها — في عُرف متصوريها — حلم يراود في المنام الساعين إلى الخير والجمال والسلام.

من المؤكد عندي أن أوسكار نيمير المهندس المعماري لبرازيليا يملك قدرًا لا بأس به من الجنون وأكثر، وإلا كيف نتخيل إنسانًا، فردًا، يُقدِم على تخطيط مدينة بأكملها، حين يدوخ لأي شخص تصميم يريد وضعه لسكنه. المدينة ليست أبنية وفضاء عمل وتنقُّل ومثله فحسب؛ إنها فكرة حياة، ونواة مجتمع، ومشروع مدنية وإنتاج رؤية لعالمٍ بناء

على علاقات اقتصادية واجتماعية ستتبلور داخل المحيط الناشئ. وهذا من المستحيل أن يفكر فيه فرد، أحرى أن ينجزه بعبقريته الخاصة، ورغم ذلك فإن السيد نيمير وُلدت في رأسه هذه النبتة الشيطانية، وبطريقة ما أعطت أُكلها.

الدليل أن برازيليا هي — في عُرف العمران الحديث — مدينة تمتلك كل مقومات المدن، وتتخطاها عتوًّا في هذا المضمار. وهي، من نحو آخر، طريقة أخرى لابتكار العيش والعمل، ومن المؤكد، أيضًا، لابتداع الأحلام. لم لا نقول إنها حلم في حد ذاتها؟ وأن فترة نصف قرن وقليل من إنشائها لا تعدو أن تكون تجريبًا وتمرينًا للحلمي على محك الواقعي. لكنه واقعي من طَرز مختلف، أي لا بد أن يكون هو الآخر وليد حلم أو ينتفي. من هنا، وأنا أجول فيها، رحت أنظر إلى الساكنة بنظرات المتفحص، الباحث عن النادر والاستثنائي الذي لا يشبه ما قبله، وليس له مثله إلا ذاته، لا خلقة طبعًا، لكن سلوكًا، وعقلية، وطريقة عيش.

فجأة انتبهت أنني أفكر وحدي، لا أعير اهتمامًا لما دار في رأس المهندس البرازيلي، الذي طُلِب منه أن يضع تصميمًا لعاصمة الدولة الفيدرالية، فجعل نصب عينه أن ينجز تحديًا معماريًّا قبل كل شيء، تباهي به بلاده الأمم، وهو يعلم أنه يفعل في أرض خلاء. لا أشك أنه أفلح من هذه الناحية، ومشاريع طليعية نراها في مدن رائدة تتفتق من خيال مهندسين ممسوسين بطريقة ما. تفكيري مختلف، وينصرف إلى تحدي الحياة بعد عبقرية المعمار، وكيف يستطيع الإنسان أن يتحكم في الشيء لا أن يشيِّئه. وأنا هنا لا أقصد العودة ولا الإشارة إلى أي بُعد فلسفي مطروق سابقًا في هذا الصدد، وإنما إلى صراع ما ينفك قائمًا بين الكائن والطبيعة، قائمة أو مصنوعة، إما يأتي مجدبًا أو مفلحًا. الحياة تقوم كلها على التوتر، الصراع، على قانون الجدل، والفصل بين عناصرها وتفكيكها من شأنه أن يوجد بنية مغايرة تمامًا تستدعي، بل تنجب — حتمًا — بشرية وعيشًا مختلفين جذريًّا لما نعرف. أرى أن مهندس برازيليا يذهب في هذا النهج، ومساعده صاحب التخطيط الحضري نصير له في الرؤية والتطبيق: هما معًا يقصدان التجديد، لكن بأدوات الخلق الأولى أو بالأحرى معتمدين الطوطم والطوطمية كأصلٍ للإنسان الأول في رؤية الوجود وتقديسه، في خلقه ومن ثَم تشييئه، أي الانفصال عنه.

أي رعب، أي ذهول تَصوُّر مدينةٍ من هذا القبيل: صفوف عمارات متوالية بمقاس ولون وطوابق واحدة، حتى المداخل متشابهة لكي لا يغار وزير من وزير؛ صفوف عمارات بمقاس وممرَّات ومنتزهات ومداخل متشابهة لسكان متشابهين، يدخلون ويخرجون،

وينامون تقريبًا في أوقات واحدة، ويغادرون صباحًا بسيارات وحافلات جماعية — لا تختلف إلا في الألوان — إلى المؤسسات الواحدة، للقيام بأعمالٍ، لا شك أنها مختلفة في الشكل، لكنها في النهاية تتشابه من حيث الهدف المرسوم لها من طرف دهاقنة الدولة، الذين نفترض أنهم يريدون الخير للجميع؛ ثم سوق واحدة يؤمُّها الموظفون والعمال والعاطلون — جميعًا — يتبضعون أشياء متقاربة، وهم كلهم يفرحون للفريق الوطني لكرة القدم حين ينتصر، ويسلخون جلده إذا عثر حظه، ثم يخرجون، يمشون في شوارع طويلة، طويلة، بلا نهاية، لتحقيق النصر المؤزر على الكولسترول العالي وتأجيل السكتة القلبية بسبب المطامح المميتة حتمًا، بلا طائل، هي والمطالب العائلية بلا سقف. أوه، كيف نسيت الأطفال الذين يفقدون براءة الطفولة مقابل وضعهم في أقفاص مثل طيور حديقة إغواسو الأسيرة تراهم يغدون إلى المدارس تقلهم حافلات بزجاج معتِم، ويعودون إلى بنايات نوافذها تدير الظهر إلى الخارج، والرسوم التي عليهم أن يتخيلوها جاهزة في دفاتر معدَّة، وحتى الكلاب مروَّضة لكي تتجنب النباح، أي معنى إذن لكلب لا ينبح، وطفل لا يلعب من تلقاء نفسه، ويبكي حين يشاء ويفعلها في بنطاله، أيضًا!

ليست هذه هي المدينة الضد للأخرى التي أحلم بها، لكنها إحدى صور برازيليا، التي يراد لها أن تعمَّم، إنها تتعمم، وها نحن نرى الإنسان تدريجيًّا يفقد إنسانيته، أعني تحكُّمه فيما أوجد، وتحوُّله إلى عبد له. لكن المثير حقًّا أن تجد مثل هذا التحوُّل يلحق بلدانًا لا يخلق فيها إنسانُها شيئًا تقريبًا، وإنما يخضع لما يُستورَد أو يتأثر به عند المتقدمين الناهضين، ويتصرف كما لو كان ينتمي فعلًا إلى العصر الحديث، الذي يمكن أن نجد ألف تعريف له، إن شئنا، لكننا لن نختلف بتاتًا في القول إنه نقيض البداوة الفجَّة والتخلُّف بأشكاله القُح، والإمعان في الهجنة حدًّا يضيع الأصل، ولا يهدي بتاتًا إلى صراط المدنية، اعتبرناها مستقيمة أو ضالة.

المدينة توجد وتكبر بالإنسان؛ هو الذي يعمرها ويعطيها روحها، وإليه نذهب أكثر مما نقصدها. أطلال الشاعر الجاهلي هي طيف الحبيبة وأثافي قِرى الضيف بالأمس، لا الحجر أو الرماد. برازيليا ستصبح مدينة من طراز جديد حين سيكبر فيها جيلها الذي يعي أنه جديد تخلَّص من تربية الجيل القديم، وهذا يحتاج إلى وقت لن أدركه. وهذا أفضل؛ لأني ببساطة أحب مُدني القديمة، وأحنُّ إليها دائمًا، وأرى العالم يضيق كلما شاهدتها تتفسَّخ وتشيخ برذالة، كالدار البيضاء، والقاهرة، وبيروت، والجزائر العاصمة، ويا حسرتي على بغداد. أنتَ لا أحد بدون مدينتك، بلا المكان الذي تنتسب إليه، هو ليس

ضرورة مسقط رأسك، ليكن مهوى الفؤاد أفضل. مُدني الآن صارت موحشة، أي فارغة من الأحبة، انحسرتْ دونها ظلالُ الماضي، أمرُّ فيها شبحًا غريبًا يتعثَّر في خطوه من شدة دهشة ما يستغرب لما يرى، ولم يعد يُرى. هنا في برازيليا لا أعرف أحدًا، لا أفتقد أحدًا، ربما لو عشقتُ واحدة أبقى أبدًا. تخيفني مشاريع المدن المرسومة على الخرائط. الرباط محاطة اليوم بهذه المشاريع، هي ومدن أخرى في العالم. مصالح التعمير تفخر بهذه المنجزات، والبشر يحتاج أيضًا إلى مزيد سكن كيفما كان. لأمرٍ ما تبدو لي هذه المدن الافتراضية مثل برازيليا، أي عمرانًا بلا روح، أجساد الناس هي ما يوجد فيها، أما أرواحهم فهي إما ضاعت أو ستسكن في قرن قادم. عندما يصبح للمكان رائحة، ووشم، وندوب، وذكريات، ويتردد فيه — على الخصوص — صدى آهات العشاق.

كانت الآهات خلفي، ومن خطو العودة، وأنا في مطار ريو دي جانيرو من جديد، تنهنه الحسرة في جوفي، أحس بها رعشة في العظام. تعجبتُ لحالي. عند نهاية كل رحلة أتعجل الرجوع إلى سريري ومكتبي وعاداتي، بها يستقيم عمري وشخصي، فما بالي الآن أدفع حقيبتي للتسجيل، وأمتطي سلم الطائرة على مضض. أعلم أني لم أشبع من البحر، هنا، من الجبل، الغابة، أعراس الأخضر، ألوان وتغاريد الطير، مهرجانات الليل، تفاصيل النهار بين الضوء ونكهة التوابل، تقاطع الوجود بين الحقيقة والأسطورة في كل خطوة تمشيها، ورقصة تؤديها، جسدانية العين، والعين تُجسْدِن كل ما تراه، منفتحًا على شبق الحياة، وألق البحر تشمُّه من حفيف ذراع لمسك، ولحظ صعقك، والغضارة المعشوشبة سيقانها تنام في السحاب مُزنًا، كل صباح حين تشرق الشمس تراها تذوب عرقًا كادحًا من عضلات العمال والفلاحين في المزارع والموانئ، عيون القراصنة والنخاسين والمرابين لا تفارقهم، والعبيد — رغم أنهم صاروا أحرارًا — ما زال القيد من جراحهم ينزُّ، وأنا بعدهم صرتُ أسيرَ هذا البلد.

نعم أسيرًا عدت من أيامي البرازيلية، عشرين يومًا ونيفًا، لم أشبع من شيء، وهل يشبع أحد من «حديقة الله»، إنه مجاز عندي، ما في ذلك شك، ولكنه عند القوم اسم حقيقي، وحقَّ لهم ذلك؛ فالله وهبهم كل ذلك السحر، وهم له ممتنون صباح مساء، بالصلاة وعشق الحياة وحب الوطن؛ الأرض ليست إلا تجريدًا بلا وطن، وهؤلاء القوم الذين سعدت بزيارة بلدهم، قارتهم بالأحرى، يثبتون كل ساعة أنهم جديرون بوطنهم، بلغتهم وثقافاتهم، بتاريخ يبدأ من بخار الحساء إلى غنج الزليج. أما في الأمازون فهو يخبئ أسرار البشرية الأزلية حيث مثوى الأسطورة والأبد، ولا ينتهي لأنه يشعرك أنه

في كل لحظة سيبدأ، البلد الفتي بدأ قبل خمسة قرون فقط، رغم أن لحمه مدبوغ بكل القرون الآفلة، وهو يتقدم بجسد فتَّاك، ويرف بأجنحة فَراشِه كملاك، جوفه ذهب، وقلبه لهب، وشعبه حسن وطرب، ولذلك رغبت أن أبقى هنا، ليس إلا هنا، رغم أن العمر أجمله مضى، واحسرتاه أين مني ذاك الخبب!

هل أقول إنه كان مقدرًا لهذه الرحلة — النزهة — أن تستمر أطول، أم أكظم الغيظ الذي حزَّ في نفسي، الحسرة، الإحساس الملتبس إثر نهاية كل سفر، خليط من تعب ومشاعر متضاربة الملتبس؛ أم أصرِّح بالحقيقي الذي لا لبس فيه، تركته للنهاية كي لا أشوش على صفاء المرئي، أقصد أنني، ومنذ منتصف الطريق بتُّ موزعًا بين استقرار وانهيار، بناء وهدم، حب وكره، قوة وانهيار، حياة وموت، باختصار. أعني أن حرب التقتيل والتدمير الإسرائيلية على لبنان كانت قد بدأت، استأنفتها حكومة يهود أولمرت في ١٢ يوليو بالضبط. وعلى الرغم من أنني لم أملك وقتًا للتليفزيون، ولا لأخبار الخارج عامة، إلا أن هذه الحرب العدوانية كانت في داخلي؛ كل بيت يُقصَف في لبنان هو جدران قلبي وسقف رأسي، وواحد من أعمدة أُمَّتي، ولم تكن الصحافة البرازيلية غافلة عن الهمجية الإسرائيلية، بل تتابع مسلسلها الدموي، بتأثير من العرب المقيمين، ما في ذلك شك. ولكن، وبقوة، من أثر موقف برازيلي عام، يتغذى من موقف آخر مناهِض للهيمنة الأمريكية على القارة الجنوبية؛ علينا ألا ننسى أن البرازيل جار حار لفنزويلا شافيس. أعترف بأني عانيت من فصامٍ نفسي صار ممضًّا أحيانًا، وما أكثر الشيء بهت في عيني، أو فتر طعمه لهذا السبب، لكنني حسمت أمري أخيرًا بنزعة المتفائل، بأن إرادة الحياة أقوى، وطعمها أعذب، وأن العرب، الذين قطعوا البحار والمحيطات ليبنوا أمة ونهضة كالبرازيل تضاهي أقوى الأمم في كل النواحي، قادرون على ردع إسرائيل واسترداد حقوقهم، والاستمتاع بعد ذلك مثل كل شعوب الأرض بنعمة العيش بكرامة وسلام وأمان، ولكم السكينة والطمأنينة في الحل والترحال.

باريس في ٠٥ / ٠٩ / ٢٠٠٦م

أيام لبنانية

(من يباب)

تعال لتلوذ بظلِّ هذه الصخرة الحمراء،
وسأريك شيئًا ما،
ليس ظلك في الصباح يمشي وراءك،
ولا ظلك في المساء ينبثق للقائك،
سأريك فزعك في قبضة من غبار.

ت. س. إليوت
من قصيدة «الأرض اليباب»
مقطع «دفن الموتى»

بمثابة تقديم ثان

يرتاح المسافر عادةً بين رحلتَين، أو تُراه يستأنف سابقَه وقد غنم لذَّة التجوال، وآنَ له أن يعود إلى سالف العهد بالعمل لِكسب العيش بعد أن حطَّ الرِّحال. وبالنسبة لمن مهنته التدريس، فإن فصل الصيف يتيح مزيدَ وقت، ويغري بالمكث خارج البيوت وبعيدًا، مؤقتًا، عن دبيب الحروف وجدل الأفكار. قبل أن أقصد بلاد البرازيل كان المشرق العربي وجهة مرسومة في ذهني، وتحديدًا الأردن ولبنان. في الأول لي أصدقاء لا بد من صلة الرحم معهم، خاصة وهم في ضنك نفس وعيش. أما الثاني فهو صهر لي وحبيب، فيه أهل، وتستدعيني إليه ذكريات واستيهامات، بيروت أمها، لا يشيخ معها القلب حتى لو وهن الجسد.

ورغم أني باعدت بين الوجهتين، فإني وأنا في الرحلة البرازيلية صرت، بحكم عوادي الدهر، غارقًا في الحالة اللبنانية. هي، في الواقع، وضع العدوان الشامل الذي شنَّته إسرائيل على بلد الأرز، بدءًا من ١٢ تموز (يوليو) ٢٠٠٦م، ليستمر ثلاثة وثلاثين يومًا بعدها، تدميرًا وقتلًا، في الجنوب خاصة. أفدتُ من زيارة الأرض الأمريكية الجنوبية، حقًّا، واستمتعت، كما عدت محمَّلًا بما سطرتُ بعضه فيما سبق من أوراق، وبعضه الآخر لَكَم أحب أن أعود إليه في مستقبل الأيام. لكنها، ويحها، كانت متعة منتزعة من بين الأشلاء، منقوعة في دم الأبرياء، ورُواء الذات فيها لا يهب الإرواء، أو هو مكابدة فوق لظى الأهواء.

لذا، وقد عدت إلى باريس، صرت أنتظر متى يتوقف العدوان على لبنان، وتصبح ريح السفر إلى الشرق مطواعًا، لأشدَّ الرحال — من جديدٍ — نحو ما ينبغي أن أقف بنفسي، على ما رأته العين مهشمًّا، مدمًّى ومشظًّى، لا أعرف هل لأقتنع أكثر، أم لأزداد غضبًا، أم

لأن وخز ضمير لاحقني وأنا أجوب أصقاعًا أخرى، بينما ثمة عرب أرضهم وأجسادهم تصير إلى يباب؛ وهكذا فإني، والحرب تضع أوزارها، والمقاومة اللبنانية تدحر العدوان.

ركبت الطائرة قاصدًا الأردن أولًا للغاية المذكورة، وعزمي أن أطرق بيروت بعده مباشرة، وليس ببالي تفكير الرحلة، أو ما يمكن أن يحمله التنقل بين الأمصار من مفاجآت أو طرائف أو يحتاج جدارة إلى التدوين. ولقد نفذت خطتي، فاضت فيها مهجتي أحيانًا ولعًا تارة، وحزنًا تارة أخرى، وبالإحساسين، وبين ما تقلبت فيه خلال هذه السفرة العربية المشرقية، أحببت أن أطلع القراء على ما وجدتني مقبلًا على وصفه وسرده، تتنازعني في ذلك مشاعر وهواجس وأفكار شتى، ويهمني أكثر منها ما تراه العين هي عندي في هذا المقام وحدة القياس الأولى وما يليها ثانٍ في المقام. ولا أكتم القراء، وأنا مقدم على هذا التدوين الرحلي الجديد، أني سجين إحساس بمفارقة كيف أني سأنتقل، وأنقله معي من عمران الرحلة الأولى إلى ما عنونته — إجمالًا — باليباب، ولست في هذا واقعًا تحت تأثير الشاعر الأمريكي الأنكلوسكسوني الكبير ت. س. إليوت الذي يتماهى يبابه مع زمنية ذات خصائص حضارية متمايزة، لها جذور ثقافية فلسفية وأبعاد سوسيو-تاريخية.

لكن خاصية الانهيار تبقى مشتركة بين القطب الإبداعي والقطب الإنساني، وهي التي يمكن أن تولِّد نتيجة واحدة أو متقاربة رغم تباعد المسافة، وما يظهر من تفاوت الثقافة والمعاناة. لذا نرى أنه لم يكن صدفة أن يعرف الشاعر العربي اللبناني الكبير خليل حاوي، وهو الإليوتي المنزع بامتياز، نهاية الانتحار المفجعة في «كرشندو» السمفونية الجنائزية للحرب الأهلية اللبنانية.

على أن يبابي ليس حطام بيوت وحسب، بل هو انهيار أشمل يمتد إلى ما هو أقوى وأنبل، أو يفترض كذلك، إلى الإنسان وحلمه وقيمه، ما كان عليه ولن يصبح بعد. كأن العرب حدثوا مرة واحدة في التاريخ، ولن يتكرروا إلا على صورة نقيض هي البهاء والصواب؛ الصورة التي تجعل واحدًا مثلي، وُلِد على ساحل «بحر الظلمات» المسمَّى — حاضرًا — المحيط الأطلسي، يشتاق لعقبة بن نافع جديد يعيد زهو الفتح، يحمل إليه نفحات الشرق الأولى، ويعيد ما كان عليه العرب من مجد تليد. لكني إزاء ما رأيت في المشرق، في جزء منه فقط، ومشاهد اخترتها بعينها، وهذا ما يحدث عادة للمسافر، وفي الكتابة، السردية خاصة، القائمة على مبدأ الانتقاء، لن أقف إلا على ما يشدني إلى هذا اليقين، شكلًا ودلالة، وأنا أحاول أن أستجمع نفسي أو كلماتي متراوحة بين الجمر والرماد. ومؤكد أني لن أخرج معافًى، ومن يبحث عن السلامة لا يبرح شبرًا بيته، أو يسافر

بدماغه في الأحلام والأوهام. لكن المفارقة أن الشرق بقدر ما هو واقع صلد، هو — في آنٍ — عالم طافح بالأهواء والتخيلات، لا لأن الغرب صنعه وعشقه على هذه الصورة، كما يشهد بذلك الاستشراق العجائبي، وإنما لأن الخيال يقيم في نسغ تكوينه، ولأننا — نحن أبناءه — لا نطيق الوجود خارج هذه المقابلة/المعادلة، نعي أنها الشق الثاني لوجودنا قدر ما تعوض عن عجزنا وخساراتنا؛ هكذا نحن فرسان، وفحول، وشعراء وجوَّالون في الآفاق، نزعم أننا نبحث عن شيء، وما نحن إلا نبحث عن معيشٍ ورؤًى، إما فاتت ونريد أن نسترجعها سدًى، أو «نحاول مُلْكًا أو نموت» ولن نعذر.

لذلك في كل رحلة إلى مشرقنا العربي يسبقني وجداني، أعرف أنه يشوش عليَّ الطريق والتماس الأمور كما هي، لكن من شبَّ على شيء شاب عليه، وبدونه سأصبح آلة تصوير لاقطة فحسب ينقصها حسُّ التوجيه ولمعة الإضاءة الخاصة. وأخاف أن يكون هذا الوجدان — وهي بالمناسبة لفظة مثقلة بالمعنى، وإن شغلت الذات منها المركز — هو إبدال الموضوع، وإن تحايلت على تجنُّب ذلك بطرقٍ شتَّى، لا أريد الإفصاح عنها، احترامًا لذكاء القارئ، أولًا، واستدعاءً دائمًا لمشاركته لي في طريق، اعتُبر أن مرافقته فيها تزيد في تعبيدها وتهوِّن من مشاقها، ولا رحلة بدون مشقة، تمامًا كما لا معضلة في الحب بلا لوعة وفراقٍ.

غير أن هنالك شاغلًا آخر لا مناص من إثارته في مدخل سرد هذه الرحلة الثانية، لصيق بالشاغل الوجداني ومفارق معه في آنٍ؛ مؤداه يا سادة، أن من يسرد الرحلة هو عينه ذاتها، وإلى حدٍّ موضوعُها، بما أنه يرصد ويعلق بعينها وحافزها، فعلامَ الاعتماد، وإلامَ المرجع في الحالين؟ لنقل إنهما يتبادلان الدور، تارة، وأخرى يتماهيان، والمنظور هو الفيصل في التعيين والتصنيف. لكن حتى إن قبلنا بأن للوجدان سطوة ما بغلبة حضور الأنا، لنعلم أنها أنا مركَّبة، مزدوجة، مثل الشرق تمامًا، واقع وخيال، حلم ومنال. ثم يباب، يباب، كأن قدر أمتنا، منذ نكبة فلسطين في ١٩٤٨م، ألا تعيش إلا في الفقد والأحزان، ألَّا يكابد أبناؤها، ولا يكتب كُتَّابها، إلا جريرة الهزائم والخيبات، فإن لمع شهاب فرح في قولهم فقد قبسوه من مجرَّات أبعد، لا من سماء البلاد. لا بأس، ربما نحن منذورون للمأساة اليوم كي يعانق أبناؤنا نيازك العيش الرخي، غدًا، لا بأس إن كان ذاك كذلك، وفي انتظار الفرج، بل وحتى ما لن نراه نحن، يبقى القول الرحالة أفضل من خمول الحس وغفوة الإحساس، وأعظمه «والقلم وما يسطرون.»

١

وصلتُ إلى مطار عمان (١٠ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٦م) قادمًا إليها من باريس. كانت وجهتي الأبعد والأطلب هي بيروت، بالأحرى لبنان كله، بعد تعرضه لعدوان إسرائيل. في مطار العاصمة الأردنية التي زرت من قبل مرات، ولي فيها بعض معارف وبضع ذكريات لم أقضِ — عمليًّا — إلا دقائق بين ختم الجواز وتسلُّم الحقيبة، والمغادرة من ثَم إلى المدينة. فوجئت — حقًّا — بسرعة الإجراءات قياسًا بما كانت عليه من قبل. خرجت من الطائرة، وخضتُ في ممر طولي أفضى بي إلى آخر، ومنه اتجهت إلى حيث عُلِّقت لوحة كُتِب عليها «العرب»، خلفها حاجز خشب وراءه شرطي الحدود الشاب بلباس مدني، ابتسمت له وردَّ الابتسام وقد أصبح جوازي تحت نظره، وقرار ختمِه أو صدِّي بيده، وفي رأسي أكثر من توقع موصول بماضٍ قريب وبعيد.

كنا ننزل هنا قادمين من المغرب أو من عاصمة أوروبية، نحن المدعوين عربًا، فندفع جوازاتنا لما نظنُّه عملية ختم روتينية، خاصة وهي تحمل تأشيرات لم نحصل عليها إلا بعد التأكد أصلنا وفصلنا، لكن نكتشف أن كل شيء يبدأ، سيبدأ في المطار، وأفضل ما يمكن أن يتحلَّى به المرء هو الصبر وترويض الانتظار. يحملق فيك الشرطي مبهوتًا كأن شرًّا مستطيرًا حاق به، وبنبرة لا تخلو من حدة يسألك من أي برٍّ تسلطت على هذا البلد؟ ولماذا تأتي إلى هذا الصقع من الأرض؟ ومن تعرف فيه؟ وصولًا إلى متى ستغادره أنت الذي لم يلجه بعد. وهو — طبعًا — لا يكاد يعبأ بأجوبتك، وعيناه بين الفينة والأخرى تثقبان وجهك وتمتصان ما تبقى فيه من دم. وأخيرًا؛ وإذ، أن قلَّب جميع صفحات الجواز، ولم يبق مزيد، تقول ها أفرجت وسيضع ختمه الميمون لتدخل أخيرًا إلى جنات عدن، إنما عبثًا. يقف مسئول الحدود ويقول لك انتظر، أي اغرُب عن وجهه وقِف جانبًا لأنه أرسل جوازك إلى جهة أخرى أعلى منه لتدرس حالتك، وهي من يقرر أبشرٌ سليم أنت أم شاة جرباء. والحاصل أن «أبو المخابرات» هكذا يسمونه في المشرق العتيد، يُطل بهامته، ويعيد التفحص والسؤال، لعله يهز فيك مكمن ضعف فتستسلم في نهاية المطاف لحاسة شمِّه التي تُوقِع بعتاة المجرمين والإرهابيين والمتآمرين على أمن الدول العربية وسلامة حكامها من الخليج إلى المحيط، وبالعكس. ثم ادخلوا عمان بسلام آمنين، لكن هل تخرجون منها آمنين كما دخلتم؟ لا أحد عنده علم يقين، حتى ولو كان الداعي هو السيد فخري قعوار رئيس اتحاد أدباء الأردن، قال لك: لا تجزع من شيء؛ إن الله والأمن معنا، كن على يقين. تأتي وتحضر مؤتمر الأدباء العرب، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة والكلام عن الأدب، والله

العظيم لا حديث في غير الأدب أو ما شابه مما لا يقضي الأرب، وتحل ساعة الإياب، وها أنت وصحبٌ عربٌ في المطار، وخلف الشباك يفحص رجل الحدود جوازاتكم، وها هو يشتبه فيكم، وأنتم أربعة لا واحد، أي أنه بمثابة تنظيم، ويتطاير الشرر من عينيه، يذهب ويجيء من مكتب إلى آخر، ويُعلمكم بأنه ليس بإمكانكم المغادرة أيها السادة الأدباء «سابقًا» حتى إشعار، وقضيتم وقتًا تنتظرون — سدًى — أن ينجدكم قعوار، حتى زهق الباطل مؤقتًا، ووصل فرمان صاحب القرار!

قدمتَ جوازك فنظر إليك الشاب محييًا واكتفى بالسؤال: أين ستنزل؟ فأخبرته — صادقًا — بعنوان؛ على الإثر ختم، واختتمت الشوط الأول في رحلة المشرق مع الوصول إلى الأردن، أرض الأنبياء. كان مطار بيروت قد قُصِف، وإسرائيل بعد إعلان الهدنة فرضت حصارًا بحريًّا وجويًّا على لبنان، فلا سبيل إلى الوصول — جوًّا — قبل أن يرفع الحصار تدريجيًّا. وقلتَ: البر سالك إلى لبنان بعد عمان، وإن لك فيها مآرب أخرى؛ إنما كيف، وبأي ثمن، لعله رغم ما تغري به السجعة مما تشيب — لذكره — الولدان.

٢

قلت إني لم أكن حديث عهد بعمَّان، وعدا مناسبات ثقافية محض، فقد صارت معبرًا لا محيد عنه بعد؛ إذ ألمت الكارثة بالعراق جراء فرض الحصار عليه إثر حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠م، فاستباحت قوة الحلفاء سماءه فيما منعت غيرها من الطيران، ولم يبقَ سبيل للوصول إلى بغداد غير المملكة الهاشمية، أصبحت فعلًا محجًّا لأفواج من عرب ومن عجم للذهاب إلى أرض الرافدين، فانتفع من وراء هذا أناس، وازدهرت تجارة، وراج نقل، وثار هرجٌ، أيضًا، وصحَّ، أكثر من أي زمن آخر، المثل السائر: «مصائب قوم عند قوم فوائد.» حوصر العراق، ولكن بقي على حاله في استضافة الأشقاء إلى المؤتمرات، ومنهم المغاربة. ولقد كنت من بين أوائل حلُّوا بالكرخ والرصافة لما أوفدتني صحيفة «المحرر» الاشتراكية المغربية لإنجاز تحقيق شامل والنار لَمَّا تنطفئ، التمست فيه الطريق للوصول، ورأيت الأشلاء ودخائن الاحتراق في الأجواء بعد، ودخلت بغداد والجسور والبنايات الحكومية منهارة، فكان ذلك من أقوى ما رأيت — حتئذٍ — من أشكال الدمار. وحين طرقت البر مرارًا صارت لي خبرة بالنقل البري، وبمحطة العبدليِّ على الخصوص، وهي تغلي بالسيارات والحافلات إلى كل اتجاهات الأردن وعواصم الشرق،

تأخذك إلى الشام وتركيا والعراق والمملكة العربية السعودية، ولن تعدم مجازفًا يعرض عليك الوصول إلى الهند والسند.

تقع المحطة في منطقة العبدلي في أسفل منحدر نازل من أعلى عمان الحديثة، ولتكون بداية امتداد منحدر جديد تحسبه — إذا نزلت فيه — لا ينتهي، يصل بك في الأخير إلى منطقة وسط البلد، أي عمان التاريخية أو جزء منها. في المحطة خليط من بشر، وجوه وقامات وأعمار وهندام، لأقوام ينتمون إلى جهات مختلفة، لن يفوتك أن تلاحظ غلبة البداوة عليهم، يطوف بالجميع صرَّافون وسماسرة وشحاذون، فلصوص ومخبرون، أيضًا، يتشمَّمون الغرباء. لا حاجة لي بهؤلاء جميعًا، وأنا نزلت هنا لغرض محدد، أن أتعرَّف على السيارات التي تذهب إلى الشام وإلى بيروت مباشرة، فهذا أفضل لي، وسريعًا تعرَّفت على الأوقات والأسعار، إنما على وجه التقريب، فالضبط من عند الله، هذه هي العملة الثقافية هنا، وتعال مبكرًا في الصباح ونرى. قررت قضاء بضعة أيام هنا قبل تنفيذ المشروع، وأملي أني حين أصل سأجد ضجة الحرب أخف. رغم أن عمان من بين أكثر عواصم الدنيا ضجيجًا، وسرعة جنونية في السير حتى لا إمكان لمرور المشاة؛ فإنك تألفها في النهاية، أو تتناسى صخبها الصاعق، وطابعها الهجين بين البدونة والحضرنة، وتحب أن تفكر وتنال الأفضل غاضًّا الطرف عما لا يعجب في انتظار أن يتحسَّن. لكن هذا لا يمنعك من التفكير في حال المدن العربية كلها انطلاقًا من مكان واحد. ويصبح التفكير إشكاليًّا وأنت تضع نصب العين نموذج المدينة الغربية. أما إن كنت تعيش في هذه المدينة بالذات فالخطب في باب المقارنة أعظم، وعندئذٍ لن يظهر لك إلا العيب أو ندوب على الجدران بعد أن تفشَّى القبح، وفاح العطن، وتهالك ما كان من سالف العمران. لكن وشم الزمن إذا كان مثار أسى فهو في الآن نبع حنين؛ لذلك تحب الضعن بعض الوقت في المكان القديم، ترى المدينة تُسامِت النجوم في عُلُوٍّ، وبناياتها العالية ناتئة كأنها أظافر الجبال، وشبابيكها المضاءة مثل ضروع تسقي الزوار — مثلي — حليب التاريخ، والليل الكتوم في الحواري الغافية يفوح بأريج الياسمين المعلق. عندئذٍ لا بد أن تنسى مصير الهلاك الذي يلحق الأرض الفانية، حتى قبل الأوان.

في الصباح يذهب كلٌّ مستيقظ إلى المغسلة ليفرك عينيه جلبًا للصحو، وأنت تدفع ذراعك لتقع تحت أول بقعة شمس، تعود تتشمَّمها سريعًا لأن فيها رائحة الشرق، التقطتها مباشرة من الشمس. وفي الخارج توسِّع خُطاك لتتناول أكبر كمية من الضوء الساطع، رافعًا وجهك صوبها قبل أن تحمى عينها، لتلفحك، فليس لمثل اللفح هنا نظير. وإذا

كان الأوروبيون يميزون مدنهم بضباب لندن، مرة، ورمادي السماء الباريسية خريفًا، مرة أخرى، فعمَّان تُعطاك غادية على وجهها وشاح أبيض غير منظور، لكنه شفاف دائمًا؛ يترك الخيوط البلُّورية تدفئ جلدك إن قدمت من برودة الشمال، وتنعش جوفك إن وصلت إليها على راحلة الشوق والنصب من صهد الرمال. هنا ستجد من الصنف الأخير كثيرًا، وتروح تقلب الأنظار طويلًا في العابرين بينهم وجوه مقدودة من الصخر الأسود للجهة الشرقية، وفيهم من لهم عيون الصقر، منهم من يمشي أو يجلس ترافقه أو تظلِّله سحابة لا مرئية، لأنه ببساطة سبط الأنبياء. أنت تستنشق المكان، له رائحة شأنه شأن الإنسان وأكثر، تبقى تحملها في أعطافك وتلافيف الذاكرة، ودائمًا في حنايا القلب كلما شطَّ المزار. لم يبكِ شعراء الجاهلية الأطلال، بكَوْا الزمن الذي لن يعود؛ جمراته متقدة — بعدُ — في الداخل، والأثافي رمادها سفَّتها الريح في الخلاء. عجيب أمر الأطلال؛ على قِدمها باقية، محطة العبدلي باقية، وكم مرَّ بها من مسافرين، محبِّين، حزانى، سعداء وأشقياء، الرابحين والخاسرين على السواء. لعلهم جميعًا صاروا إلى زوال.

وفي سنوات خلتْ قصدتَها تبحث عن سيارة تقلك إلى بغداد، وجهُها يومئذٍ صفائح أنقاض، ذهبتْ يا صاح بددًا، أين منها إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد. ها أنت تقصدها اليوم تبحث دائمًا عن سيارة لتقلك إلى أرض عربية أخرى ليس لها هي الأخرى غير الخراب من زاد ومعاد. أَوَلَم يتبدَّل أحد، شيء، بين أمس واليوم؟ أما زلت تغذُّ السير بذاك العناد، أم تعاند فقط لوجه البقاء بلا قيادٍ؟ بلى، كثير، طبقات الأرض العربية منضَّدة على الوجه ترسم خريطة تجاعيد الخراب الآتية. كلما أعطيته للمرآة كي تحلق ذقنه لمحت عدوى التفسخ، وأنت وراءه، لتتبع خط الشقوق، هي تسري من خط الطول المغربي إلى خطوط العرض في المشرق، وأنت كأنك تريد أن تلحق بالانهيار مخافة أن يخفوا عنك الأثر، ويعود كذب العمران والسلام مُزبدًا فوق الشفاه، وتزدحم في محطة العبدلي دائمًا قامات المسافرين إلى أمسهم، إلى غدهم الأعمى، منهم الغادي حتى لا نهايات الزمان.

سألت نفسي ألا أكون واحدهم، وإلا كيف أفسر شتات الجسد من بلد إلى بلد، وقبض لقاء النفس وهمٌ — كان حلمًا — وأي حصيلة غير أنْ أواصل الضرب في الأرض لعلِّي أسترجع صورتها من خريطة الأطلال الجاهلية وصولًا إلى أعمدة الجامعة العربية الهاوية. أعرف، لا خولة تنتظرني ببرقة ولا في ثهمد، ولا عندي — وقد غرق البحر الذي كنا سنُغرِق فيه أعداءنا — أي ملاذ. بالأمس فقط كنت شجاعًا، مقدامًا، مقدوحًا بنار

الكشف والانبهار، والآن، طريقي تقوم فوقها حواجز الخوف، والترقُّب الحذِر، والشك واقفًا على حدود الانهيار بألف سؤال. لا جواب، طبعًا، لا قرار غير تركيب مسافة ثانية وعاشرة لتكرار السؤال المحال: مَن أنا دائمًا؟ ماذا أريد بعد كل الذي أردت، سواء أخذت أو تهت؟ أم أني، وطوفان المنايا حولنا عائم بعد انكسار ألوية النصر، وانفضاح السر، أن الإنسان العربي في هذا العصر حقًّا لفي خسر؛ فقلت، لا بأس، استعجل الزوال. وقلت لا بأس، أيضًا، من زيارة أخيرة، أمس إلى ليلى بالعراق مريضة، واليوم إلى دار لبنان بعد الخراب الجديد، نبكي فيها الديار كما بكى ابن خدام، وقد حاولنا ملْكًا ومتنا، ووالله لن نعذرا!

٣

السادسة والنصف صباحًا، وكما طلب مني مسئول وكالة النقل، وصلتُ إلى مكتبه في العبدلي بالدقيقة المضبوطة، تحضر في هذا الوقت وستجد ركابًا غيرك، وننطلق إلى بيروت، وعمومًا كلما حضرتَ باكرًا فذاك أفضل. نعم سيدي، ووجدتني الأول، وبعد ساعة جاء الثاني، وفي الثامنة قال السائق، وهو كما سيتبيَّن قائد، سنترك المحطة لنأخذ مسافرين اثنين من سكنهما مباشرة. وانطلق يخوض في شوارع عمان تضطرم حركة السير من «وشٍّ» الصبح. نهبط المنحدرات، نصعد التلال، إلى أن وصل ليجد مسافريه، لكن أمتعتهم بحمل الجبال، وبعد تفاوض ركيك، لم يُفضِ إلى شيء، شتمهم وشكاهم إلى الله أن يأخذ فيهم الحق، مما اضطرنا إلى العبور عبر المحطة، حيث منَّ الله علينا براكب «لُقطة» وفهمنا أننا، لنغادر للتوِّ، علينا أن نكمل ثمن مقعدين شاغرين، فالأصل عنده على وجه الحق، لا كما كذب الوكيل، خمسة مقاعد للسيارة.

يشفع لسائقنا خصال عديدة، أهمها في السفر أن عربته جيدة ونظيفة؛ هو بدوره نظيف، حليق؛ أكثر مَيلًا إلى الصمت لا ثرثارًا مثل حلاق؛ منتبه إلى قيادته، مرتاح فيها، غير مشدود الأعصاب أو متوتر مثل أغلب السواقين يحاربون طواحين الهواء، والحق أنه — فوق كل اعتبار — رجلٌ مهذب وخدوم. ستنفعنا الخصلة الأخيرة — على الخصوص — في تسهيل بعض إجراءات الحدود الأمنية والجمركية، فباسم الله ما شاء الله سيتبيَّن أنه للوصول من الأردن إلى لبنان، عبر التراب السوري طبعًا، في مسافة تقل عن ثلاثمائة كيلومتر ستحتاج إلى التوقف في عشرة مواقف، دعك من الحوانيت، وبيوت النظافة أحرى أن تُسمَّى نقاط القذارة، ومثلها كثير.

في المركز الحدودي الأردني «جابر» أخذ الرجل جوازاتنا ووجَّهنا — مثل تلاميذ في رحلة دراسية — إلى الخانة المطلوبة: الأردنيون، السوريون، الأجانب، العرب. وقفتُ في الممر الفارغ لهؤلاء من غير أن يدوخ رأسي بهذا التقسيم، فقد وطَّنت نفسي بعد طول مران، وتنقل في أرض الناس، أن آخذ أمورهم كما هي بلا تفلسف ولا صداع، ما دمت سأعود في النهاية إلى ما أعتبره نسقًا طبيعيًّا لحياتي. دفعت جوازي إلى ولدٍ بوجه صغير حقًّا، تحسبه يتدرب لصغر سنِّه. ألقى عليه نظرة وسألني، عيناه تتقلبان بين الورق وملامحي: حضرتك من أصل مغربي، وهو لم يسأل في الحقيقة لأنه وجَّهني إلى زميلين له من عمره الفتي، تفحَّصا — بدورهما — جوازي من غير سؤال، لكنهما ما لبثا أن طلبا مني شيئًا لم أعهده في أي مطار وإن سمعت عن استحداثه، وكنت أحسب قبل أن تُخضِع الولايات المتحدة الأمريكية القادمين إليها له، أنه خاص بالمجرمين أو المتهمين حتى تثبت براءتهم ومن في ضربهم. طلب مني أن أبصم على آلة خاصة بالبصم، عبارة عن زرٍّ تضغط عليه إبهامك بسرعة وينتهي الأمر. طلب مني ذلك بآلية، أي من غير أن يفكر أن هناك من سيعترض على هذا الأمر لأنه غير عادي، أو استثنائي، وقبل أن أفصح عن استغرابي أو استنكاري كنت قد انصعت، ما دام شاغلي الأساسي هو أن أقضي حاجتي، ولأني افترضت وجودي في مطار أمريكي وسأضطر حتمًا لتنفيذ الأمر، عاجلًا أو آجلًا، سيعمم هذا الإجراء؛ بصْمَتي موثَّقة في بلادي، ليوثِّقوها، إذن، في الخارج أيضًا، وجميع مصالح الأمن ومكافحة الإرهاب، ابتداء من هذه اللحظة، ستعرف أو ستطمئن إلى سلامتي من وباء الإرهاب، وسأطمئن بدوري حين لا يُلقى عليَّ القبض في أي مطار — حتى إشعار آخر، طبعًا — أنني خارج هذه الفصيلة الموبوءة، وتجنُّبًا لميلي إلى التهويل سأعتبر المسألة جزءًا من رهان العولمة، وأنا أحب العولمة فعلًا وجدًّا، جدًّا!

لم أعلم إن خضع رفاقي في الرحلة إلى المعاملة ذاتها، ودخلت في صمتٍ موسوس إلى جوار السائق السيد صادق الذي استكان إلى سجائره، واحدة تعقب الأخرى، لم يُجدِ تأففي الظاهر معها نفعًا. لا أعرف بلدًا — كالأردن — يُقبِل فيه السواق والسكان عمومًا على التدخين، تكاد تختنق من رائحة التبغ في أي سيارة قبل أن تركبها، وترى الأفراد جالسين خلف المقود بيدٍ سيجارة، وبالثانية الهاتف المحمول والكلام المتطاير في الهواء، أما السيارة فتمشي وحدها تقريبًا، بسرعة قياسية، خاصة أن لا أحد يجرؤ على عبور الشارع، الذي هو عمليًّا طريق سيَّار، وإلا التحق بمئات مطاعم ودكاكين الوجبات الثقيلة والخفيفة المنتشرة على طول طرقات البلاد وعرضها، مدعوسًا، مهروسًا، جاهزًا للبلع

حينه. من حسن الحظ أن «صادقنا» لم يكن من هواة البصاق، من أولئك الذين في مشرق الأرض كله، ومغربه، أيضًا، يبصقون إثر كل «شفة» سيجارة ليس بينهم من يعبأ بمشاعر الناس، دعك من نظافة الطريق. النظافة، يا للهول! هذه عبارة يوسف وهبي الشهيرة في أدواره الدرامية المثيرة. لكنه لو اضطر — كمسافر — إلى التوقف، حاشاكم، في مراحيض حدودنا العربية، كما يحتاج كل مخلوق بعض وقت عُسْر، لوجدتَه يُوَلِّي الأدبار، هاربًا بعد أن قاء ما في أمعائه وهو يولول: «يا للأهوال!» عدا حاجتي التي اضطررت أن أقضيها كيفما اتفق، والغثيان يسد أنفاسي، وجدتني أشفق على حال أناس طيبين اضطروا للبقاء أطول لفريضة الوضوء نية في أداء الصلاة، وأرى أطرافهم تتمرغ في القذارة، ولم أجد ما أُسكن به قرفي سوى أن الله يحب الصابرين. لكني لم أمنع نفسي من التعليق، وقد استأنفنا طريقنا في التراب الحدودي إلى لبنان، من إعلان اشمئزازي من درجة احتقار سلطات هذه المناطق لبني البشر، ذلك أني لم أجد تفسيرًا معقولًا لكل هذا القرف غير أنه لون إضافي من الاحتقار الذي يعامل به المواطن العربي في مشارق الأمة ومغاربها.

تركنا الشام في الاتجاه الأيمن، وخضنا في الأيسر عبر طريق منحرف، وكنت أحب أن أزور دمشق لولا أن لا أصدقاء لي فيها ولا أحبة، أو بالأحرى كانوا، «منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر ...». آه، لو تأخر أبو عوف قليلًا، لو انتظرني قبل أن يرحل، أنا أعني الروائي الكبير جدًّا عبد الرحمن منيف، الذي تعرَّفت إليه في المغرب أولًا مطلع السبعينيات، وفي بغداد سنة ١٩٧٨م صدَّقنا على التعارف، وفي باريس صرنا أصدقاء زمن أقام فيها بين ١٩٨١م إلى ١٩٨٥م، ولم ينقطع حبل الود إلى أن وافته المنية الهوجاء، فأضعتُ صحبته مع غيره وسواهم من الأوفياء. وحين كنا قد تركنا شوطًا من السير أبعد عن عاصمة الأمويين الفيحاء وجدت لسان حالي قول الشاعر: «وتلفَّتْ عيني فمذ خفيت/عني الطلول تلفَّت القلب.» وعدت أعالج حسرتي بأن هذه ليست أرض عبور، بل مجد وحبور: «وأين في غير شام يطرب الحجر؟!»

وبينا أنا في هواجسي كانت قيادة الصادق البديعة قد بلغت بنا إلى الحدود اللبنانية، حيث نزلنا للمرة التي لا أذكر لنقف في الصفوف كالأنعام، ولندفع الجوازات للختم تحت نظرات الفحص والملامح المكشرة، سائلين العلي القدير أن تمرَّ الأمور بسلام، غير مهتمين أن تُلقى في الوجوه أوراق السيادة كأنها قطعة نفاية، أو أن يصرخ فيك شرطي حدود يفترض أنك عمُّه: «بدَّك تعطينا رقم تليفون إجباري!» فلا تلتمس له أي عذرٍ من وراء قصف إسرائيلي طال بلاده شهرًا كاملًا، لا ترى فيه سوى قلة تهذيب وعدم صلاحية

لممارسة مهنة هي مفتاح محبة بلد أو كراهيته، وتسحب جوازك، تغادر البناية الحدودية وعيناك تتقلبان بين العمالة السورية البائسة والشرطي المتجبِّر يهشُّ عليها كالذباب؛ تساءلت هل هذه فاتحتك يا لبنان؟!

٤

وعندي أنها نوافل، فالأهم أمامي لا ورائي بأي حال، وجميع حكماء العالم يقولون لك لا تلتفت إلى الوراء إذا أردتَ أن تصل. الأمام هو أن أرى ما حلَّ بلبنان من خراب، ولذلك اخترت القدوم إليه عبر الطريق البري، وليس خوفًا من إدخال أي ممنوعات، لعل من بينها شخصي، كما يبيح سدنة الحدود لأنفسهم الاشتباه. فكانت الرؤية/الصفعة الأولى بعد عبور بلدة شتورة نحو منطقة مجدل عنجر اللبنانية ومنها إلى صوفر، مشاهدة أول صورة لآلة الدمار الإسرائيلية. عيناي وحواسي كلها مستنفرة للالتقاط والتفاعل مع المنظور، مطلعه جسر «صوفر» المعلق على ارتفاع كبير. الصاروخ الذي ضربه قصد القلب منه، البطين الأيسر تحديدًا تاركًا الباقي بعد أن أصابه في مقتل، أي أصبح المرور فوقه متعذرًا. وإنك لترى حبال الحديد مدلاة والأسمنت المسلح قطعًا متفسخة ينطبق عليها قول الشاعر «كأنها من كُلى مفرية سرب» والحبال أشبه بشرايين تكبَّد فيها الدم، خارجة عن مسراها في الجسم، وقد تشنجت في العراء. الجسر الذي كان مندمجًا في فضائه، واسطة عقد يصل بين بلدين، ويعطي معنى لطريق، ويتأتى معبرًا بين لبنان وسوريا، وبالعكس، لكم تُقضى به من حاجات، بدا بعد أن طُعن في القلب منفصلًا، معزولًا، معوقًا، مبتور ساق ليمشي بها، وهو بهيئته الضخمة، شخصيته المعلقة، كفَّت أن تكون مشدودة إلى السماء لأن كلَّ من يمر بجسرٍ أو يقف فوقه هو في أقرب نقطة إلى السماء، فإن كان مؤمنًا أحس بأنه يدنو من الله، من اليقين، وعندئذٍ لا يستبعد أن يحلق بأجنحة الملائكة. لا يفكر الطيارون الإسرائيليون في الملائكة، ولا في خجل الجسر من عيبه، عورته المفضوحة، هم الذين لا همَّ لهم إلا تدمير العمران وسفك الدماء.

كان جسر صوفر — قبل أن تتقطَّع أوصاله بليلة واحدة — قد استيقظ منتعشًا إثر سهرة رائقة قضاها مع النجوم، أضاءت متقدة في ليلة مقمرة، يذكر الآن — وهو جريح ممدد في سرير — الأعين المشفقة أنه تناهت إليه وشوشة محبين، ولع عاشقين، شوق سيبوح له غدًا مثل برعم سيتفتح. يذكر، أيضًا، ربما سمع نايًا عن بُعد، ومن حسن الحظ انعدمت حركة السيارات تقريبًا؛ كأنما لتعطيه عطلة، وتتركه يمضي سهرة رائقة

تحت ضوء القمر. وهو شغف بالنور فاستحم بالضوء حتى تلاعبت في عينيه، وتغسَّل بدنه؛ فارتختْ أطرافه وأخذته غفوة، حسَبها في البداية غفلة فإذا هي سِنة نوم طالت، تخلَّلها حلم قصير، وكابوس سيطول، وحين استيقظ لم يصدق ما حلَّ به من هول مهول. آخر ما يتذكره قبل أن يدخل في الغيبوبة أن رأى جوفًا عميقًا تحته والوادي جاف، والأحجار مع الحصى متراصة، فخاف أن يسقط من عُلوِّه، وتتكسر باقي أعضائه على وجه الصخر، وأدرك قوته الأولى التي جعلته زمنًا يحمي عشرات آلاف العابرين على أديمه المتداعي اليوم. ثم رأى خلقًا يحيطون به — من أعلى وأسفل — وعلى سحناتهم حزن، وشفقة، وتعبير رثاء، وبينهم نساء ينهنهن: «حرام! ضيعانو! حرام! لغاية البارحة كان حلو وقبضاي! يا ضيعانو!» وتريك تراك، تريك تراك، بآلات التصوير — تحيط بأعناقهن الموفورة — يأخذن له عشرات الصور بكل «البوزات» الجديدة حتى يرينها لأزواجهن أوان الشد عندما تخور صحتهم من كل النواحي، فيفهمنهم «أن كل من عليها فان!» لم أتلفظ بالآية الكريمة، دارت في خاطري فقط، وإذا بالسائق اللائق يستخرجها مني، ويردِّدها على لسانه، ويعيد وقد أكملها: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» ملتفتًا إلينا ورأسه يدور كأنما يريد أن يلاحظ أي تأثُّر على وجوه ركابه، لم يكن لديهم على الأغلب إلا شاغل الوصول إلى نهاية الرحلة.

أظنني الوحيد من استبطأ الوصول، فغايتي الأولى هي الطريق، أهوالها القريبة وما أتخيله ويتوالد من تأثير سماع الأخبار، ولقطات الفضائيات، أجعله شاخصًا، فيما بصري لا يلتقط — على الأغلب — إلا الاكتمال. كنت أتوقع الحطام في كل مكان، إلا أن المسافر في المقعد الخلفي، ربما لاحظ تحفزي فصرح جازمًا بأنه لم يحدث شيء يُذكَر من هذه الناحية، والضرب حصل على جهة «البقاع» الأخرى، لأننا بالضبط كنا نعبر فرع طريق يطل على سهل البقاع. شيئًا فشيئًا طفقت أكيِّف نفسي على أننا صرنا في لبنان، وهو يعطى لنا في جباله وثناياه وهامات السنديان والبلوط على مد البصر؛ أخضر مخضر تحت شمس ما بعد الظهيرة ينداح بساطًا مرحًا على يمين السيارة، حيث أجلس بجوار السائق، يطفر منه أحمر قرميد البنايات والبيوت الجبلية، إما مبثوثة في قاع التربة أو منحوتة في التلال. وعندما نظن أننا بلغنا أوج الصعود تخزر فينا عين البحر كأنما بازدراء، فيا لَزرقة المتوسط وامتداده الباهر. المتوسط ليس بحرًا، وأنت تنزل من علوك إلى بيروت، ولكن هو البحر الوحيد وحده، وهو لا تجمعه الحروف التي تعني البحر، وبها يتشكل، إلا وقد أصبح اكتظاظ البنايات ملء العين تتوالى معها أكداس العمارات ولم يبقَ نتوء جبلي

ولا مرتفع إلا واخترقه بناء، وإذا هي غابة «الباطون» كما يسميها بعض اللبنانيين، الذين أعادوا إعمار مدينتهم بعد أن أتى على كثير من مقوماتها الخرابُ في حروبهم الأهلية، نحن ننزلق في مناطقها الشرقية العليا، اليوم أمان وأمس كانت فيها الحرب عوان، لا تظن شيئًا من ذلك وأنت ترى أرتال السيارات تتسابق في الهبوط من علٍ أو الصعود إلى علٍ، في نشاط دائب، إن لم تعرف أرضها تقول إنها تنعم دائمًا بالسلام، لولا …

لولا الحقيقة الأحق، الأفصح من جبين الصبح تتجلى، كأنما على موعد معي، أنا الساعي إلى لبنان لأنهل من نبع الحقائق، ما همَّ سَرتْ مرة، وإلا هل ما جرى يستساغ؟! فبينا السيارة تقترب من منطقة المرفأ، وإذا حركة السير أمامنا تبطئ فلا نعرف هل حادث اصطدام أم انفجار سبقنا، وهو محتمل دائمًا هنا، أم جماعة تتبادل إطلاق النار، محتمل أيضًا. وانقطع حبل خيالي عندما ظهرت نهاية قافلة عسكرية لاحظنا أنها تنزاح أكثر يمينًا لتخفف من ضغط المرور، وتتيح جريانه من جديد. قافلة من نوع خاص، ورجالها، عسكرها وضباطها، من القوة الجديدة التي عيَّنتها الأمم المتحدة لوقف الحرب بين إسرائيل وحزب الله.

كانت فرقة إيطالية يجلس الجنود في الكراسي الخلفية للشاحنات والجيبات؛ لاحظتُ أنهم شباب يضعون، جميعًا، نظارات شمس سوداء، عيونهم مخفية، تدور مستطلِعة، بفضولٍ ظاهر، موكب المار بجوارهم. بعد جسر صوفر الحزين، ألتقي بالمشهد الثاني الذي يقطع باليقين أنني دخلت الأرض اللبنانية لما بعد العدوان الإسرائيلي الجديد. وأستطيع أن أقول عن مهمتي الخاصة إنها قد بدأت فعلًا، لا تخمينًا أو تخيلًا، ومن هذه اللحظة ينبغي أن أعوِّل على ما أرى، لا ما أسمع وأتخيل. لكن، عن أي مهمة أتحدث؟ فهؤلاء فعلًا مكلَّفون بالحدث، أما أنا ففضولي بالفعل؛ إذ لم يطلب مني أحد أن أقدم شيئًا، وتنقلي هذا وحدي أتحمل مسئوليته، وفي المغرب، مثل كل أقطار العرب الأخرى، لم توفِد أي صحيفة شخصًا لينقل لها صورة عما جرى.

صحف «جاهلية»، تتلقى الأموال، وتكتفي بالبكاء على الأطلال. هي مثل شعوبنا المغلوبة على أمرها تفجِّر غضبها في بضعة شعارات وهتافات حين يُتاح لها التظاهر، ثم ما تلبث أن تنكفئ على هموم العيش، والمثقفون يصدرون بلاغات تنديد، ويعودون إلى المقت والشخير. لست أفضل من هؤلاء جميعًا، وكل ما هنالك أن هوسي يدفعني نحو خطوة أوسع، ولأني لم أعد قادرًا على تحمُّل رؤية منابر الغير تلقنني وينصِّب أصحابها أنفسهم وصاة على الرأي والإحساس، خاصة في قضايا تُدعى مصيرية، ومنها إحساسي أنا بهذا البلد الجميل الذي أحببت … وأحب.

٥

دفعة واحدة، ها أنا ذا في بيروت. لم أعد في الطريق إليها، أو ذاك المتلهف إلى الوصول، أرقص بين ما فات وما سيأتي، وأنا أناور، بالوجوه والأشكال، متنازعًا بين التذكُّر والتوقُّع، وكم من سؤال وحيرة للجواب. نحن نذهب إلى الأماكن، ونصل إليها قبل أن نحزم الأمتعة. نستدرجها قبل الخطوة الأولى، معيدين إحياء البناء، كأننا بُناتُه، صورتَه وطلاءه وأثاثه، ثم نبدأ نسمع الحركة التي تدب في داخله، تأتينا أصواتٌ متفرقة، متنافرة، تدريجيًّا نُركِّبها لتنسجم بما يلائم الفهم، أو ما نريد أن يلائمنا، نحن المتلهفين للوصول واللقاء. تلتقي صورة المكان وهيئة الإنسان في لحظة غير متوقعة كالدهشة، وحين نصل نلهث دقائق قبيل ذلك. نعانق صدورًا افتقدناها، نستعيد الخط والهندسة، وما نلبث أن نقول سرًّا، طبعًا، لا جهرًا: وماذا بعد؟

الأماكن في الحقيقة تقيم فينا، هي لا تغادرنا إلا لامًا، لسهوٍ عابر أو لإبدال مؤقت. لا أحد يعيش خارج فضاء محدد، حتى الكائنات الخفية كالجن والأشباح تحتاج إلى مأوًى، ونقول عنها إنها تقيم تحت الأرض أو في الخبايا الموحشة. بيروت شأنها شأن الدار البيضاء وبغداد وباريس، تتنقل معي حيثما ذهبت، لذلك أنا لم أسافر إلى بيروت، وإنما انتقلت إليها من غفلة، بل لأعترف، هذه المرة، أنني طُلتها، أحس بوخز ضمير وبعجزي في آنٍ. جئت كأني أريد أن أكفِّر عن ذنب، حتى لا يقال يومًا — أنا الذي سيقول، ولو عبثًا ووهمًا — إنك جفوت المكان الذي تحب في سوء أوان. لا يوجد أحد قبالتك أو ادعاء، وإنما شخصُك يقابل شخصَك، وبمجرد تُنزلا الحقيبة في زاوية، تعلنان مباشرة قرار الهجوم على المدينة لاسترجاع ما تبقى منها، ولمحاولة تبرئتكما من تهمة الغياب لَمَّا اشتدت زِيَم.

لكن، أين هي المدينة؟ أسأل أين تقع بيروت؟ إني لا أتباله، ولا أستغفل أي قارئ جدير — دائمًا — بالاحترام، فالصور الطافية للقصف، والمباني المتفجرة، والجسور الهاوية، والخلق الهائم على وجهه في الطرقات، استنفد البكاء والصرخات، وأشلاء الأطفال والعجائز ألوية خفاقة دمًا في أي سماء، هنا فوق رأسك دخان ورماد، سقوف سوداء؛ هذا الموج العاتي يحجب الرؤية، يبدِّد يقين الرائي والمرئي، ويفرض حضوره الطاغي، حتى لا مناص من السؤال: أين بيروت، وأنت فيها؟ وصلتها عصرًا، وأعرفه وقت ارتخاء في المدينة التي من عاداتها أن تستيقظ باكرًا جدًّا. الشوارع لا هي ملأى ولا فارغة، وإن ساد الخمول زواياها في انتظار ما يمكن أن يحفل به المساء من سمر وطيبات عند من يهوون السهر، أو مثل سكان فيروز، هم جيران القمر.

حي «الحمرا»، بعصرنته العتيقة، كان، ولا يزال، إلى حدٍّ، ملتقى كل وافد، ورغم الهاربين عنه تراهم يختلفون إليه اضطرارًا كأنما بحثًا عن شيء ضائع أو منسي، وهم إنما يبحثون عن زمن لهم فيه، وفي الزمان، ضاع إلى الأبد. وقد سألت نفسي: لماذا ينبغي أن أنزل في الحمرا بالضبط، هل لي فيها حبيب أو قريب، ولم يك إلا سؤالًا مخاتلًا ما دام عَبَرَ بالبال كالبرق، وتركني أستأنس بالوجود في عين المكان، أي هنا، بالضبط، حيث حللتُ، للمرة الأولى، سنة ١٩٧٥م، وهذه المدينة الفينيقية (نسبة إلى الجنس والطائر معًا) تستعد للاحتراق في أتون حرب أهلها خمسة عشر عامًا بعدد الجثث واللحود وغبار الفناء. والله لم يقدني إليها إلا فضول خفيف، وأنا عن قرب في زيارة لأثينا، ومن يومها لم أعد أنقطع عنها كأننا أبرمنا عهدًا لا قِبَل، لأي طرف، بنكثه أو صار فضيحة. وبقيتُ عليه طوال سنوات النار، وليس هنا مقام الحديث عنه، ولكن لأذكر أن المرء يمكن أن يعشق المكان حدًّا يخرجه عن طوره، حتى بلا أسباب.

قبل عامين وصلت إلى هنا، وأصررت على البقاء في الحي نفسه، رغم أن منطقة «السوليدير»، التي بَنَتْها مؤسسة الحريري لاستعادة مجد «وسط البلد» القديم، استردَّت بهاءها وأكثر. كنت، وما زلت، متشبِّثًا بزمن خلا، والسوليدير التي رأيت عبارة عن أحجار وبنايات ومحال تجارية ومطاعم فخمة وسراي حكومي، وخلافه، لكنه جديد بحاجة إلى الزمن ليعتق، لتصبح له رائحة ولون، ولتسري فيه روح خفية عدا خطوات وأرواح ساكنيه. هذه الروح بالضبط هي التي تشد الكائن إلى المكان، تشدني إلى شارع وحي الحمرا الذي مضى على تعميره ما يزيد على نصف قرن، وشهد جزءًا من ميلاد الحداثة اللبنانية في نشاطها الاقتصادي والعمراني والثقافي، وجَدَلها الأيديولوجي والسياسي. طبيعي أن يكون القلق الأول للزائر، مثلي، الاطمئنان على حيِّه، طارقيه والمواقع المألوفة به، رغم علمي أن أي أذًى، من ناحية القصف، لم يلحقه، بقي سليمًا إلا من الأطراف الساحلية في جنوبه، كأن الأعداء والأخصام جميعًا اتفقوا — ضمنًا — على استثنائه من الشرور، كأحد مواقع ذاكرتهم الجماعية، بمن فيهم الإسرائيليون الذين تاهوا — عُجبًا فيه — زمن احتلالهم للبنان؛ أول طلقة قتلتْ ضابطًا منهم، وأذنت بالرحيل، نُفِّذت في مقهى «الويمبي» الشهير في قلب شارع الحمرا.

نَفَسي حار في مغرب يوم، صهدُه ما زال دبقًا على البشرة.

نَفَسي أسرع مني، يتقدمني — لاهثًا — كإصابة مقذوفة إلى مرماها.

وأين مرماي؟ الشارع دائمًا؛ فروعه، زاوية هنا، أخرى هناك وهنالك، ووجوه أتوقع أني سأصادفها في هذا الملتقى أو ذاك، أنا الباحث عن وجهه القديم، ليس إلا! ها الليل يبدأ، وأنا أخاف أن ينتهي خوفي من فراغٍ حولي يتسع حولي كلما مشيت. هؤلاء القوم ربما غادروا، أو نيام كأهل الكهف، لماذا سيفيقون لمقدمي، ماذا أعرف عن نسيانهم لي، ونسياني المستحيل لما فات، أو استنكاري أن الحمرا هي بعض صخب النهار، بعد «عجقة السير» ليست أكثر من سبات. منحدرًا دونها، من أعلى حي «المنارة» نحو «الحمَّام العسكري» لأطل مع العيون المسهدة، كم مرة أطللت، سواء من شرفة مقهى «دبيبو» أو حافة مجلس «الروضة» المتهالكة على بحر مدينة تمعن في الفناء.

البحر؟ هل ما جئت تبحث عنه والأطلسي الجبار هناك، ملك يمينك، ملء
الشمال، أم لتسائله: كيفك؟ يسائلك: كيفك إنت؟
تنبهران معًا بالسؤال، يجيب خلسة:
أوه، بعد كل الوبال! تجيبه خفرًا: ليكن إن كان المآل.
تعرف «الروشة»، الصخرة المشقوقة فوق اللسان البحري
لشاطئ بيروت أنها غانية. تعرف أنهم الفانون وهي الباقية.
يمرُّون، يتحسسون بالعين، أحيانًا بالجدع، يعضُّون حتى بالنواجذ، على
العظم منها، يتحلب ريقهم عليها، هم «عبدة الأوثان»،
عشقًا يسيحون دمعًا، ليلًا يذوبون شمعًا، من كل فجٍّ عميق يأتون،
وهم حولها يمشطون شعرها، لا يعرفون أنها في آخر الليل ستجر
الذيل،
تأوي وحدها إلى مضجعٍ من تراب وزبد، تباعًا بعدها ينتحرون، وتعود
غدًا، ثانية، ثالثًا، أبدًا تبقى اللعوب، الرَّغوب،
تمرُّ أمامها الأجيال لزامًا، اليوم كأمس، كأنها نهاية كل الدروب.
أعود أمرُّ. أجلس قبالتك أنا المشقوق في نصفك،
لا أكلم، لا أناجي، في عيني سؤال واحد فقط،
وبعده أمضي لأدفن موتي في يباب الجنوب.
دُلِّيني كيف الطريق إلى الفطام، كيف الوصول.
رضعنا طويلًا حليب الهوان،
وما عدت أريد من دهري غير فطام الهوى،

صرِّفي أسماءه، عدِّديها، يا الصخرة العنود،
لكن قبل ذاك، هبيني نفاضة وصل أرتق به ما تمزق مني للوصول إليك.
لا شيء غير هذا أو أقل،
كأن أنظر إليك البحر يحتوينا في نصفيك.
كأن أصرخ، ولا يخرج صوت، ولا يحدث أي دمار بعد،
كأن تترجلين، النوارسُ على كتفيك،
والشهداء المغدورون يستحمون بدمهم عند قدميك.
ثم من علو بهائك سأعوي: صه، القتل، لماذا؟ القتل دائمًا! من يعطينا الحياة؟
صه! أريد الفطام ولا أطالب بالاستئناف، لا!

٦

– وين رايح؟
– نازل عالضاحية.
– من وين جاي؟
– بعدي واصل من الضاحية.

أسمع أكثم يسأل محمد الأمين، وذاك يردُّ بسرعة مقتضبة، وينتقل إلى المهم. هما معًا يحضران إلى Café de Paris للجلوس مع الشلة. زعيمها من أسميه أقدم شاب في بيروت والحمرا، أقصد الإنسان الجميل والشاعر عصام العبد الله. لا أحد يتحدث عن مكان قدومه إلا هما، وأسمع من فمهما اسم الضاحية فيرنُّ في أذني، لا أعرف غريبًا أو بعيدًا، وهذا ببساطة لأني لم أطرق هذه الضاحية يومًا، ولأمرٍ ما أحسست بها تقع في مكان ناء عني جدًّا. العجيب أن الصدفة أكدت لي تخميني على نحو غريب، فحين تعشيت ذات مساء مع صحفية مصممة بإحدى الأسبوعيات، وفي نهاية العشاء قلت لها إنني لا أستطيع أن أنام الآن، فخذيني معك، فأجابت: هذه صعبة. ثم أردفت تشرح، أنا أسكن هناك، في حارة حريك. نطقت الاسم الذي وجب عليَّ أن أعطيه تأويلات شتى من نبرة النطق، أو فهمًا واحدًا، إن كان لي به سابق علم.

الآن، وبعد كل ما حصل هناك، أجدني متحيرًا، مستغربًا؛ كيف لم أزر لا الضاحية الجنوبية، ولا حارة حريك، على عدد ما لا أحصيه من زيارات لبيروت، وقلت إن السبب

كامن، ربما، في إشارات غامضة أرقبها أو أسمعها من اللبنانيين أنفسهم، لا تحرِّك فضولي أو هي تقصيني عن مكان لن تتكشَّف لي أسراره إلا حين سيصبح — تقريبًا — أثرًا بعد عين. أعترف بعد ما حصل أني شعرت بالغيظ حين عاينت المكان، أقصد خرائبه وأطلاله من خلال صور القنوات الفضائية فزادت قيمته، بل كأنه أصبح موجودًا للمرة الأولى. وهو ما جرى لي بالضبط مع مخيمي صبرا وشاتيلا، اللذين طالما مررت بالقرب منهما، ولم أحس بأي رغبة في الدخول إليهما، وهذا تعففًا لا نفورًا؛ إذ كيف أسمح لنفسي بالتفرج على بؤس الآخرين وزراية عيشهم أو منفاهم، كما رفضت أن أزور «الفافيلا» في مدن البرازيل، لولا الصدفة قادتني إليها. بعد المجزرة بكيت مرتين، للجريمة وقت حدوثها، ولما زرت المخيم المقبرة والدم بعد طري.

في اليوم التالي لوصولي سارعت إليها، كنت هاتفتُ الصحافية ليلى لتقودني إلى المجهول المعلوم، الحقيقة أنها — هذه المرة — رحبت بسرعة، وقالت: متى تشاء، وأضافت، شريطة أن تدلني على العنوان. لم يبد من صوتها أنها تمزح، وقلت هذه علامة اكتئاب يلاحظها كل وافد على اللبنانيين بعد العدوان، خاصة في وجوه الصبايا والأطفال. وحين حضرتْ عصرًا لتأخذني إلى الجولة الموعودة، رحت — شيئًا فشيئًا — ألتمس السبب ليبطل العجب. انطلقت سيارتها هادرة، واثبة كالسهم شأن السائقين هنا، وكلمات تحياتي وتمنياتي بالسلامة تتقطع في فمي مع طرقات تتقاطع مفارقها وسبيلنا الذاهب إلى جنوب المدينة، ثم باتجاه المدينة الرياضية، وأظن طريق المطار القديم، ثم في منعطف نلوي يسارًا، وقد تركنا بيروت الكبرى، غربيها وشرقيها هناك وراءنا بعيدًا، إلى حدٍّ ما، وإن ظلَّت أعاليها مشرفة بمباني الجبل. خضنا أخيرًا في شارع مزدحم، عربات ومارة وتجارة، وهي تواصل قيادتها، خفَّت سرعتها للضرورة. لم أكن في حاجة إلى إشارة منها لأدرك أنَّا بلغنا المرام أو مدخله؛ فقد تكفل بذلك السادة الملالي آيات الله؛ ترى صورهم تتبارى كِبرًا، طولًا وعرضًا ولمعانًا، في اللافتات المعلقة على امتداد الشارع، فأزقة فرعية، فالساحة المنعطف من حيث سندور يمينًا لنتجه نحو ما، التفتت إليَّ ليلى تخرج — للمرة الأولى — عن صمتها، لتقول الآن سندخل إلى حارة حريك؛ أعني حيث كنت أسكن أمس. زاد السادة الملالي يتكفلون بمرافقتنا يتقدمهم آية الله خميني، ويصطف بعده آية الله خامنئي، والرئيسان خاتمي، وأحمدي نجاد، وعلى لوحة خشب هائلة صورة للسيد حسن نصر الله زعيم حزب الله، ولم يفت مرافقتي أن تلاحظ استغرابي، وعلى لساني سؤال ملجوم: أين أنا يا ليلى؟ وهل هذه حقًّا هي الضاحية أم أنك سحرْتِني ونقلتني بسرعة البرق إلى، إلى ... وما كانت بحاجة إلى

سؤالي لتفهم حيرة تجلَّت مفضوحة في عينين تراهما تبحلقان تعجبًا، وهذا قبل أن يصاب صاحبهما بالذهول من هول ما سيرى على وجه الصعق اليقين.

وماذا رأيت مما يمكن وصفه أو يمكن للكلمات أن تجمعه أو تبعثره عبثًا، شعثًا، أي كما صار إليه بالضبط؟ أوقفنا السيارة في زقاق فرعي، وبخطوات حذرة انتقلنا إلى زقاق ثانٍ، أسير حذوها فوق أرض — لاحظتُ — مخروطة بشقٍّ طويل كأن زلزالًا هزَّها هزًّا وصدَّعها تصديعًا. خطوتها متعثِّرة فعلًا، ومن يراها يظن بها عاهة وما أحسبها إلا سليمة. زاد الحالة صعوبة أن قطع طريقنا شخص قوي البنية قذفنا بأمرٍ حاسمٍ عنده: «لوين رايحين؟ ما فيكم تفوتوا من هون!» ومن حسن الحظ أني لجأت إلى لطفٍ — لا قِبَل لي به في مثل هذه المواجهات — لأنها كادت تشتبك معه، وصراخها يعلو: أنه لم يبقَ شيء ليمنع أي شيء، ومن يكون هو، وحتى «الذين خلفوه!» يا أخي — داريت الرجل الخشن — أنا قادم من المغرب، وأنا غاضب مثل كل العرب، ألم تسمع عن مظاهرة الدار البيضاء، قرابة مليون، كلهم ندَّدوا بعدوان إسرائيل، وناصروا الشعب اللبناني؛ كلهم يحبون السيد حسن، ودعوا له بالنصر المؤزَّر. وعلى الرغم من أني لم أرفع النوتة إلى درجة المغني المصري شعبان (شعبوللا) في نشيده الشعبوي الشهير: «بحب عمرو موسى، وبكره إسرائيل!» إلا أن ملامح وجهه المتغضنة ما لبثت أن لانت، وغضبه الأول انقشع عن ابتسامة فاضت على لسانه ترحيبًا، وإلى السيدة اعتذارًا و... دلالًا.

كانت الرسالة: «فوتوا» وفُتنا، ما لم يغيِّر من غضبها شيئًا لأننا، هذه المرة، بدأنا نخوض فوق أرض أخرى، تربة أخرى، جغرافية لا توجد في تضاريس أي جغرافيا، وانتبهت أنها توقفت فجأة عن الحركة تقابلني والحارس الفظ أصبح خلفنا، وجهها لا شك يراه، خفتُ أن تستأنف احتجاجها، ونحن أنهينا نزاعًا عابرًا ناتجًا — دون شك — لا عن صلافة الرجل، لكن عن إيمانه الأعمى بالسيد حسن وبالقضية، حدًّا ينظر معه إلى كل الناس أعداء وجواسيس جاءوا ليجهزوا على من صمد من المقاتلين المغاوير، أو يزيدوا في تفتيت الدمار إلى غبار. لا، لم يكن لدى ليلى، خلافًا لاحتمالي، أي رغبة في مناوشة الرجل بالعودة إلى الموقف السابق، بل على العكس، أرسلت إليه نظرة حانية في الأقل، فهمت فيما بعد أنها نظرة مستسلمة، فاترة، لا يريد صاحبها شيئًا، أو يقول بعد أن طال صراخه، وعذابه، وعويله، وتذكُّره، ونسيانه، وما لا يعرف كنه تفاصيله إلَّاه؛ يقول: اتركوني! وإحساسي أنا أني اعتديت عليها، بأن أعدتها إلى جلادها، حملتها إليه كتلة صماء جاهلًا أو متجاهلًا طبقات الجراح المردومة في داخلها، وفي نفوس شيب وشباب غيرها قابلت في

«الحمرا» ودروب أخرى من بيروت، وجوههم صماء تبدو كأنما قطعت كلَّ صلة بالمعنى والإحساس، شحيحة الكلام، إن قالت فبسمة ساخرة.

التفتت ليلي من جديد بحركة مباغتة، هذه المرة نظرت أمامها، وصرتُ والرجل خلفها، وبحركة مسرحية مدت ذراعها، وأشارت طويلًا في أفق وقفتها ونظرتها المستقيمة رمحًا أمامها، وأنا والرجل بهتنا وقد رأينا جسدها تشنج وصار قطعة منضدة كنصب حديد رشيق القوام، ونظرنا من عيني أفقها في اللحظة التي سمعناها تعوي: هناك، هناك كان بيتي! لكننا، أنا على الأقل، القادم من غياب، الوافد إلى نهايات اليباب، لم أرَ شيئًا، أو تقريبًا. بلى، حين تتبعت الإشارة رسوت أخيرًا على فراغ، على جانب من جدار، آخر جدار لعمارة سابقة، وأحجار متناثرة، عن يمينه فراغ، يساره فراغ، ثم لا شيء، نعم … لا شيء!

٧

عندما كنت أسمع نشرات الأخبار تعلن وتعيد أن الطيران الإسرائيلي لم يتوقف عن قصف الضاحية الجنوبية، وحارة حريك تحديدًا، ولَّما شاهدت — مثل الملايين — الصور المنقولة تلفزيًّا، تساءلت: وهل هذه الطلعات الجوية ستدمر مدنًا بأكملها؟ أو ماذا عساها ستقصف أكثر مما فعلت؟ الآن، والذراع الممدودة، باليد، بالسبابة إلى الهاوية، أدركت سذاجة تساؤلي وأفزعتني الحقيقة، ما انفتح، اتسعت أمامي هوة سحيقة للدمار. رأيتُ ساحة، بطولٍ يقرب من كيلومتر طولًا، ونصفه عرضًا، محفورة عمقًا، أعمق من جرفٍ، من مسبحٍ، لكنها ليست ساحة، ولكن مجرد فراغ، كأن الأرض توحَّدَ شكلُها في فوهة لا تصدر منها الحمم لكن الغبار. قبل ذلك، كانت هنا مئات المباني وسامق العمارات، وجاءت الطائرات الإسرائيلية وقصفت بالليل والنهار حتى ترى، سوَّت البناء بالأرض، على ما ترى. قبل ذلك كان هنا حي هائل شديد النشاط، بالمارة، والتجارة، والتعليم، والنساء المتصايحات، والأطفال المتراكضين، والباعة المتجولين، والأذان يتجاوب للصلوات الخمس وتلاوة القرآن، ولا بأس ببعض الغناء، ثم جاءت الطائرات وخنقت الأرواح والأنفاس، شرَّدت الجميع، حرقت الكتب والقلوب.

في الناحية اليسرى من ساحة العدم، كما يجدر تسميتها، بدت الهوة أعمق من حيث نحن واقفون؛ ليلى وأنا، والرجل اختفى، هناك كأنما بئر بقُطر البحر. حلَّت الرفيقة إشكال بُهوتي قائلة، وقد استعادت توازنها، لعلَّك سمعت عن المربع الأمني، أي المنطقة المحمية جدًّا، حيث مقرات حزب الله على رأسها مكتب السيد، يعبر الجمل من خرم إبرة

ولا يمر منها. هذا المربع نال أكبر حظٍّ من الدمار، انظر لم يبقَ إلا التراب المسحوق، لا شيء. واستدركتْ: هل تستحق المكاتب كلَّ هذا الضرب الوحشي. ففهمت كلامي على تأويلها، وسارعت تجيب على غير سؤال كأنني لا أفهم، وهي كذلك في البداية؛ فقد كان هنا كل شيء: الأوراق، التقارير، الهويات، السلاح، ونحن النساء، أولادنا، الجدات، الأمهات، المعوقون، المجانين الذين ازدادوا جنونًا حين رأوا العمارات تسقط، وجدرانها تنعجن كقطع الكرتون. أنا هنا حية بأعجوبة لأن عطلًا لحق بالسيارة وأنا في الطريق، ولما وصلت رأيت جحافل الفارين الناجين، وحاولت أن أخترق القصف لأبقى أنظر لما كان عليه بيتي، ابني — من الحظ — يقضي ليلة الجمعة عند خالته، لأنتزع بقية، ورقة، قميصًا، الصورة الوحيدة ما أملك عن طفولتي، يد أمي على رأسي ويدي في كف أبي، أي شيء لم آخذ ولم يبقَ.

رغم أن الساعة بلغت الخامسة عصرًا، فقد كانت الشمس لا تزال ترسل أشعة حامية، وضوءها في شهر أيلول (سبتمبر) ينشر بياضًا ناصعًا يتناقض بحدة مع اللون الرمادي الكالح للتراب، والأسود الفاحم لما انهار واحترق. بيروت صيفها الحار، شديد الرطوبة يتأخر في الانسحاب، إنما هذا الضوء المشعشع في ثقل حرٍّ ضاغط يصنع — مع آلاف أطنان الحجر والأسمنت المفتت، المتشابك، كأصابع تتخلل بعضها، بقضبان الحديد الطويلة، المتعانقة ببعضها حد الاختناق — يصنع رؤية قيامية. والقيامة التي لم يرَها أحد بعد، إذا كنا قد قرأنا لها حكايات وصورًا وتشبيهات في الكتب المقدسة، كما في السِّيَر والأخبار، ترهب المؤمنين والصادين عن الإيمان في آنٍ، فإنها، وهي في تصوراتنا المتفاوتة عنها، تبدو قريبة أو قل معقولة التصور من خلال المشهد/المشاهد الشاخصة بمنتهى الإثارة والفظاظة هنا في حارة حريك.

لكي تصف شيئًا لا بد من امتلاك مقدرة الوصف وأدواته، وعندما يتعلق الأمر بتجمُّعٍ ضخم للعمارات والبنايات والمتاجر والمدارس والمكتبات وبيوت العبادة، وكل ما ينبضُ بالحياة يسكنه الناس من مختلف الأعمار، ليس لهم سواه، فإنك — عندئذٍ — تحتاج إلى أكثر من القاموس والبلاغة سيستقيلان أمام هول ما دمره القصف الإسرائيلي بمختلف أسلحة الدمار: صواريخ، وقنابل من مختلف الأحجام، وضربات عمودية لتحدث أعمق التجاويف في الأرض كي تصل إلى مخابئ حقيقية أو مفترَضة لـ «كوادر» حزب الله ومخازن أسلحته. لا بدَّ من مهندسين معماريين ومصممين حضريين وخبراء في السلاح الجوي، والقنابل والمتفجرات بأنواعها، ليقدموا الوصف التقريبي، ولن ينجحوا في التدقيق

حتمًا، وما أنا من هؤلاء، ولا أطمح، وأحسب أن الصورة في هذا المقام أبلغ بيان. لذلك من الأنسب الاختصار في الوصف، بالأحرى في رصِّ النعوت والصفات، فالنعت مهما بلغت قوة تشخيصه إنما يحاول أن يقرِّبنا إلى الحقيقة، إلى واقع أرى أنه من ضراوة ما لحق به يعزُّ عن الوصف، ومع ذلك تعالوا أقدِّم بضع صور:

الصورة الأولى: تحتاج إلى معرفة السابقة لتعي اللاحقة، معناه أنها توجد بقدر المقارنة.

الصورة الثانية: المربع الأمني الذي كان عمومًا مخفيًّا عن الأنظار، لا يدخله إلا المؤتمنون و«المطهرون»، اختفى نهائيًّا عن الأنظار، صار ترابًا، غبارًا، حفرة هائلة من العدم. ابتداء من اللحظة يمكن نسج حكايات لا نهائية عن هذا المكان، قد يتبارى فيها غدًا حكواتيون، وروائيون أكثرهم من لبنان. هي فرصة أخرى لهؤلاء كي يحبروا عشرات الصفحات عن حروبٍ، لا يموتون فيها، ويتنافسون لنيْل غنائمها، وهم ينفخون السجائر في المقاهي أو يتنابزون بالألقاب لَمَّا يدعون إلى المؤتمرات ليتحدثوا عن شجاعة، سمعوا عنها فقط، للقتال.

الصورة الثالثة: تحيط بالساحة الهاوية من جهاتها الأربع عمارات لم تُدمَّر بالكامل، غرفُها مفتوحة مباشرة على الفراغ، بعد أن هوى الجدار، وطارت النافذة. من كل الجهات تُرى غرف نوم عارية، وطنافس وأرائك مبعثرة، أحيانًا ستارة مسدلة يمكنك أن تتخيل أن وراءها زوجين نائمين، أو أمًّا تحضن طفلها مات، واختلط حليب ثديها في فمه بخيط دم لزج.

الصورة الرابعة: عمارات أخرى واجهاتها الأمامية كلها منبسطة، منضغطة كستائر تغطي الشرفات، وهي مثبتة رغم أنها على شفا الهاوية.

الصورة الخامسة: بقايا معلقة: شرفة هنا، طنجرة هناك، كرسي بقائمة واحدة، شاشة تليفزيون مثقوبة، دمية بهيئة دب، لوحة كبرى يظهر فيها سيدنا علي ورأس الغول.

الصورة السادسة: عمال ينقلون الأنقاض على شاحنات، لا تتوقف عن الذهاب والإياب في ساحة العدم. جرافات تناور مع الأنقاض وأطنان الحديد والخرسانة وأعمدة الكهرباء وبرك الماء، وهي تتجنب — أكثر شيء — سحقَ الألواح الخشبية التي تحمل صورة الأئمة وآيات الله، جميعًا بعمامات سود ونظارات كبيرة الإطار، لكنها من الكثرة بحيث تضطر لسحق جوانب منها.

الصورة السابعة: عمال سوريون يدخنون، في جهة مقابلة سيدة عجوز تنبش في خرابة، وكلب دخل إلى محل جزارة خرب لعلَّه شمَّ فيه رائحة لحم بشري نيء. وعامل آخر يتبول إلى جوار لافتة خشب مكسرة تداخلت كلماتها المقدسة.

الصورة الثامنة: عند مدخل ومخرج ساحة العدم، لوحة خشب حمراء، وسُطِّر عليها بالأبيض الشعار الذي سيتكرر من الضاحية الجنوبية إلى أقصى الجنوب بلا عدٍّ: نصر من الله، النصر الإلهي، وفي القلب صورة السيد حسن نصر الله، من حارة حريك إلى أقصى الجنوب.

الصورة التاسعة: أنا وهي ننسحب من أنقاض حرب تركت فيها بيتها، وقطعة من روحها، حتمًا، ولم أخض فيها أنا شيئًا. كادت تسقط فتلقفتُها، تجنبتُ كومة كتب نصف محترقة، نصف مقصوفة، باقٍ منها كتاب نصف سليم، قرأت عنوانه: «نهاية الحكمة» للإمام الطباطبائي.

٨

عدت مع ليلى الوادي بسيارتها، مخترقين «الضاحية» وهي تدخل في أول المساء، والعائدون إليها أكثر من الخارجين. طلبت منها أن تنزلني في منطقة «الرملة البيضاء» جنوبي الروشة، وفي ذهني مشروع صغير بمثابة محطة مؤقتة في الرحلة الكبيرة. لم نمض وقتًا طويلًا للوصول، فلا زحام شديد، بل أقل من المعتاد. أنزلتني، وحين شكرتها على لطف المرافقة، وما سبَّبته لها جراء هذه الزيارة القاسية، ارتدَّت هي من يعتذر ويأسف أنها لا تستطيع دعوتي إلى بيتها، أراها تضع رأسها على المقعد فيختفي وجهها خلف خصلة شعر كثيفة، أضافت: أنت رأيت بعينك، كيف أني أصبحت بلا مأوًى، ومضت وأنا واقف على رصيف الألم!

حين تركنا الضاحية الجنوبية، وحارة حريك في قلبها، أحسستني متجاذبًا بين مشاعر متنافرة، أقواها له علاقة بدرجة الإحساس بالمكان، وفهمه قبل كل شيء. هذا حي، ضاحية ليست بعيدة عن بيروت الأم إلا بمسافة محدودة، طالما أننا نظل نمشي في العمران، وننتقل بين أحياء وشوارع ومفارق معروفة جدًّا، لنصل إليها بلا مشقة تُذكَر. لكن هذا لا يمنع من الإحساس بأننا نبتعد ونقترب في مستوى القرب والبعد منها؛ من زمن، وثقافة، وتاريخ، وأخلاق، وسلوك، وسياسة للدنيوي والديني، وباختصار من كل

شيء. وحسب الاقتناع الخاص نسعد بالوجود في هذا الفضاء، أو نشقى، نأسف لمغادرته أو على العكس نغتبط ونتنفس الصعداء. حين اتصلت بالصديقة الصحافية لتصحبني إلى هناك؛ قالت بنبرة لم أفهمها لحظتها: هكذا إذن، أنت، أيضًا، تستعجل زيارة الآخرة!

المشي أفضل مرهم لعلاج الهمِّ في جميع الأوقات، ومن «الرملة البيضاء» سأمشي مسافة طويلة، أتأمل فيها ما فات، وما في علم الغيب آت. من حيث بدأتُ، الشاطئ عن يساري مقفر، والبحر مظلم وبعيد، وسأصعد بخطى واثقة، تمر السيارات في الطريق الثنائي كالسهام، جميع السكان يسوقون هنا بجنون، لا أعرف هل هو عنف متأصل، أم نزق، أم سباق إلى الموت، وأفهم، قليلًا، لماذا كثير من الخلق يموتون هنا باكرًا، أو شهداء، بحسب التأويل. أشرع في الصعود؛ فتظهر لي بناية فندق الكارلتون، أضواؤه مطفأة، والستائر خلف الواجهات الزجاج للغرف مسدلة، والهيكل الخارجي للمبنى خرب عمومًا، بنتوءات متآكلة؛ نزلت مرات في هذا الفندق الذي كان يضج بالمؤتمرات والوفود والنزلاء المرفَّهين والبسطاء، أيضًا، قبل أن تحوِّله أيام لبنان؛ هي دول، إلى قاع صفصف. تساءلت هل حولتني الأيام إلى بوم ينذر بالخراب، أم أنني في قلب المندبة؟! ورغم أن بيروت تحب أن تنسى، وتتبرَّج كلما غفلت عن قسوتها على نفسها؛ فإني لا أجد طريقة للتخلص من البوم المعشش فوق رأسي، يقودني إلى حفرة المقتلة

حين أصبحت على مستوى الرصيف المقابل للروشة، والأضواء مع خليقة طافية فوق دخان النراجيل، وشباب يتنطعون في سيارات «الهامر» ذي الدفع الرباعي، المدنية لا العسكرية، أيقنت أني بعدت حقًّا عن تلك «الضاحية»، لكن من غير أن أُبعد الأشباح التي تحوم حولها، وحول هذه الأرض جمعاء. لم يخطر ببالي أن أسأل أحدًا، من المتعلمين، ولا بين عامة الناس، كيف كان شعوره وهو يسمع — قد يرى — آلاف القنابل تسقط على حارة حريك، من هنا في بيروت. هناك سؤال متأخر وساذج، ربما جارح كذلك، قد ينجلي، رغم هذا، عن مجهول يفضي إلى مكر الخطة الإسرائيلية، التي زعمت أنها لا تعتدي على لبنان، ولكن تقتص من حزب الله الذي تسبَّب، عندها، في الحرب بخطف جنديين إسرائيليين، والنتيجة هي أن بيروت تهجع خارج القتل والدمار، والحارة والجنوب والبقاع يصلون النار. كأن بيروت تقع في مكان آخر، كأن بيروت ليست هنا. ارتعبت للفكرة، وقررت أن أدفنها في صدري، ربما إلى أن أخضعها لمزيد اختبار.

مشَّاءون كثر، مثلي وأشطر، يعرَقون بالليل رياضة، وفي النهار رطوبة، وفي النوم شبقًا أو حسرة. مشَّاءون والكورنيش طويل، الصيادون وجوههم — كسنَّاراتهم — إلى

البحر يعطي السمك، خير من الأرض، مقبرة ومجلبة للموت. جسمي يسيل، لا أدري هل بالإجهاد، أم الانفعال بعد أن أخذت أقترب من نهاية الكورنيش، ولا أبعد كثيرًا عن حي «عين المريسة». بمعنى ما ها أنا ذا أعود إلى نقطة الانطلاق في «مشوار» اليوم، أي إلى الدم والموت والخراب. فكرتُ أني نلت نصيبي من «الزاد» المتاح اليوم وزيادة، حتى «الآخرة» بتصور الصحافية الوادي زرتها، يكفي، إذن، أليس كذلك، وهل ينبغي أن أهلك قارئي معي في مثل هذا المسار، هل؟ إنما الرصيف الذي أواصل فيه مشيي يقودني إلى الحتم، إلى النقطة التي حاولت تفادي الذهاب إليها، رغم حضورها الملح على البال، منذ وصلت إلى بيروت.

ينتهي الكورنيش عند بناية لمجمَّع لبيع الأثريات، وفي منعطف ينتهي «عين المريسة»، على اليسار تبقى الضفة البحرية ممتدة، لكن الطريق مقطوع، وهو لم يكن كذلك من قبل، بحيث كنتَ تواصل لترى فندق «فينيسيا» الفخم المجدَّد، ومن خلفه لسان الطريق المؤدية أو القادمة من وسط البلد «السوليدير» أو Downtown كما يحلو للشباب أن يسموها (وين رايحين يا شباب؟ عالداون تاون. شو رأيكم نسهر بالداون تاون؟) يتميزون عن الجيل القديم الذي يتقاعد بمنطقة الحمرا. لا سبيل للمرور إلى هناك، حيث الحواجز منصوبة، وأسلاك، ومنصات صخرية وحراسة، أيضًا. كان الظلام ناشرًا جناحيه على طول الضفة الممنوعة، تتضاد مع الجهة الشرقية المنيرة من شارع الكورنيش وقد دخل في الليل. كان فضولي أقوى مني؛ لأني ببساطة لا أقتنع إلا بالمعاينة الشخصية، وإلا لماذا التنقل بين الربوع. قال الحارس بلهجة منذرة: لا يمكنك المرور يا سيد. قلت أعرف، فهنا وقعت الواقعة. عقَّب: بما أنك تعرف، لماذا تبدو كأنك تلحُّ؟ أجبتُ لأني غريب وعابر سبيل — ولأسترضيه زدت — وأنا كنت أحمل للفقيد رفيق الحريري كثيرًا من الاحترام. انفرجت ملامحه قليلًا، وتنازل بعدما اطَّلع على هويتي، حسنًا: «فوت شوية من هون، فيك تتطلَّع، بس ما اطوِّل، ok.»

بدت الحفرة عن بُعدٍ واسعة، تنعكس عليها أعمدة إنارة عالية. ليست في حجم ساحة العدم في الضاحية التي مسحت حارة حريك من الوجود، لكنها من الكبر والعمق حدًّا يكشف عن حجم وضراوة الانفجار. لم أتبيَّن في الظلام كثيرًا، ووجدت خيالي يشط كالعادة، معه، أرافق موكب الحريري من لحظة مغادرته مجلس النواب إلى وصوله هنا، هناك، وسط عمق الحفرة حيث تطاير جسده أشلاء مع شظايا السيارة، وأسمع الدوي قويًّا، وزجاج العمارات المحاذية يتكسَّر متناثرًا على وجهي، وأطراف المارة مترامية، دم

غزير، وآخرون يحملون رءوسهم بين أيديهم يحمونها من السقوط، والحارس ينهرني أخيرًا لأبتعد، وأنا أصرخ مبتعدًا كالمجنون، ألوي عائدًا على عقبيَّ من حيث أتيت، صاعدًا مجددًا باتجاه الروشة، متصامِمًا عن تزمير «تاكسيات» لا يتوقف، آخذًا اتجاه الحمرا، أنعطف ناحية حارة «كركاس»، وأمرُّ بحانة ومطعم اسمه «جدل بيزنطي» طردتني منه عبارات ركيكة ومفككة، يسميها البعض هنا — جهارًا — شعرًا، يقرأه ولد مخنَّث رغم أن قذاله شاب، فأفكر أنه بعد ساحة العدم، وحفرة القتل، هذه هي ثالثة الأثافي، وأن الأليق بي أن آوي إلى فراشي قبل أن يحدث انفجار جديد؛ إذ كل شيء محتمل في هذا الحيز، ثم إنه يجدر بي أن أستريح، أنا الذي لا بدَّ لغده من الجنوب.

٩

لم أكن في حاجة إلى اجترار المثل السائر: أن ما حكَّ جلدك مثل ظفرك، ففي الأسفار عوِّل دائمًا على نفسك، وحيثما حللتَ ولقيتَ عونًا أو رعاية إضافية اعتبرهما رفاهًا عابرًا لا غير. ردَّدتُ هذا الكلام على نفسي وأنا أغلق سماعة الهاتف بعد أن كلمت أحد صحافيي الحمرا، وعدني — متطوعًا — بمرافقتي إلى الجنوب لنشاهد، بأم العين، أهوال الدمار الذي تسبَّب فيه العدوان الإسرائيلي. كان موعدنا في الغداة الساعة الثامنة صباحًا لننطلق، فقلت: لا بأس أتأكد، وأذكِّر الرجل، قد سَها أو نسي، فوجدته يتملَّص ببساطة، ودونما حرج يُذكَر. والحق، لم يكن لي سابق معرفة به، والصدفة جمعتنا، وأول ما نطقت متسائلًا: كيف يا جماعة الوصول إلى الجنوب انقضَّ على سؤالي كنسرٍ جارح، وفهمت أنه سيطويني في جناحه — لا منقاره — ونمضي، فتبيَّن أنه لا يفي مثل عديد، لكني لم أغتم لهذا قط.

لا بد أن أسجل كيف أن عزمي لم يقوَ على تنفيذ هذه الرحلة إلا لأن الوصول إلى الجنوب مرماها، وسواه نافل تقريبًا. فلقد سكنتني الصور والأشكال المتلاطمة لأمواج الدمار الذي زحف على قرى وضيعات الجنوب اللبناني مع القصف الإسرائيلي الهمجي بنفس شهر ونيف. ذهبت إلى البرازيل في رحلة سياحية، وإذا هي في بعض الوقت تنقلب عليَّ كابوسًا؛ أرى فيه ناطحات سحاب ساو باولو وريو دي جانيرو ومضلعاتها الزجاجية السامقة تتهاوى، والأرض تحتها تميد، وهي تطوينا في تجاويفها المفتوحة تتلقَّى أطنانًا من القنابل تنزل صواعق. حين جالست الأصحاب والمعارف القدامى، من أدباء وصحافيي بيروت، في المقهى أو في مكاتبهم، لم يعنني شأنٌ قدر حديثٍ عن هناك أو وصفٍ أو إشارة تندُّ عمَّن ذهب إلى هناك ورأى؛ أحب أن أقول وأعيد، ليس من رأى كمن سمع، ويطول

انتظاري عبثًا، فأُداري لقد جئت متأخرًا، والأمر ليس كذلك، والحرب باتت وراءهم، رغم أن الخرائب عامة والبوم بعدُ يحوم. لم أسمع أحدًا يتحدث، أو، على الأقل، يُبدي شهية حديث طويل عن شعارات ولافتات الانتصار المعلَّقة على طرق المطار، وتُغرق الضاحية، هي وصور الشهداء الطرية. كانوا متنازعين في الرأي، ذلك التنازع الصامت شكلًا، الضاج بنطقه كمونًا، في أجواء يستتب فيها الحذر والضجر، ولا قرار فيها للأدباء وكُلماء المقاهي، ولذلك لم أحشر أنفي فيما يفوق حدود حماستي واهتمامي، أقول لم أقطع آلاف الكيلومترات لأحلِّل وأقوِّم، ولكن لأرى بأم العين. لذلك، أيضًا، لم أبلغ أحدًا بنيَّتي للنزول إلى هناك، وبدوْتُ مثل سائح متعطِّل يجوب أوقات وشوارع بيروت المصهدة، يتجوَّل، بشبه حياد، خالي الذهن تقريبًا … إلا مما في رأسه.

نمت عميقًا بعد بلْع كذبة الذي لم يفِ، دعونا من اسمه!، واستيقظت في السادسة صباحًا، نشيطًا، متحمسًا، ظُفري على جلدي بيقين. وفي السابعة هبطت وسط حشد المسافرين بمحطة الكولا. المحطة التي تقع في مدخل الجنوب الشرقي للمدينة، نقطة الذهاب والإياب من بيروت إلى جهات لبنان الجنوبية والوسطى، خاصة. موقعها مفترق طرق يضج من الفجر إلى المساء بالحركة والصخب: سيارات وحافلات وباعة متجولون وأقوام ذاهبون إلى كل مكان. لي معرفة سابقة بالمحطة، منها أركب للانتقال إلى منطقة الشوف الجبلية لأستجم في بلدة «دير القمر»، هي و«بيت الدين»، أجدهما من أجمل ما في لبنان. الوضع عندي الآن مختلف؛ فأنا لست في نزهة، وما يليق ادِّعاء ذلك، والمحطة ذاتها نشاطها مختلف، أي فاترٌ بعض الشيء، قال السائق الذي طلب سعرًا عاليًا، وقد خمَّن أني أجنبي، بأن الوضع ما زال غير طبيعي حتى ولو استأنفت النقليات. فأجبته يا عم نحن في ٢٠ أيلول (سبتمبر)، والحرب صارت وراءنا، فلم يهتم وانصرفت إلى آخر.

خلال الحرب جنَّ جنون هؤلاء السوَّاق، أكل شرهُهُم الأخضر مع اليابس، لم يراعوا القنابل التي تتساقط على الرءوس، ولا من أصبح بلا مأوًى، فكانوا يطالبون لأقل نقل مئات الدولارات، وهذه، أيضًا، من أخلاق الحرب؛ تحوُّل الناس إلى مفترسين للآدميين. السائق الذي نقلني من عمان إلى بيروت تباهى أمامنا — نحن المسافرين — فاغري الأفواه بأن سعر الرحلة بين العاصمتين تراوح عنده من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ دولار، في حين أن الراكب، في الوقت العادي، لا يدفع أكثر من ثلاثين دولارًا بالكثير. وبكت السيدة المرافقة لنا تحكي أن ابنتها هربت هي وأولادها من «النبطية» إلى الحدود السورية، مع سائق أخذ المقابل سوار ذهب ابتاعته أصلًا بستمائة دولار، وظلَّ طول الطريق يسب إسرائيل بنت

الحرام، التي تشرِّد اللبنانيين المساكين، وتخرب بيوتهم، وتقطع أرزاقهم، و... وقالت إن ابنتها بعد نهاية «المشوار» ظلَّت مغتاظة، لا بسبب السوار، سيخلفه الله، ولكن لأنها لم تبصق في وجه السائق، والحقيقة أنها تشجعت، إنما خافت من سوء العاقبة، تضيف: هؤلاء لا ملة لهم.

كان هندامي عاديًّا جدًّا، وفي السفر البِسْ مثل كل الناس وابتعِدْ عن أي أناقة لتكون منهم، لتذوب فيهم. بَيْد أن حاسة الشم الكلبية عند بعض الواقفين في محطة «الكولا» تفوق كل تقدير. ولم يكن مصدر الخلل في الهندام قط، ولا في لكنتي، نجحت بالمعاشرة في تطويعها نسبيًّا إلى اللهجة اللبنانية، حتى وهي لكنات. مرد الأمر — في الحقيقة — أنني كنت أطلب سيارة تُقلني وحدي لا مع أنفار، كما يقولون هنا، وحين اقتربت من جماعة سوَّاقين ارتكبت الخطأ الأكبر الذي فضحني، حين طلبت أن أذهب إلى بنت جبيل رأسًا؛ هكذا نطقت باسم البلدة التي هي عندي ليست نهاية العالم، ولم أعرف لحظتها أني أكشف عن سذاجتي لأي سائق كي يطلب ما يشاء في رحلة يقوم بها المسافرون عادة على مراحل، منتقلين من محطة إلى أخرى، حتى الوصول. تهامسوا، اقترب اثنان واقترحا سعرين متفاوتين، لينبري ثالث معلنًا سعرًا منافسًا، فانسحبتُ متراجعًا لتنشب بينهم مشادَّة، سمعتُ — عن بُعد — تطاير تلك الكلمات الكبيرة الفاجرة، يتراشق بها اللبنانيون بسخاء و«ذلاقة» لسان، حتى إني من سخرية الموقف، نسيت ما جئت من أجله، وشُدِدتُ إلى لحظة، يسميها نقاد المسرح تراجيكوميدية، نازعتني فيها نفسي بين الهزء والحزن، وإن التمستُ للمتعاركين عذرًا — لا للسباب — هم أنهكهم العدوان، وقطع رزقهم أسابيع تباعًا، وها من يظهر لهم صيدًا أو فريسة، لا عجب أن تبرز نيوب الليث استعدادًا للانقضاض.

سمعت النداء: صيدا، صيدا، فانخطفتُ إليه. قادمًا من الجهة الأخرى من المحطة وراء الجسر، جسر الكولا، ألحظ حافل، نص نقل بيضاء، اقتربتُ منها هي شبه ممتلئة، اندسستُ لأجلس في آخر مقعد، لم يطلب مني أحد شيئًا، ولم يصدر عني كلام، وهي مناسبة جديدة أكدتْ لي أن الإنسان قادر على الاستغناء عن الكلام، أو توفيره ما أمكن. استغربت كيف أني لم أبادر إلى هذا منذ البداية؛ فالخريطة في رأسي، وخط الجنوب متدرج ومتفرع، وصيدا أول مدينة تقود إليه، منها سأنظم نزولي، بل هي محطة النزول الأولى، وعندي يوم كامل، حسبت أن عليَّ أن أعبَّ فيه الإنسان والمكان والزمان عبًّا، واستبعدت من ذهني كل ما بثَّه في سمعي بعضُ الهلعين من مخاوف؛ قلت، كما أفعل دائمًا، أتوكل

على الله، وأسترجع في كل اللحظات الحرجة وصية والدي: «اعقلها وتوكل»، ولنا نحن المغاربة قولنا المأثور: أن من يملك لسانًا في النهاية لا يضيع، وسمعت السائق، وقد امتلأ باصه: «يا الله، على بركة الله!»

١٠

انطلق الباص في الثامنة وأنا كلي حبور؛ ها رحلة الجنوب تبدأ، وتنفتح الطريق أمام أرتال السيارات في المدينة التي تستيقظ دائمًا باكرًا، تستقبل في الصباح أكثر مما تقذف خارجها. إن باصنا يخرج ذاهبًا في اتجاه الساحل نحو «خلدة» أولًا، نشقُّ الأوتوستراد بسرعة الريح أو نُسابقها، لن ترى أحدًا يسوق هنا على مهلٍ أو هو في حكم المجنون، لن ترى! الشاحنات المحمَّلة أكوامًا تشارك — بدورها — في السباق، تحسبها تريد أن تتخلص من أكداسها لتخفَّ فتطير بعدئذٍ. حين تعرف ما تنقل تتفهَّم رعونة سواقها الذين حوَّلتهم الحرب إلى ناقلي ومشيِّعي أموات: إنهم ينقلون الردم والحطام.

انظر: ذات اليمين وذات الشمال، وقد صرتم عند أرض الأوزاعي في الضاحية الغربية من طريق المطار، ينهض كثيبان، هما تلَّتان، تصبح الطريق حين تتوسطهما شِعبًا، وهما بينها تُخفيان ما وراءهما. عليك أن تشرئبَّ أعلى ما تستطيع لتراهما يصعدان، وقد انضم كل واحد على ما في جوفه، بل فاض عن الحمل حتى لا مزيد: أحجار، لبِن محطم، لبِن منسحق، أسقف هاوية، جدران مثقوبة، أسمنت ورمل وتراب بالأطنان، يتعالى فوق، تخترقه أنابيب القضبان الحديد مثل أصابع فلتت من أيدي أصحابها، أو هي أغصان لأشجار مجنونة. أنظر إليهما أصبحا خلفي، انقذفَ الباص المجنون، بدوره، فتظهر لي الحقيقة المرعبة كأنما أكتشف ما حدث للمرة الأولى: إنها مقبرة الضاحية الجنوبية، هنا يرقد جدث حارة حريك، ومن الغريب أنه جدث يتنامى، لا يمكن مواراته التراب دفعة واحدة، فأطرافه تتوالى في الوصول. بل هو لا يُوارى، وإنما يتعالى؛ البشر يقبر العمرانَ المطحون، يصرُّ، حتى وهو حطام، على أن يظهر، لكن السواق، كل المسافرين، مسرعون، «زهقانين!»، يريدون أن يصلوا: إلى أين؟ لم أسأل أحدًا. لم يهتم بي أحد، وكل ما في الأمر أنني لا أختلف عنهم لأنني — بدوري — أريد أن أصل بأسرع وقت، مع فارق ربما، وهو أنني لا أتوقع إلا مزيدًا من صور الحطام، أو هكذا بدأت تتوالد في مخيلتي لعبة الصور.

قبل ذلك شاهدت الضاحية، بيروت كلها، وقد عبر القصف، تُخرِج أحشاءها إلى العراء، وتنفض ما اعتراها من رماد، لتستقبل النهار، وتعطي للشمس وجهًا ناعمًا وصقيلًا. وهي

تحيا وتموت مثل كل ما على وجه البسيطة، فلا عجب، أيضًا، أن تملك مقبرة تدفن فيها ما يتفسخ منها، أو هو عرضة، دائمًا، إلى الفناء، وإلا كيف تتجدد بيروت، إذا لم تكن تموت، كيف؟! اسألوا أهلها! وانزاح الكثيبان عن الأرض، وعن العين والقلب، وحلَّ محلهما البحر الأزرق المديد، متباهٍ بانتشاره، كأنه لا يحفل بأرض تحمل إليه الموتى والنفايات لتلوث سحنته المزبدة في الضفاف. متغضِّن عندما يضيق البَر بما يتساقط فيه، بخرابه، فيزحف، ويحجب الأزرق، آخر علامة على شرق المتوسط، حين السحب السوداء غطت السماء، ونفاثات العدو تلقي مزيدًا من القنابل الفوسفورية. لا أرى الركاب منتبهين إلى لون فضة الصباح، يأتي من نهاية الأفق، تجلبه شمس ضوءها لامع، وشمسها حلوة بمذاق فاكهة ناضجة. لكني أراهم فجأة ينتبهون بعد أن خفَّف السائق فجأة من سرعة رياحه.

لم يكن له بدٌّ، ومن مقعدي الخلفي سمعته يلعن إسرائيل بتلك الكلمات المقذعة، المتداولة في القاموس اللبناني. والسبب اضطرارنا للخروج من الطريق السيَّار، ومناورته بممرٍّ فرعي، لنستأنفه بعد ذلك ونواصل إلى صيدا. في مدخل بلدة «الناعمة»، هنا حفرة واسعة أحدثها تفجيرٌ متعمد لقطع الاتصال، وسيصبح بوسعي، كلما زادت أمامي صور الحرب، أن أتوفر على خبرة تسمية القنابل، يميزها البعض من دويِّ الانفجار، أو من حجم الضرر. نقضي ربع ساعة في منعطف إجباري لا يزيد على خمسمائة متر، مما يضطر السيارات والباصات إلى الاحتكاك والعناد والتحدي، فيما الركاب يتبادلون النظرات في الفضاءات المغلقة، المختنقة بالدخان. رأيت منهم من يخرج رأسه من النوافذ فيتدلى جسمه وينكشف خصره عن مسدس ضخم محشور وراء الظهر. في سيارة مقابلة رشَّاشٌ مركون في زاوية، انحسر عنه منديل خفيف لا يكاد يخفيه. زعيق المنبهات إلى العنان، ولا أحد يقبل أن يتنازل ليمرَّ الثاني، لا وجود للتسامح هنا، ربما هذا أحد أسباب استمرار الحرب الأهلية خمسة عشر عامًا، ولولا تدخُّل الخارج لما وضعت أوزارها، ربما. التقت عيناي بصاحب المسدس وهو يسوِّي وضعه، ولعلِّي بدوت الأقرب إلى الاستغراب ما دام غيري رأى ولم يهتم، فندمت وركبتني وساوس لم أتخلص منها إلا و«الناعمة» وراءنا.

بعدها منتجع شاطئي لطيف «الجِيَّة»، وإن بدت مياه ضفته القريبة تتململ تحتها كتلٌ داكنة. سمعت أن القصف الإسرائيلي خلق أضرارًا بيئية في شكل تلوث الساحل بالمحروقات، وأراه هنا كتلًا سابحة، تتقارب وتتباعد كالمترنحة. ما لم يمنع من وجود بعض المصطافين في ساعات الصباح الأولى، سيغطسون في الزيت إن سبحوا. نترك الساحل

مؤقتًا لنلتحق به من جهة مصيف «الرميلة»، وتظهر الكتل الداكنة هنا طافية إلى أعلى وأكبر حجمًا وأشد سوادًا خاصة، يتفارق مع أسراب نوارس تحوم حول الشاطئ بعلو منخفض، تترصد، ولا شك، سمكًا، لكنها ما تلبث أن تستأنف تحليقها بمجرد الشروع في النزول لاختطاف صيدها. لعلَّ البحر، هنا، كفَّ عن أن يعطي السمك، أن يكون مصدر حياة، واستجمام، ومتعة. من الأفضل أن تشيح وجهك عنه؛ إذ الباص يستأنف سباقه وقد أصبح بمحاذاته. فالشريط الممتد الآن إلى صيدا، ومشارفها باديةٌ قطعةً رملية طويلة، اختفى لونُها تحت أكوام النفايات والمهملات، سواء مما قاءه البحر يردُّه إلى أصحابه الأصليين، أو مما تركه البشر هدية للغربان والحشرات.

أخيرًا، ها هي صيدا! إنَّا ندخلها بسلامٍ آمنين، لكن، من أسف، من مطلعها تُرى لا تسر الناظرين. العفن من وراء، والخراب أمام. خُطتهم محكمةٌ هؤلاء الأعداء؛ أن يبصموا في مدخل ومخرج كل مدينة وبلدة. في أول جسر عند المستديرة المؤدية إلى «الشويفات»، بعد طريق المطار من بيروت، ثقبوا الجسر من الوسط، وهنا الجسر المعلَّق، الذي يفضي إلى الجنوب رأسًا، وهو صلة وصل حيوية وعلامة هندسية بارزة، شيَّده الراحل الحريري قبل أن تمتد إليه يد القتل الغادرة، أهداه، كما أشياء أخرى، إلى هذه المدينة المقرونة، من بين أعيان آخرين، باسمه. سقطت الصواريخ على مؤخرة الجسر، محدثة فيه فجوات قطعته عن خط السير الذي قبله. بذا انقطعت المواصلات المعتادة، وهي كثيفة عادة، من الجهتين فصبَّت في المدينة، عليها أن تتحمَّل تدفق عربات لا ينتهي من كل نوع.

إنما الميناء الصغير لصيدا ما ألطفه، يستقبلك عند مدخلها، ويحتفي بك في جبهتها لينحسر بعد ذلك تاركًا لليابسة كلَّ حقوقها، وقد أخذ حقَّه في أن يمنح لساكنتها فسحة سكينة وجمال، وصورة مُثلى عن كيف يكسب الإنسان رزقه. هي قوارب زرقاء شبه متداعية، أبحرت ليلًا، وعادت فجرًا، دأْبَ الصيادين هنا من آلاف السنين، أي قبل أن تُزرع إسرائيل في بلاد العرب، وتسرق الأرض والبحر. وباحات المقاهي قبالته، لا شك أن القمر ينزل مساء ليسمع موالًا، ويأخذ رشفة شاي ونرجيلة قبل أن تشقَّه إسرائيل إلى شظايا، ويتبعثر على صفحة الماء. تخيلت أن الصيادين الذين سيبحرون في الأعوام القادمة إنما سيرمون شِباكهم ليلتقطوا أصابعه وشفتيه وخصلات بلَّوره، وعينيه خاصة، عساها صيدا تستعيد ضياء القمر، ويعود الصبية، بنين وبنات، يلعبون على ضوئه، يحميهم من الغول وهو ينير.

١١

في محطة النقل الصيداوية نزلتُ. ساحةٌ تتجمَّع وسطها، وحول أرصفتها، سيارات نقل من أحجام مختلفة. بين كل بضعة أمتار أكشاك لإعداد القهوة وبيع سندويتشات. مثل هذه المحطات تجده في كل مكان من العالم الثالث، شبه ساحات لأسواق موسمية، فوضى واضحة بين غادٍ ورائح، ولا علامة ترشد لأي شيء، وعليك أن تفتح حواسك لتدلَّك، وتنتبه حولك جيدًا مخافة محذور أو وسواس، بل عليك أن تستخدم حاسة سادسة لتهتدي وسط الغش والمزايدة، ولك أن تقتحم، ولا تظهر كعصفورٍ جريح ينتفض، وتتقدم نحو أول سيارة تقصد مدينة صور، انتهينا من السيارة المفردة، والانحشار مع الركاب أفضل. هذا ما قررتُه — وعيًا لا اضطرارًا، كالسابق — لأني من هذه المحطة سأنطلق فعلًا إلى الجنوب. كنت أفهم، أستعجل الفهم والإحساس، بأن وجهتي وغرضي وما أسعى لمعاينته — حقًّا — إنما يقع دون صيدا بمسافة طويلة. صحيح أن لبنان، في النهاية، بلد صغير المساحة، بين عاصمة آل الحريري وبيروت لا تزيد المسافة على أربعين كيلومترًا في ظرف ساعة بسبب ما سلف ذكره، وهي عادة لا تزيد على النصف، وضعفها للوصول إلى صور. غير أن المسافات نسبية، تطول وتقصر بدرجة الإحساس بها، بدواعيها، وهي عندي كثير.

محشورًا إلى جوار راكبين في الخلف، وأمامنا راكب محظوظ في الأمام، انطلقت السيارة المرسيدس الحمراء، من طراز نصف مهترئ، تنهب طريقًا مزدحمًا، كالعادة. ولاحظت الركاب يدفعون ففعلت بحسب سعرهم، وانصرف السائق إثرها إلى هوايته المفضَّلة، أعني التدخين واحدة إثر أخرى، تظنُّه في مباراة مع مجاوره يعانده؛ هما — معًا — لا يعبآن بنا نحن الذين سعالنا يثقب سقف السيارة الفارهة! لولا دعة توحي بها الطريق — رغم تعثُّرها — تنساب، وتتعرج، بين حقول الموز. هي غابات موز على حد البصر، وبالجو الحار لصبيحة أيلولية، لم تخف رطوبتها، تحسبك في بلد استوائي بأمريكا الجنوبية، في زمنٍ خالٍ من الحروب. وتعبر سيارات نقل متوسطة تحمل في حاوياتها صناديق متخمة بالبطاطس، والطماطم، والتفاح: خيرات من مزارع المنطقة صاعدة إلى صيدا وبيروت، تفيد أن دورة الحياة تستأنف نشاطها، ربما لم تتوقف يومًا، فالبشر يزيد نهمُهم في الحرب وخلالها، يميلون إلى التخزين، ولا يتورعون، أحيانًا، عن أكل بعضهم البعض. لم أستنتج شيئًا، وإنما حديث المتباريين طغى على الأسماع؛ هذا يقول: «يا زلمي»، وذاك يرد: («يا زلمي»، تصور البندورة ثمنها صار هالقد؛ والخيار تعرف حقو قديش، بسعر الصاروخ؛ يا عمي والدراق، شو هالعالم جنُّوا، ما بيستحوا، ما بيخافوا من ألله)

ويزيد الجار الأسعار بلَّة: «بعدين يقولوا أخوات... إن إسرائيل هي السبب! كيلو باذنجان حقو خمسة آلاف ليرة، قليلة!» وقبل أن يتدخل أحد من الخلف، بادر السائق إلى قطع الطريق على أي تجريح أو انتقاد قد يمس جماعته، الذين نهبوا الهاربين على أقوال شهود عديدين: «المواصلات كمان غليت، مش بس شوية، كثير، شو بدَّنا نعمل يا خيي، ما هيَّ البنزينات غليت.» استطرد بعدها يتحدث عن خزَّانات الوقود بالجيَّة التي احترقت، وقسم كبير منها تدفق في البحر فتلوَّث وسمَّم كل السمك، وسعر صحن «صيَّادية» طار، «وانا ما باكل لحم، من وين بدِّي جيب سمك، وأم علي رايحة جاية عند الجيران بلكي يطلع بيدها شي، بدَّك تندب ليلتي سودا مع أبو على؟!» أما أنا فأردت أن أقول لهم بأن العباد، لو كانوا عاقلين، قنوعين، لاستطاعوا أن يعيشوا زمنًا على هذا الموز، أو لصمدوا مثل المقاتلين، لكني آثرت السكوت، كما التزمت، عن الكلام المباح.

ضغط السائق على الحصَّار في اللحظة الأخيرة قبل أن يصدم العربة أمامه، وهي قبل أن تصدم سابقتها، وهكذا ... لا شيء. مستديرة جديدة أخرى من عشرات في الطريق، فالجسر ذاك، انظروا، «مفلوش» من الوسط، وانحرفنا يسارًا، وصعدنا هضبة، وعدنا انحدرنا، لنصعد فنهبط أخيرًا مع فرع موحل كي نستأنف المسير. قليلًا فقط لنعود إلى التمرين نفسه، فليس من جسر أو قنطرة، أو قنيطرة إلا وتكسَّرت أضلاعها بفعل القصف، إنما المثير أن هناك من يقوم بجبر هذه الأضلاع بأي وسيلة؛ بألواح خشب، قصدير. هنا وهناك عمال يجلبون أعمدة ورملًا، يفرشون فوقها أكياسًا ويعيدون، لتعبيد المرور خطوة، خطوة. الطريف أن ترى جو مرحٍ كأنه إصلاح لا علاقة له بما تسبَّب فيه، وظننت أني وحدي المشغول بالهواجس، وسيتأكد هذا الإحساس كلما أوغلت في «مشواري». عزوت ذلك إلى محن حروب سابقة، إلى سلسلة أنواع العدوان الإسرائيلي على هذا البلد قبل احتلال ١٩٨٢م، وصعدًا إلى صيفنا في ٢٠٠٦م، ودُرْبة السكان على التحمُّل والصبر، والنهوض كأن شيئًا لم يكن. وهل تُنسى الحروب الأهلية القديمة بين الطوائف؟! قلت إن لهذا الشعب جبلة خاصة تحصِّنه ضد الآفات، وتجعله يستعيد عافيته. همُّه أن يبقى، أن يعيش مجددًا، لا ما فات. بينما شعوب أخرى، منها شعبنا المغربي، إذا أصابته محنة اعتبر أنها من علامات الساعة، وغرق أكثر أهله في النديب والنواح، بدل الإسراع إلى رأب الصدع والبناء، مثل هؤلاء القوم الشجعان.

ضغط السائق — للمرة التي لا أذكر — على الحصَّار فإذا رتل السيارات يعود يستدير، وكل سيارة على حدة تجانب حفرة هائلة فُتِحت في وسط الطريق كالبالوعة.

صاح الجليس الأمامي بنبرة الخبير: «هذه آزان!»، واسترسل في تعريف الآزان وصُنعِها وأوصافها وآثارها على الأرض والآدميين. وبعد دقائق تبيَّنتُ أني الوحيد من ليس خبيرًا عسكريًّا بين هؤلاء؛ درَّبتهم الحروب على أنواع السلاح، وفهمتُ أنه يعني قنبلة الأوزون الغازية، وهي تُحدِث ضررًا فادحًا بهذا الحجم، وكلما تقدمتُ سأرى أنواعًا من فعل هذه القنبلة المخيفة، على الأقل لي أنا، الذي وجدتها فرصة لأمتحن شجاعتي، افتراضًا بعد أن سكن الرصاص.

ماذا أقول؟ سكن؟ في حدود ثلاثمائة متر إلى الأمام، ولم نتبيَّن، قُل اختلط علينا السمع والبصر، انفجار، انبثق من أرض أم سقط من سماء، أم بينهما. سمعت باللهجة اللبنانية: «إنبلة! إنبلة!» حقًّا كانت قنبلة من دخانها المتصاعد، بصراخ محتدم حولها، واكتظاظ، ومن الجهتين توقف السير على الطريق. نزلنا جميعًا، ونحن نرى بشرًا بحركة متضاربة في كل اتجاه، وبسرعة البرق، وصل الخبر أن هناك جريحيْن وربما قتيل، ولا أحد قادر على التدقيق. سائقنا المغوار رفع راية الاستسلام، وقرر العودة من حيث أتى. آخرون مثله شرعوا يتقهقرون، خاصة بعد أن أشيع أن طائرات للعدو تحلق غير بعيد، وربما تضرب، لكم تمنيت حقًّا أن يكون الخبر صحيحًا لأرى كيف تقصف، رغم أني لست متعجلًا على الموت؛ عندئذٍ، سأقول إني حضرت هذه الحرب، ولم أكتفِ بالمجيء للتفرج على الدخان. رغم خفوت الضجة بقي الحابل مختلطًا بالنابل، وزاد أن نارًا اشتعلت في محرك سيارة، وإذا نحن في سيرك لا تنقصه إلا القردة. صرتُ مصمِّمًا، أكثر من السابق، على الوصول إلى الجنوب؛ فلم ألتفت خلفي للسائق الذي تخلى عنا، رغم أننا دفعنا الركوب، واجتزت نقطة الانفجار؛ أصبحتْ حفرة، قربها بادرني سائق ظنَّني من العائدين، فقلت باستسلام زعمًا: «ع - صور». ركبت معه، ولم أدفع في انتظار الوصول، ما لم يمنعني من استحضار صور آلاف العائلات هاربة من القصف في نزوحها إلى الشمال. أقول إن الحرب ليست لعبة، والحياة — دائمًا — خير من الموت، والاستشهاد غير المجازفة، كما أن الشجاعة لا تعني التهور البتة؛ ومن لسعه ثعبانٌ يخاف من الحبل.

١٢

نحن الذين قررنا المضي قدمًا، رغم مخاطر السفر البينة، لم نكن لا مغامرين ولا مجازفين، ما لا يعني أننا كنا شجعانًا بالضرورة؛ ذلك أن قلقًا غامضًا ظل يلبسنا، أحسستُ بكل واحد منا، نحن مسافري سيارة الأجرة اللاحقة، يداريه مكابرة. كان لجيراني منطقهم

الذي لا يغلب: ما الذي يمكن أن يحدث لنا أسوأ مما جرى عندما بدأت القنابل تنهال فوق بيوتنا، ولم ننجح في تهريب أولادنا إلا بمعجزة! أما وضعي أنا فمختلف، هذا ما أوحوْا لي به بكلمات تقول معناها مداورة، لكن لا أحد من هؤلاء تلفَّظ بعبارة، ظاهرها فضول عادي، وباطنها يحتمل ما تشاء، عبارة: «شو جابك لهون؟!» أو تسمعها لاحقًا: «شو أخدك لهونيك؟!» كلام يتلفظه المسافرون أو الفضوليون، لا يهمهم أن يجرح، أو يثير شبهة ما بقدر ما يميلون إلى شغل الوقت بالهذر، وفي موقفنا، فهي طريقة للهروب من خوفٍ، توقُّع شيء مفاجئ من قبيل انفجار محتمل لقنبلة أخرى؛ فالطريق، كما يقولون، فيها جوانب متناثرة، مزروعة بالقنابل التي لم تنفجر. ما لا يمنع السيارة من أن تشقَّ طريقها بالعناد والصلابة المعروفة عند أي سائق عربي إلى، إلى أن …

وصلنا إلى «صور»، ومن مدخلها تعرف أنها صور، باب الجنوب، باب معاقل حزب الله، هذا ما أسرَّ به إليَّ الشاب الجامعي، الذي اطمأن في السيارة إلى شخصي، واغتبط — نوعًا ما — لوجود مواطن عربي يصل إلى هذا المكان، في هذا الظرف بالذات. الطريف أن استغرابه راجعٌ إلى أننا بربر، فلما أفهمته بأننا بربر وعرب، ونحن — جميعًا — ندين اعتداء إسرائيليًّا على أي بلد عربي، وأننا — أحيانًا — نصبح فلسطينيين أكثر من الزعيم الراحل ياسر عرفات؛ أفهمته هذا فحرَّك رأسه دون أن يفارقه استغرابه. وقفز في جلسته الضيقة، وهو يشير إلى اللافتات والصور المعلقة عند مدخل المدينة: انظر، انظر، أنت الذي جاء من المحيط، هل عندكم مثل هذا؟ قال عبارته. لم أفهم: هل ينبهني أم يسخر، ولماذا يسخر؟

لا يتغير شيء كثير بين «صور» والضاحية الجنوبية، هي ذاتها شعارات حزب الله: «وعدٌ رعدك، خيبر فجرُك!» تغطي مساحة لافتة كبيرة بعرض الشارع، تقرأها هنا وهناك؛ السيد حسن نصر الله، بلحيته الكثة وعمامة الإمام، والنظرات البعيدة تنسجم مع تقاسيم الوجه في صنع ابتسامة متسامحة ونظرة واثقة، هنا وهناك. صخب فازدحام أقوى من سابقين عليهما، بين السكان والتجار، والمقاتلين، طبعًا، غير الظاهرين، طبعًا، فنحن هنا في القاعدة الخلفية للحرب والحزب والمقاومة، ولم أكن في حاجة إلى دليل لأفهم هذا الوضع، إنما المثير — حقًّا — هو أن الزائر ينسى، سينسى سريعًا، دلالة المكان الذي يوجد فيه بسبب الحياة الضاجة، حياة العيش الطبيعية المعتادة. السكان يحيوْن، يموتون ويستشهدون، ماتوا، وها هم عادوا، إني أراهم يعودون. حلَّق فوق رءوسهم طيار، وقتلَ ما شاء، ثم عاد إلى قواعده سالمًا، غانمًا بعد أن قتل ما يكفي ويزيد من اللبنانيين، من العرب. في القاعدة الجوية هنَّأوه لأنه أدى المهمة، القتل، بنجاح، وسيبعثونه في مهمة

لاحقة ليتدرب أكثر على قتل العرب. وهم ماتوا سابقًا، وأراهم يعودون، يصخبون في الأسواق والحارات، وحتى بينهم شباب يناغون الصبايا، ويأكلون ويشربون، ويكبِّرون دائمًا، ويصلون على النبي، وعلى آل البيت أجمعين.

وأنا — والله — لم أكن في حاجة إلى دليل إضافي، إذا حصل المعنى، الموت، لا فائدة من التكرار قط. أوافق على قول/عملة الفقهاء هذه، لكن ما صادفني/صادفنا في الطريق بدا لي أكبر من معنى الموت، أعلى من الخيال؛ دعاني إلى التفكير في المعنى الذي نعطيه لبعض الكلمات، أو المفاهيم، كما نصوغها، ونصبح نرددها — ببداهة — لأننا أعطيناها — يومًا ما — معنى وانتهى الأمر. يأخذ التعريف المعنى، يهيمن عليه إلى الأبد، فيما يعطل التفكير. قلت هذا لأن المقبرة ظهرت دفعة واحدة وألغت في نظري كل الحدود. نعطي ما نشاء من التعريفات للخيال، هي — دائمًا — تقف أعلى من الواقع، وتتعالى على الممكن. والآن أرى أمامي خطل هذا التأويل، وأتساءل: لماذا نشِطُّ، بينما الواقع غني؟ من الغنى أنه يمدُّنا بوفرة مواد تغلي بالدلالة والخيال؛ بعبارة أخرى، وأمام المقبرة، وجدتني أقول إن الخيال ببساطة ليس إلا الشيء الذي لا تعرفه. هناك شعوب تمارس طقوسًا مدهشة، هي عندنا ضرب من السحر والغرابة، فيما تعتبر لديها ضربًا من واقعها الخاص، تعيشه على نحوٍ معينٍ، وحتى لو نظرنا إليه، خيالًا وأسطورة، فهي تساكنه وتُبيِّئه، وبالتالي يصبح جزءًا من عالمها، وننظر إليه نحن خيالًا يتسامى عن الوجود المادي.

أبطأ السائق السير فجأة، كما أسرع، فالطريق عادت عرجاء، ليس بسبب أي قنبلة ولا لوجود حادث. أنت لا تكاد ترى أي حادث سير عند هؤلاء السُّواق الأشاوس، رغم سرعتهم البرقية. وإذن ماذا؟ تطوع الشاب مرة أخرى ليشرح لي الموقف، ويسرِّي عن نفسه، بعد أن التزم الصمت وقتًا؛ قال: «إنها المقبرة». وأضاف، يشير إلى يمين السيارة: «انظر، هذه». كانت مقبرة فعلًا، لكن بشواهد مقلوبة، ومثقوبة بالحفر، وكثير من قبورها تظهر مبقورة. يا إلهي، ما هذا؟! طلبتُ من السائق أن نتوقف شأن آخرين سبقونا، فكرت في الترحم على الموتى. شرح الطالب الجامعي: إن الطائرات حلقت على علو منخفض، ورأت هذا الحرش، ولعلهم فكروا أن المقاتلين يختبئون هنا؛ فألقوا كمية من القنابل، وكرروا وانسحبوا، ثم ظلوا يعودون ويرمون؛ لأنهم، على ما تناقله رواة عديدون، ظلوا يرون أشباحًا تتحرك داخل المقبرة ثم تعود فتختبئ. أذهلتني هذه الرواية، ففي هذا العدوان الإسرائيلي الجديد لم يسلم أحد، الموتى أنفسهم نالوا حقَّهم من الموت مرة أخرى. المثقفون والأدباء والصحافيون في الحمرا — وحدهم — يعلِّقون على الأحداث، أو يكتبون مقالات

ومرثيات فاترة، وأحيانًا يتحسَّرون، لكنهم — بكل تأكيد — لا يموتون. الموتى هنا ماتوا عدة مرات، بلا عدد. كانوا في الحقيقة نائمين، يحلمون بالوقت الذي سينتهي فيه العالم نهائيًّا، وتقوم القيامة لينالوا الجزاء أو العقاب. غير أن القصف كان من القوة أن قضَّ مضجعهم، وحين استيقظوا وجدوا أهلهم يقاتلون فانضمُّوا كلهم إلى المقاومة مستبسلين، والنتيجة، انظر، صرتُ أنا من يخاطب الطالب اللبناني، وهو يحملق فيَّ متعجبًا، لقد غادروا مقابرهم، ولم يعودوا إليها؛ لذا هي مفتوحة. ومن المؤكد أن كثيرين بينهم استشهدوا في أماكن أخرى، ومع ذلك فشواهدهم ستنتظرهم لأنهم سيموتون أيضًا، وأيضًا.

فاتتني أمور كثيرة حين كنت أسمع أخبار الحرب وأتتبع مقاطع منها مصورة. وكالات الأخبار أجمعت على أن الجنود الإسرائيليين صُعِقوا مما رأوا. تقول الوكالات إنهم لم يكونوا يرون شيئًا أو تقريبًا. تقريبًا تعني هنا أنهم حين دخلوا بعض الضيعات التي حسبوها آهلة بأفراد المقاومة، وأيقنوا من وجودهم — بحسب خبرة معينة في الميدان — لم يكونوا يصادفون أحدًا، لم يعاينوا أحدًا. لكنهم خرجوا إليهم مرات. من هم؟ قالوا لضباطهم، والرعب يتآكلهم، وهم ينحشرون في الزوايا كالقطط: إننا رأينا أشباحًا، وفوق هذا تُطلِق علينا النار، وتُوقِع فينا قتلى، أجل! رغم أن الطالب — إلى جانبي — بدا غير قادر على استيعاب كل ما أقول، فإنه صار يردد معي: أجل، لم لا، أجل! واتجه يخاطب الركاب الباقين، يسألهم عن رأيهم دون أن ينتظر في الحقيقة أي تعليق، فكأنه وجد أخيرًا التفسير المطلوب لما ردَّده الرواة عن المقبرة، وحيَّره، وراح يرويه كخرافة. ولعلَّه — من شدة تأثره — قفز إلى عنقي وعانقني، وأخذ يجهش بالبكاء وعيونه ضاحكة، وأظنني شاطرته الدمع، وأنا أفهم — للمرة الأولى — معنى الخيال.

١٣

أيقنت أننا اندمجنا في الطريق إلى الجنوب، ليس بعد أن اجتزنا «صور» وحدها، بل وعندما أخذت المسالك تزدحم بصفوف من الشاحنات حاملة أطنان المساعدات المختلفة إلى المناطق المتضررة. كنت قد رأيت قسمًا منها في الطريق السوري، وعند الحدود اللبنانية، أما هنا فتراها وصلت أخيرًا، وكثير منها مسجل بإيران. قرأت في الصحف أن وفودًا إيرانية إنسانية ومذهبية ونسوية تحل بلبنان للتضامن والدعم، لكني لم أقدِّر حجم الحركة إلا ونحن نتقدم كيلومترًا إثر آخر، ونرى أفرادًا منها وقوفًا عند مواقع منكوبة، كما أتيح لي أن أشاهد منصة تجمَّع حولها السكان يهتفون بشعارات منددّة بإسرائيل، مناصرة لحزب الله والإيرانيين ترحيبًا بخطيب معمَّم يحيط به شباب ملتحون.

أيقنت أننا في الطريق إلى «بنت جبيل»، وقد بدأت التضاريس تتبدل تدريجيًّا؛ فمن السهل المنبسط الذي تمتد فيه حقول مزروعة على الأغلب بالموز، راحت تلال خفيضة تتراءى عن بُعد، وكلما اقتربنا منها ضاقت الطريق وهي تأخذ شكل التواءات، وصعود ونزول ما يميز المناطق الجبلية عمومًا، مع الواضح أننا لا نصعد الجبال. هناك في أفق نظرة تتكاثر الهضاب وتُرى الأرض صفراء من غير أن تكون قاحلة. لا توجد هنا خضرة، ولا أشجار كثيفة أو بدون. الطبيعة عمومًا تتناقض كليًّا مع الغضارة الهائلة في مناطق لبنان الأخرى، الجبلية منها على الخصوص. من غير شك هي أرض وعرة، ضيقة المسالك، ما لا يمنع السائق من مسابقة الضوء. نعبر بلدات، وعلى الجانبين شبه قرى متناثرة، إنما لكل مكان اسمه، وهيبته، والأهم من كل هذا، وفي سياقنا الحالي؛ أن كل بلدة تناوب عليها القصف حدًّا لا يطاق.

حرصتُ، وسيارتنا تخترق تلك الأمكنة، على تسجيل أسمائها في مفكرة صغيرة مطوية بيدي، أدوِّن فيها بسرعة مختلسة حتى لا «يُفتضَح أمري» فقد قلت — مرارًا — إني لا أحب أن أظهر مختلفًا في الترحال، أما في الحل فذاك شأن آخر. كان دافعي وقتئذٍ احتمال العودة إليها إن عنَّ لي أن أكتب شيئًا عن مشاهداتي، وهذا أمر، على ما أظن، ليس محسومًا دائمًا لدى الكاتب، أقصد تدوين الرحلة، اللهم أن صاحبها ينفذها لغاية مخططة سلفًا، وعندئذٍ، أشك أنها ستتعدى التقرير والوصف ليفيد. وإذ لا أنكر عنصر الإفادة وأهميتها، أرى أن البحث عن اكتمال للذات في سعيها لمعرفة ذاتيتها من خلال الاتصال والاكتشاف والتفاعل مع الآخرين والعالم الخارجي، ولزيادة خصوبة الإنسان عقلًا وخيالًا، لهو — حقًّا — ما يجدر دافعًا لتدوين الرحلة أساسًا.

أجل، حرصت على تدوين أسماء الأمكنة للسبب الأول الذي ذكرت، ولأني رأيت فيها أكثر من بناء، بل هي شاهد على زمن، ونصب مثير بعد أن تناوب عليها القتل والدمار، وانتصرت عليهما معًا، بدليل أنها باقية، وتخاطبنا، تكلم جميع المسافرين الداخلين إليها، والخارجين، الذين نزحوا منها، عشرات الآلاف، والعائدين. لكني اللحظة، وأنا أكتب، أنساها عمدًا، أستبعد أسماء معظمها. لا أستبقي إلا ما يفيد في التمثيل. لا يفضل عندي مكان على آخر، وتتمجد كلها بالصبر والنصر. وأطلب من كل من سيمرُّ غدًا من هذا المحج أن يتمهل، فهنا — فعلًا — ما ترى أديم الأرض إلا من أموات، وأن يقرأ الفاتحة ترحمًا، أو يضع زهرة عند أول حجرة تصادفه، فهي كالشاهدة الجماعية. هذا ليس التمني، لا، ولا الوقوع تحت «سحر» الأسى، لكنها المعالم تقول الرهبة، الفظاعة؛ تتبجَّل بصورة للقيامة

غير مرئية، تتحول، على ألسنتنا، إلى مجاز، إلى خيال، لأننا لا نعرفها، بينما هي هنا حية، صدقوني أني «رأيتها» بالعين المجردة في «صدِّيقين»!

لي أن أقول — بيقين — إن بلدة «صدِّيقين» تمثِّل العنوان الأبرز بين كل ما شاهدت — بعد الضاحية الجنوبية لبيروت — لطبيعة العدوان الإسرائيلي على لبنان مما نحن بصدده، بالصور المشخصة الدامغة. تصل إلى هذه البلدة فتجدها ترتفع على تلة خفيفة العلو، وهي تصعد تدريجيًّا، تضاريس وأبنية، أقصد ما صار حطامًا. خفَّف السائق السرعة إلى أقصى حدٍّ بدون طلب، كأنما صار يمشي في موكب جنازة. على يمين السيارة ويسارها الأبنية — ما كان — متداعية: طراز من بيوت صغيرة ومتوسطة عند مدخلها باحة أو روض. أصبح مأوًى لما تهدم، الأسقف واقعة، والجدران تتقاطع كأنها تتساند، والأحجار واصلة، هي والتراب، إلى الأسفلت. نحن نصعد والبناء يهوي، هوًى. محلات بقالة واقعة الأبواب، مبقورة كذبائح؛ مدرسة تداعت فصولها، لم يبق إلا اسمها، لا أعرف هل هو الفلاح أم الصلاح؛ نصف مسجد؛ ثم صف أبنية مدكوكة ما زال يتهاوى، آخر ملتوٍ، مشروخ، على مرمى البصر تنتشر أكوام سوداء، رمادية، أسلاك متشابكة، أقواس، نصف أقواس، نصف أبواب، نصف نوافذ، بقية أطراف دبابة. باختصار لم يُبقِ القصف من صدِّيقين إلا صدق ما ترى العين، وما يعزُّ عن الوصف إلا بكلمات تقريبية. هنا — حقًّا — تصبح قدرة الكلمة والصفة والاستعارة محدودة، إن لم تك بلا جدوى أمام الصورة، ولذلك التقطتُ الصور الممكنة عن دمار يشبه ما حدث في الحروب الكبرى التي شاهد جيلنا مقاطع منها في أفلام وثائقية، وأخرى تخييلية. وعليه فإن ما جرى في هذه البلدة اللبنانية لا يقل في شيء، مع الفارق، عن دمار ومعركة ستالينغراد الشهيرة في الحرب العالمية الثانية.

وتبقى الحياة، في مواجهة كل ما يعز عن الوصف، تلهو، تصر على البقاء من بريق عيون الأطفال. طلبت من السائق — بمساومة — أن يتوقف دقيقتين لألتقط صورًا لخرائب صدِّيقينية، ونزل من معي؛ ربما ليقتنعوا أكثر بهول ما يرون، وفي اللحظة التي ضبطت فيها الصورة الرقمية وسأضغط على الزر، ظهر من الأنقاض أولاد مفاجئون بسراويل قصيرة، وعلى صدورهم أنصاف قمصان، أو عراة. أظنهم كانوا خمسة، وجوههم ورءوسهم مغبَّرة. في الصورة — التي لم ألتقط — رأيتهم يتفاجَئون، وإن لم يفزعوا. تجمَّدوا في وقفتهم وبأيديهم، كل واحد بيده شيء ما، ومعهم تجمدتُ، ورأيتهم يتبادلون النظرات كأنهم يتشاورون بينهم، هل يسمحون لي بأن أصورهم — كما يحب جميع

الأطفال — أم أن بينهم إشارة. خفت أن أجرحهم لو صورتهم؛ أنا لا أعرف بالضبط مما خفت. بل خجلت رغم أني تراجعت. شعرتُ أني مثل أولئك السياح — البلهاء من جنسيات العالم الغربي — يتسلون بتصوير الأهالي والسقَّائين والجِمال، وهم يندسون بينهم، بعد أن يتصدقوا عليهم، ليعودوا إلى «تحضُّرهم» بهذا العجب العجاب. قلت سأرتجل لأفك العقدة فسلمت: «مرحبًا عمو!» فردوا — جميعًا — مهللين، وتململ الموقف وهم يبتسمون، ثم يضحكون، رأيتهم يتقافزون، عادوا واختفوا فجأة عن ناظرنا جميعًا، هم اختفوا من جديد وراء الأنقاض، سمعناهم يتصايحون، وربما كانوا يتقاذفون أو يجمعون أشياء الغبار، لكن في الأحوال كلها، ورغم كل هذه التعاسة، يريدون — بطريقة ما — التعبير عن أنهم فرحون، أنهم يلهون، أنهم مختلفون. هو وضع يخصُّهم في عالم خرب، حتى والقذائف أكلت لحمهم، حتى والصواريخ هدمت بيوتهم ومدارسهم، فإن لهم وقتهم لا يشبه أوقات الآخرين، وحياتهم ينتشلونها من الموت المنتشر حولهم. من حيث لم أنتبه عادوا يخرجون، جعلوني في الوسط، وقد صنعوا حلقة وصاروا يدورون: «عمو دخْلك صوَّرنا»؛ «عمو صوَّرنا!» وكفَراشٍ أبيض رفرفت أجنحتهم، حولي يتطايرون. دخل الآخرون معهم، نسألهم ويسألوننا، صرنا جميعًا في الصورة ونسينا الحرب، وأطلال صدِّيقين، وفرحتُ لأنهم — رغم كل شيء — يعبثون بصباهم، وإن بطريقة جدية تمامًا، بعد أن انبرى واحد منهم وفي يده خشبة سدَّدها إلى السماء وراح يطلق النار: تَ تَ تَ.

١٤

من «صدِّيقين» بدأت السبحة «تكرُّ» وحدها، أعني تتالي البلدات المدمرة. أنت لا تحتاج أن تميز — إلا بنسبة الدمار — هذه البناية، أعلى أو أسفل أو أهوى، من تلك. هذه جدرانها انهارت فوقعت أمامها، مثل ذبيح خرجت أحشاؤه وهو لا يزال يعاينها. تلك تماسكت جدرانها، فيما سقفها تجوَّف داخلها وإذا هي مثقوبة، مكشوفة من أعلى كفوهة بركان، وحِمَمُها هي قطع الآجر المحترق متداعية حوالي الجدران، كأنما أخرجت ما في أحشائها في فورة غضب، تظنها توجعتْ لما قُصِفت فانتفض ألَمُها إلى الخارج بعد أن ضاق به الداخل.

إنما أي مفاجأة أن تدخل «قانا» ولا تعرفها، أو تقرأ اسمها على مدخلها فيشغلك عن النظر إلى ما حولك لتتحقق بالعين لاغيًا الإسقاط. هذه البلدة اشتُهِرت في لبنان، وخارجه، حين قصفها الإسرائيليون سنة ١٩٩٦م تاركين عشرات القتلى والجرحى. وفي عدوانهم الأخير كان على أبنائها أن يؤدوا — باهظًا — الانتماء إلى الوطن، والأطفال خاصة. «قانا»

دخلناها في مقتبل الظهيرة، وبدت أبنيتها متماسكة، ومن لم يسمع بالقصة لن يخمن حدوث المأساة، هناك في الطرف الآخر، الأبعد، هناك، قال السائق، وهو يشير نحو منحدر يقع في الجهة اليسرى القصوى بين بضعة أشجار تتخلل بيوتًا في منحدر.

ذكرت الأخبار أن سكان قانا، مثل بلدات أخرى، تركوا بيوتهم واختبَئوا في ملجأ حسبوه آمنًا. أضاف الخبر، وهو من مصدر إسرائيلي هذه المرة، أن طياريهم اشتبهوا في وجود مقاتلين بالمخبأ، أي إن النساء والأطفال أصبحوا يقاتلون فجأة؛ فأرسلوا صواريخ دمرت الأرض فوقهم، فهم كانوا تحتها. ومن الضحايا الأُول زينب، قتلوا الطفلة زينب ذات الربيع الثالث. كنت شاهدت — على الشاشة — أباها وهو يستخرجها من الحطام؛ قدم، ساق، ذراع، جسد رخو، وجه عيونه مسبلة وشعر قليل منكوش. ثم في اللقطة الثانية أبوها يرفعها أعلى ما يستطيع بزندين قويين كأنما ليُشهِد السماء على هذه الجريمة، وعلى ما حاق به من ظلم. ثم في لقطة ثالثة مباشرة أراه يركض وهو «يشيلها» بين يديه، لا تعرف في أي اتجاه، وملء وجهه، ملء فِيهِ صرخة صامتة، قل مشروخة من مظهر التكسر الذي على الملامح، وأخيرًا أظنه يجثو على الأرض قد قُسم ظهره، وزينب دائمًا بين يديه، يهديها إلى السماء من حيث سقطت قنابل الغزاة.

أخبرنا السائق أن أهل قانا لم يبكوا أحدًا من قبل كما بكوا زينب. لم يكن في بلدتهم حطام كثير، ورجالهم التحقوا بالمقاومة، فبقي الأطفال والنساء، وبعض الكبار للحماية، وماتت هي. في الباحة القريبة من الملجأ وقفتُ، جثوت أمام قبرها. يا لهذا القبر ما أصغره. كف يدٍ تقول أو وَكْن عصفور. نبت الحبق فوقه سريعًا، أسمح لنفسي بالقول إنها دموع كل من مرَّ من هنا ما سقاها. ورود منثورة، وحقًّا فوقها طيور تحلق وتعود. جثوتُ وبكيت بصمتٍ. لم تستشرني دموعي فابتلَّ الحبق الذي ارتعش، وبعيون خلف الغمام رأينا يدين كالبسكوت تخترقان التراب ووجه منير يطل، ثم جسد كسنبلة مثمرة ينطلق منه — رأسًا — إلى حلقة أطفال كانوا يلعبون، ويرقصون، ويغنون. وأنا أقسم إني سمعت غناء. أقسم إني رأيت السماء تنزل حد التصاقها بالأرض، والقبر الصغير مثل الكف بينهما، والحبق صار خميلة، ويدٌ أحسست بها توضع على كتفي ظننتها للسائق يشد من أزري. ثم لَمَّا أدركت أنها ربْتة ناعمة التفتُّ فإذا ... فإذا هي زينب، وصوتها كالقطر في الصحراء: «عمو، لا تبك، عد قريبًا وسترى زينب أصبحت غابة!»

لا نَفَس واحد بين حطام وخراب. هذه بلدة كفرا، يعبرها السائق كالسهم، تحسبه يخاف أن يعديه العدم، فلا كائن ظاهرًا للعيان هنا، الطريق يلتوي ثعبانيًّا. رأيت دجاجات

تنط، تحفر بمناقيرها الرماد ففكرت أنها تقتات من الديدان. ثم فكرت أن الديدان صارت رمادًا أو غبارًا بعد أن لاذت — عبثًا — بالمخابئ؛ هربًا من القصف. والفئران مثلها، والصراصير، والجعلان، والقطط مثلها، والكلاب أين ذهبت؟ في بلدة «كفرا» انبطحت جثة كلب متشظية إلى جوار مخبزة محترقة. للتو تذكرتُ صورة من غزو الأمريكيين للعراق فيما يُسمَّى حرب الخليج الثانية. صورة نقلتها قناة الجزيرة مباشرة من مدينة النجف وهي تتلقى وابل القنابل. في دوامة الهاربين والمفزوعين، وإطلاق الرصاص المتبادل مرَّ كلب يجري وهو يقفز كمهرة. كلب يقفز على ثلاث قوائم فقط، وبالقائمة الأمامية الأولى يحمل القائمة الثانية بَتَرَها الرصاص، هاربًا بها، محاولًا النجاة بكُلِّه، بما تبقى منه، شأنه شأن كل الخلق الواقع — يومئذٍ — تحت لهب النار. مرَّ أمامي كلب النجف يعدو، وقد وصل إلى كفرا وراح يسحب جثة صنوه، معًا خلتهما يطيران هربًا من جحيم الأرض، فلا سلام — بعدُ — مع البشر، بين بني البشر!

لم تكن كفرا وحدها «أم الشهداء» كما تنطق لافتتان بين مدخلها ومخرجها. بلدة «حاريص» أيضًا، وأختها «حدَّاثا» وربيبتهما «الطيري» و«عيناتا»، وما تراني إلا أختصر في سرد الأسماء، معاندًا — ما أمكن — للهروب من الأوصاف، ما دامت رؤية العين تبلغ من الصلافة حدًّا فجائعيًّا تنحسر دونه الأبصار. لم أعرف ما كان يعتمل في نفوس رفاق الطريق، ولا سعيت للاستبطان؛ فهذا ترف لا يطاق. لذا تحولتُ إلى عين كبيرة انتشرت خارج مجال السيارة المغمور بشمس نهار حار أشم فيه عرقي، وأنفاس جيراني، والضوء الباهر للظهيرة ممددًا على طول أحياء البلدات المشروخة، لم يبق من معظمها إلا طحين رماد، وقضبان حديد مشرعة أصابع مفرودة، وأحشاء معجونة ببعضها. يعقب هذا وذاك وتينك أرض مثقوبة، حفر متقاربة-متباعدة، وأحيانًا مدى هو الفراغ، أي العمران بعد أن دُكَّ فاستوى بالأرض؛ أظن أن هذا بعض معنى السديم.

لا شيء له معناه، في النهاية، إلا مما ينبت فيه، وإطلاق التسمية قبل تعيين المسمَّى، والتحقق منه، ضرب من التطريز على خرقة خِلقة، لا يُجمِّل، كما لا يخفي العيب، فما بالك بالتراب والناس، بالحياة تكون، وقد ترادفت عليها معاني الوجود، كيف تقبض على جمرها ولم يبق بين يديك منها إلا ما تحت الرماد. كذلك رحت أفكر، وأنا أستميت في تقريب صور ما فاتني، والدخول، لا في وجد الصوفيين، ولكن في مصهر حرب، نقول في بلاغتنا إنها أتت على الأخضر واليابس، وقتلت مئات في القلب منهم زينب قانا، وحدها تعدل ألفًا. يوجد الخلاص المؤقت حينًا في الاستطراد كمهرب من معنى يستعصي على

الحضور، حينًا آخر في استدراج بعيد لينوب عن قريب مشوش. قبل أن أصل إلى حصاد الدمار الذي فات بعينيَّ استعجلت الوصول، ولَّما فاتت المشاهد الأولى أحسست أنني باقٍ أطفو فوق بحيرة دم متموجة في انتظار أن يغرق رأسي بعد أن غطست إلى العنق. هذا الغرق استدرجتُه وتوقعتُه بلهفة، عجبًا، لدى الوصول إلى ما شكَّل المقصد القصي والأقصى منذ البداية؛ أعني مدينة «بنت جبيل»، آخر حلقة حضرية في الجنوب اللبناني شرقًا، أعني في المرجل من حيث أرادت إسرائيل العبور بقواتها البرية للزحف على لبنان، كما فعلت سنة ١٩٨٢م عندما احتلته بالكامل، وأخرجت تنظيمات الثورة الفلسطينية من بيروت. انطوت المَشاهِد جلها، ولم يعد في مرمى البصر إلا ما لم يبصر، يستعجل صاحبه حلوله كي تتطابق رؤيا الفاجعة مع رؤية الهول المادي، وعندئذٍ، عندئذٍ فقط، سيقول ربما لم أبالغ، ولا أنا أخطأت؛ إذ خضت هذا السبيل، حتى ولو طرقته متأخرًا؛ أوليس الوصول في النهاية خير من ضياع لا يصل … إليك يا «بنت جبيل»؟

١٥

كنت قد حللت ببيروت قبل عام على هذه الزيارة، وخلالها التقيتُ بليلى الوادي. حين تقابلنا — في مرات سابقة — سألتني لماذا أظل محبوسًا في بيروت، أو لا أذهب إلا إلى جبل الشوف، ثم تعود تعبِّر عن أسفها أنها لا تستطيع أن تقودني إلى «ضيعتها» تعني البلدة الأصلية لأهلها؛ فاللبناني لا ينتسب إلى الوطن ولكن إلى الضيعة، وكثير إلى الطائفة، وهذا شأن لا يعنيني. وتضيف: «نحنا من بنت جبيل، وهي ظلَّت وقت طويل محتلتها إسرائيل، واحنا ما فينا نروح لهنيك». ولأمر ما تصورتها من النقاط البعيدة في العالم، ومحوتها من ذهني، إلى أن اقترحت عليَّ — العام الماضي — أن تأخذني إلى ضيعتهم، ولطارئ ما زاد المكان عني بُعدًا.

ها أنا الآن أشرف عليه. على قلعة الجنوب المحصنة، مثَّلتْ إحدى الرموز الكبرى للمقاومة اللبنانية في الجنوب، ونكَّلت بها إسرائيل في مختلف مراحل عدوانها على لبنان. تنتهي من سفح، وتأخذ في الصعود على مرتفع خفيف طولًا إلى أن تصل إلى دائرة توسطتها دبابة: هذا هو المدخل إليها. المكتوب، يقولون، يُقرأ من عنوانه، وكذلك بنت جبيل. في منطقة الشوف الدرزية إذا جئت «بعَقلين» أحد مراكزها الحضرية، من جهة بلدة المختارة، مقر زعامة آل جنبلاط، فإنك واجد مدفعًا منصوبًا عند مدخلها يحمل كل المعاني لمن يراه، مثل المعنى الذي فهمتُ ووصفت لما رأيت الشاب جاري في سيارة النقل

يسوِّي مسدسه إلى الخلف. الدبابة هنا تعني المقاومة، والمقاومة قاتلت هنا فعلًا ببسالة. هل تريد الدليل؟ عندي ألف. الحرب كانت هنا، والسلم، أيضًا، يبدأ من هنا. كلا، ما أنا بحاجة لرسم أضعاف الصور لما لحق المنطقة من دمار، إن الحديث عن القائم من البنيان هو الشاذ.

تحتاج أن تتوغل إلى الداخل، أي تقطع الشارع الرئيس المفضي إلى المركز، وسط البلد، لتنبهر بما حدث. وأنت ستنبهر على وجهين: السالب والموجب، والأخير هو الأقوى عندي تعبيرًا، الأغنى دلالة. لتعي فداحة السالب انظر إلى ما حولك فترى أبنية كاملة واقعة إلى الأرض. انظر فترى عجبًا، أي طوابق معلقة في فراغ، آيلة للانهيار وهي واقفة بعد. أعمدة منتصبة معلقة من أعلى وهاوية من تحت، فما هذا؟! مركز تجاري محترق؛ دكاكين سوق آخر نصف متداعية؛ الشرفات مدلاة كألسنة كلاب لاهثة. كل النوافذ عارية؛ كل الأبواب مقتلعة؛ هذه مدينة مفتوحة، وحصن منيع في آن. غادرَها سكانها ليشغلها المقاتلون. أزْيَد من شهر لم يبق هنا إلا من يقاتل، ويا عم، يقول «أبو حسن»، وهو يناولني «منقوشة» الجبن، جنُّوا الإسرائيلية، يقصد أنهم لا يعرفون الضرب من أين يأتيهم، لذلك صاروا يقصفون بشكل أعمى وها هي النتيجة أمامك.

كان كلام «أبو حسن» يصلني في الحقيقة متقطعًا؛ فالضجيج عالٍ، وسيارتنا وصلت في عز الظهر، وعز السوق. اليوم خميس وهو موعد السوق الأسبوعي لقضاء بنت جبيل لكل الناحية تأتي إلى هنا لتتبضع وتبيع. صوته واحد من مئات الأصوات القريبة. نسيت ما جئت من أجله. دقائق كاد وعيي ينقطع عن وعي المكان، عن الزمن، عن الحدث، ما قبل وما بعد، ليصبح لوجودي معنى، هنا والآن، إذ ذاك. للحظات اختلط عليَّ موقعي، ولساني وحده لم يسأل: أين أنا؟ هل في «سوق أربعاء الغرب» وسط المغرب، أم في «خميس مليانة» بالجزائر، أم ربما «خميس الزمامرة» بالمغرب مرة أخرى، لِمَ لا في سوق أسبوعي بباكستان أو ضاحية تونسية ومثلها. جئت بنت جبيل لأعاين كسورها وندوبها، وأتصور أنني حين سأمشي في «زواريبها» متنقلًا بين حاراتها، سأسترجع بالصدى أعاصير ما دوَّى هنا من نار، وها هي ذي تتقدم لاستقبالي في مهرجان، فيما يشبه العيد، إني لا أزيد من رأسي شيئًا، فكأنه العيد!

وجدتُها تموج بالمتسوقين، رجالًا ونساء، وأكثرية ظاهرة ممن في مقتبل العمر. كان سوقًا ذا نسق ريفي، في شكل عربات وأكشاك مرتجلة تملأ شارعًا أو هي ربما طريق نظرًا لكثرة السيارات المارة بها. إنك لتتعجب كيف تستطيع أن تعبر، معها العابرون،

المتسوقون، الأطفال يلعبون، باعة متجولون، وفي الخلف ما لم يتهدم أو يحترق من دكاكين، أصحابها مصرُّون على فتحها للرزق الحلال والكسب الضروري في وقت الفرج بعد زوال الشدة. سوق شعبي كما تسمى التجمعات التي يأتي إليها مستهلكون قرويون، ومحدودو الدخل عمومًا. لا أثر هنا لثياب الموضة، ولا لمعروضات الإثارة، والألوان بهرج، والسعر، على ما ساومت، في المتناول. والنساء على العموم أشد إقبالًا على الاقتناء، تفهم أنهن ذوات صرة مليئة، والمرأة كما عرفت في بلاد المشرق هي قائدة الزمام. وإني عزوت الإقبال إلى دافعيْن: أولهما فرصة السلام تتاح، وها السكان يقبلون — من جديد — على الحياة كأن لم تكن أرضهم مَحرقَة، ولا هم نزحوا وهُجِّروا واستشهدوا ودُمِّرت بيوتهم، وفيهم الثكالى والأرامل والأيامى. وهي، والله، قوة عند اللبنانيين أُوتُوها، لا شك، من حبهم لمباهج الحياة من غير شك، لكن، وهذا المعوَّل عليه، من الدهر الذي عركهم وجعلهم ذوي بأس شديد، لكم يسمو في مواجهة الأعداء، ونراه يحط عند قتال الأشقاء. وثانيهما في الظن، ما نما إلى علمي كون «حزب الله» قدَّم تعويضات إلى الأسر المتضررة على البيوت والأثاث وخسائر أخرى. قلت الأهالي تسلموا وها هم يقتنون بعد ضياع وعوز، لكني علمت توًّا، من الرجل الذي سيصطحبني إلى منطقة «الجحيم»، وسنصل إلى سيرتها بعد قليل، ما كذَّب الظن.

أخبرني أن موضوع التعويضات صحيح، وفيه خلاف، إنما أهل «بنت جبيل» في يُسْر لا عسر، وفي غنى عن الحزب، رغم أنه يمثِّلهم، وهم شيعة كغالبية سكان الجنوب اللبناني. والخبر أنهم، شأن قسم كبير من أبناء هذا البلد، مهاجرون، يرسلون مبالغ تفي بحاجة الباقين. تذكرت حينه كتابًا للباحث اللبناني أحمد بيضون عن «بنت جبيل – متشيغن» وهو تدوين لطيف يسجل فيه — منذ وقت مضى — تعداد أهل ضيعته المهاجرين إلى الولايات المتحدة، ولاية متشيغن، تحديدًا ثلاثين ألف مهاجر، مشكِّلين، بذلك، جالية مخصوصة أكبر من الساكنة الباقية، وداراتهم حسنة الهندسة، الواسعة، تبرز ناتئة في أعالي التلال المتفرقة، وهي متباعدة، تبقى معظم السنة فارغة ومحروسة، منيعة عن الغرباء. لكن أي غريب يطأ هذه الأرض إلا ويصبح معلومًا في دقائق؛ أوليست إسرائيل منها على مرمى حجر؟! ورب سائل: وأنتَ، ألستَ غريبًا، فكيف تدبرتَ أمرك؟ كنت أعلم من البداية أني أقصد منطقة وعرة، والحرب وضعت أوزارها فيها قبل أيام فقط، ولا أمان في الحروب، ولذلك استبقيت معي الطالب الجامعي الذي لم ينزل في ضيعتهم الواقعة في الطريق، ونفحته ما يشتري به كتابين؛ فاغتبط ووجدها فرصة ليتعرَّف على مواقع الحدود

التي لم تطأها قدماه قط. وقد انتبهت أنه يسلم على وجوه عابرة، ولهجته بنت البيئة، أذكر أننا التقينا في السوق شخصًا ملتحيًا صارم الملامح، فسارع يقدمني إليه ويطمئن، وبعد أن تملَّى الرجل الغامض، الحزبي بدون شك، ما طاب له رحَّب وطمأن، وقال «ابرُموا» وين ما بدَّكم. ورحنا «نبرم» كما نشاء في جنبات السوق أولًا، يليها أرجاء البلد، وآلة تصويري ألتقط بها براحة، لا خوف عليَّ، وشدَّني أني ما رأيت إلا نساء محجبات ورجالًا ملتحين بنسبة قصوى، وحيثما وقع بصري فالجدران هاوية، مثقوبة، والسماء وحدها رحمة للعالمين، السماء التي رفع إليها أبو زينب شهيدة قانا مرسِلًا خطابًا وحده يعرفه.

١٦

«سنرفع قبورنا على أكتافنا لتعبروا»، بخط أسود ضخم كُتِب الشعار في نهاية السوق، بما يفيد أن هذه النقطة تفضي إلى مكان وعر، حتمًا، وهو كذلك بلا جدال. كنت مصمِّمًا على العبور حتى بعد فوات الأوان، ورغم أن الطريق باتت سالكة استهولت الأمر. كيف لا وهي «مارون الراس» المقصد. المعارك الطاحنة جرت فيها، وإسرائيل تركت أكثر قتلاها هنا، وفيها تقريبًا حُسِمت معركة بنت جبيل، أي معركة الجنوب كله. لكن كيف الوصول إليها رغم قربها والسوق على أشده، والناس يذهبون إلى جميع الاتجاهات إلا إليها. كدت أيأس، وأعتبر أن رحلتي مبتورة، أو مجرد فرجة، إلى أن ظهرتَ يا «أبو حسن». كأن روح أحد الشهداء أرسلتك لتريني موقع ومدى استبساله في الدفاع عن أرض العرب. قلت له أدفع ما تشاء، فأخبرني أن هناك خطرًا محدقًا نوعًا ما. هو لا يكاد يعنيه الأمر، أنا لو كنت سأموت لمت أيامها، وأشار إلى بيت في المنحدر نصف متهدم، قال: «ذاك بيتي وقع، وبناتي وزوجتي وأنا كنا من ذاك الميْل، يعني ربك ستر، المشكلة في القنابل، بعد فيه قنابل، وأنت ما بتعرف أيمتى بتنفجر، بدك تغامر؟»

قفزت إلى سيارته وحدي، بعد أن أنهى الطالب الجامعي مهمته والتحق بضيعته. قبل ذلك سمعت أكثر من واحد يمر محييًا «أبو حسن»؛ «أبو حسن» وهو يرد على التحيات برأسه فقط، مؤكدًا، في كل متر وزاوية تمر بها السيارة، أنه سيد المكان. مررنا أمام بناية مسيَّجة، قال هذه «مهنية بنت جبيل» في هذه المدرسة «زمَطْنا» أسبوعًا كاملًا، والشباب يقاتلون بلا أكل ولا شي. أصبحت عاصمة المقاومة وراءنا، وانزلقت السيارة مخلفة الغبار في منحدر لم أرَ منه إلا مساحة أرض جرداء، وإثرها، تدريجيًّا، مرتفعات

طويلة كقلعة محصنة. في سفح المنحدر خاطبني «أبو»: أنت هنا في أخطر نقطة بالمنطقة، أكيد سمعت عن «مثلث يارون، عيترون، مارون الراس». كانت واحدة على اليمين، والثانية على الشمال، فيما مارون الراس الأقوى تقع في الأعلى، وبين هذا المثلث اشتعل الجحيم ما يزيد على شهر، عجزت الدبابات الإسرائيلية عن أن تتقدم. وكأنه قرأ ما في رأسي فتكلم نيابة عني: «التليفزيون غِير شِي!» وهل أجادل؟! والتفَّ على الطريق الصاعد إلى الأعالي من فرع جانبي يؤدي، كما قال، إلى مارون، كانت المقاومة تستخدمه، وطفقنا نصعد، ومحرك السيارة يزفر بأعلى جهد، إلى أن أصبحنا في الذروة حيث لسان مديد ونحن بين مَشرفين: واحد إلى بنت جبيل ومبانٍ وتلال متفرقة في كل النواحي خلفنا، ثان أمامنا أشار هو إلى هناك قائلًا: «هَونيك إسرائيل». وفيما انتابني شعور غامض لدى التسمية لم ألحظ عليه أي انفعال، وهو معقول ممن يجاور ويعايش المحن، لامني أنا، وزمرة أبناء المغارب العربية الذين لا يعرفونها إلا بالسماع والصور من بعيد. ودفعة واحدة، ها هي إسرائيل!

وصلنا إلى أعلى نقطة في مارون، هنا حيث توجد استراحة عبارة عن مقهى ومطعم ذوَيْ شرفة واسعة، سقفُها الخارجي قرميد أحمر. كانت استراحة لأنها قُصفت بالكامل، وما بقي منها، إن شئنا، هو الموسيقى. كيف؟ أجل الموسيقى. ما هَمَّ الزجاج المتناثر، ولا الكراسي ولا الجدران؛ الأهم هو السقف المثقوب، ظل صامدًا بعنادٍ غريب. تفكك كثير منه وسقط أرضًا، وكثير آخر لم يسقط وبقي معلقًا بخيوط واهية، متأرجحًا في علوه، يأتي الهواء من أي جهة فيرقص القرميد متماسًّا ببعضه. في حركته هذه يصدر عنه صوت، إنه يعزف لحنه، علامة الحياة الوحيدة المتبقية في المكان. من الشرفة بدت لي حياة أخرى لقوم هم أعداء أمتي: في الطرف المواجه لنا طريق طويلة بمثابة حدود بين بلدين؛ ما يُسمَّى الخط الأزرق الأممي، كل من يخترقه من هذا الجانب أو ذاك يعتدي. بعده أرى حقولًا خضراء منتشرة، وسطها ساحة تربض تربض بها سيارات عسكرية، والعلم الإسرائيلي يحلق فوق بناية بارزة. أثارني اللون الأخضر المقابل لنا قياسًا باللون الأصفر، الشاحب، لموقعنا. أمامي سهل أخضر فسيح، وأشجار، وغضارة، وحيث أقف لا زرع ولا خضرة، وإنما خراب، وقفر، وسيارات محترقة. تلك مستعمرة «صلحة»، قال أبو حسن، مضيفًا إن المقاومة كانت تخرج لهم مثل الجن في البقعة التي نوجد فيها الآن، من بين أقدامهم، تصليهم نارًا وتختفي، إنما جهنم كانت هناك، وأشار نحو البعيد؛ هل تريد مزيد مغامرة؟

رجعنا إلى السيارة، ونزلنا مجددًا في المنحدر، لكنه ترك اتجاه بنت جبيل وراح في أقصى غربها. بعد دقيقتين من الصمت، ونحن نصعد مرتفعًا سيقول إننا ذاهبون باتجاه

أخطر موقع قتالي للأمس «تلة مسعود». بلغناها وإذا بقايا بيوت أو أكوام خراب، وهو يفرك يديه: المطاردة هنا كانت من بيت إلى بيت، والقصف على البلدات أسفل لا يتوقف، والشباب سجلوا بطولة نادرة، «هيدا مش التليفزيون!» لأني «حتى وأنا ختيار، شفت بعيني الشهدا واحد ورا الثاني! إي نعم». فيما بدأنا نجوس بقايا البيوت متنقلين مما كان غرفًا فأصبح حجارة سوداء، وفي كل مرة ينبهني أبو حسن أين أضع قدميَّ خشية انفجار قنابل إسرائيلية مزروعة، فنتخطى وقلبانا واجفان. في تلة مسعود رأيت الأرض، بعد الجدران، محترقة، لأول مرة أرى الأرض محترقة وتصورتها تبكي، لا، تكز بأسنانها على لحمها وهي تتألم صابرة على النار تلتهمها، ولا تبكي.

أغمضت عينيَّ طيلة الوقت في طريق العودة إلى بيروت. لم يكن سباتًا ما ألمَّ بي، رغم أن الإعياء بلغ مني مداه. تراجع الخوف والقلق، لم أعد أحس، والشمس دبغت وجهي يومًا كاملًا، ظلَّت تغلي في رأسي، لا بالجوع ولا العطش، ولا بركبتيَّ تورَّمتا؛ صار الإحساس بالألم مثل تجريد هارب كلما اقتربت للقبض عليه ناءت فوقي تلال الردم، والأسمنت والحديد؛ الحديد، خاصة، يتشابك مضفورًا برأسي، ويخرج من منخاريَّ وأذنيَّ، وأصابع كالمدراة تنبش بقايا الخراب لتقطع بقايا قضبان الحديد. كل ما رأيت، أرى صور ثنايا، أراضي وحقولًا وطرقات وجسورًا وبنايات، إما مطوية أو مدكوكة على عجلٍ، وموتى يمعنون في البعد وهم يلوِّحون لي بإشارات غامضة. عدا زينب، لم أعرف كيف أقترب من أجداثهم، كيف أنظر إلى شهداء فتيان أرواحهم عُلِّقت — للتوِّ — على الأعمدة، عيونهم تحن إلى الحياة. عاجز أنا عن وصفهم، فيما اللافتة تسميهم «شهداء الوعد الصادق»، فطوبى لمن يعرف كيف يختصر الموت في كلمات!

عدت من «بنت جبيل» إلى «صور» بسرعة قياسية لأن السائق الميمون — الذي وجدت — كان يهذي طوال الوقت بزعيم حزب الله، بالشهداء، بالتعويضات، والسيد حسن، وأنا مغمض العينين إلى أن ركبتُ من «صور» حافلة متوسطة مشحونة، كان سائقها هو إذاعة «النور». ختمت أسماعنا بالأدعية وشهادات النساء والرجال كلها تمجيد للسيد، وإعلان استعداد للموت فداء له، هم ونسلهم جميعًا، والركاب مطرقون لا ينبسون ببنت شفة، وإن غرقنا جميعًا في سحب دخان السجائر بين أصابع الكبير والصغير، ولم يكن في مقدوري الاحتجاج لأن بين الإخوان المزنَّر بسلاحه، والمتحفز للانقضاض، وطبعًا المنهك، ربما مثلي، يريد أن يصل — أخيرًا — ليحمل رأسه بين يديه، ليفكر فيما رأى، وسمع، ويحاول إنجاز تركيب للمستحيل.

١٧

لم يكن ذلك ممكنًا أبدًا، على الأقل في الغداة حين استيقظت وخرجت إلى الشارع لأنظر إلى بيروت بعين أخرى، أحس أن مشاعري انتابها تغيُّر ملتبس، هو شيء من الإحساس بالرضا، وفي الوقت نفسه الاستغراب كيف أن قطار الحياة هنا يمضي على رسله. هو ذا تناقض جديد يحتاج إلى تركيب إضافي، والتناقضات هنا تتسارع إلى ما لا نهاية، دليلي، مثلًا، أن بعض «الأبطال» ممن ألتقي في المجالس العصرية استغربوا حين أخبرتهم أني عائد من جنوبهم. أني ذهبت إلى هناك وشاهدت ما شاهدت. لا أذكر بالضبط هل استهولوا الأمر، أم استكثروه عليَّ، إن لم أقل رأوا فيه فضولًا زائدًا من عابر سبيل. لم أُفِض في الحديث عن زيارتي كي لا أحرج أحدًا، خاصة خطباء المقاهي، وهم عينة ازدهرت دائمًا في بيروت، ومتفشية في كل مقاهي ومجالس الأمة العربية، إذا تكلمتَ يعتبرونك تنافسهم على سُدَّة الرئاسة، وأي رئاسة؟!

عند البعض كأن الحرب، أو العدوان، ثمة تفاوت في التسميات، طبعًا، وقعت في بلد آخر. هناك بعض يميل إلى السكوت، هو في حد ذاته خطاب. ليس الناس هنا مثل سائق الجنوب يهذون بالسيد حسن بلا حدود. أن تركب في التاكسي «السرفيس» مع الجمهور، أو تجلس مع الخاصة، فإنك تغير عالمًا كاملًا، لن أقول إن الحقيقة تضيع؛ الحقيقة لا توجد في أي مكان، وهي أشبه بزعم اليقين، لأقل إنها تتعدد، وهذا أفضل من وحدة مزعومة. أظن كذلك أنه حيث يعيش البشر في مجتمع طائفي أو متعدد الأعراق، خاصة، يصبح لكل جماعة حقيقتها ومُثُلها. لذلك لا يوجد إجماع حول ما جرى، ويفضِّل كثير أن يلوذ بالصمت. لا أحد يعوزه الشعور بالوطن، لكن منطق الوجدان كاسح، والطائفة تريد أن يبقى صوتها الأعلى، والوضع هنا كان، وسيبقى، مختلفًا، بإسرائيل ودونها. هكذا تحدَّث صديقي لم أجادله، ولن أسميه، قبل أن يجرني إلى حديث مختلف من باب تغيير الموضوع، لأنه في نظره، يقولها بشبه سخرية ونفاد صبر، لا ينفع!

لم تكن ليلى الوادي وحدها من الفئة الثالثة، فلعلها الفئة الغالبة. وباءٌ مستشر يسمونه «الزهق» يعانقها مع سواها وآخرين. تقول وتعيد إنها لا تعرف ماذا تفعل بنفسها، ولا تنتظر أن ينجدها أحد بجواب، عبثًا! ستقول ألف مرة، هي وغيرها، إنها تفكر هذه المرة بجدٍّ في الهجرة، ثم «تبرم» في الحمرا، وفي رأسها، وتنسى إلى اليوم التالي، وهكذا إلى الحرب القادمة، ربما. اكتفت بتعليق ماكر: «أخيرًا وصلتَ إلى بنت جبيل، هه!» كنت موقنًا أنها لن تهاجر لأن بيروت هي الأنسب لمن في حالتها، فأين يمكن أن تجد حالة

اللاتوافق التي توفر لها، لغيرها، زهقًا مزمنًا لتظل تئن، وتتنفس بأنينها، كالسمكة في الماء. «عناية جابر» مثلها نوعًا ما، ونسيج وحدها. عضو نشيط في الجمعية غير المعلنة لـ «الزهقانين العرب غير المتحدين». إنها كصحافية متميزة في جريدة السفير تحتاج دائمًا إلى انعدام التوافق مع الذات والمحيط لتكتب، لتئن، وحين يتعتق أنينها تعصره شعرًا، تلوذ بالشعر كطريقة مختلفة لتصريف الضجر، أو لمغادرة بيروت التي تراوح دائمًا في مكانها، رغم أن أبناءها تمتد هجرتهم إلى كل اتجاه.

كنت في حاجة إلى هؤلاء لأقيس نبض المدينة، وأعفيها من إسقاطاتي، خاصة أن الحرب تُغيِّر، فأسعفتني جابر بكلمات بسيطة ودالة قائلة، كاتبة: «سألتَني كيفك وكيف بيروت؟ (...) لم تعد من هدأة بال في بيروت. اقتلعتها الحرب (...) بيروت تتدرب على التنفس ثانية؛ غير أنها لا تصل إلى الهواء. مجرد ثلاثة وثلاثين يومًا قصيرة من الحرب خلَّفت كل هذا العبث. بسبب حرب قصيرة تعاني المدينة آلامًا مبرحة. (...) أجساد تتحرك بصمت، بشؤم، وبوجوم. (...) يثير القشعريرة، من البائع الذي يدمغ صباحك بيأسه، إلى السائق المذهول والمرتعب من يومه، إلى المارة الذين يكلِّمون أنفسهم (...) يبدو من المتعذر المراوحة طويلًا بين الركون إلى فكرة السلم، والوقوع تحت ربقة حرب مقبلة، ويتضاعف الخوف في الأيام. (...) الأجانب الذين ما زالوا، وهم صحافيون في الأغلب ومراسلون، لحقتهم عدوى الكآبة المستشرية هنا، وبينهم الآن وبين أهل المدينة ألفة الحيرة وألفة اللاهدف واللاغد، فتراهم في المقاهي ساهمين واجمين.» أما بول شاوول، وهو ملك بيروت في الجمهورية اللبنانية، الذي عاش كل حروب هذه المدينة، تأبَّى على كل التنظيمات والميليشيات، وغَرَسَ القصيدة رمحًا أطلقها نيزكًا في عنان السماء؛ بول، صديقي من ثلاثين حولًا فهو — أبدًا — يكابر، لا يحني الرأس لأي غاز، ولا يسابق أحدًا، لأن لا أحد يستطيع أن يقلد مشيته التي بـ «نعال من ريح» طبعًا، أو أن يسلك طريقه «مجهول البيان». بول أسرَّ إليَّ: «إلى أين أمضي ... هذه المدينة أعطتني كل شيء، وما بقيتْ فأنا باقٍ، ترانا يا عزيزي نتساند.» في خبايا وقت العصر الراكد، وأعماق الليل الساكن يقوم متهجدًا ليسقي شجرة لغة الأنبياء بلظى الجسد اللهب، ويمضي بعدها واثقًا إلى رؤيته، لا حزينًا ولا فرحًا، يمضي شاعرًا وكفى، في زمن تكاثر فيه القتلة والشعراء، ومسخ الشعراء.

يكفيني هذان، قلت، وإن لم أغفل عن الناس الغفل. كعادتهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وثمة — دائمًا — من يزعم أنه مخوَّل لسياسة مصيرهم. بيروت معهم وبهم، مثل نقاط البلاد الأخرى، تتحامل على نفسها لتستأنف عيشًا لا رغدًا ولا

نكدًا. نحن في أواخر أيلول (سبتمبر)، وورقه ليس أصفر، كما في أغنية فيروز، لا ورق، لا نسمة، السماء عالية والظل بعيد، وبقلبي ضيق، حيرة من لا يعرف أي طريق يسلك، بعد أن سلك كل الطرقات، والوقت يا الحبيبة التي فاتت فات. ربما حان الوقت لأعترف بأني في بداية الذبول ما دامت المدن مفتوحة أو مغزوة لم تعد تطاوعني، إن سرت فيها فإلى مرابع الحنين، ما أصبح في حكم الموات.

وإذن، «خلص المشوار» أخاف أن أسأل متى بدأ، لماذا، والآن إلى أين يا روحًا أين سترسو بعد طول السفر: أجنحة مفروشة في عرض السموات، ورغاب على طول الأرض اشتعلت. ها هي على وسادة الإياب تتكئ، كأن لم يبق شيء، ماذا كان ليبقى، أم تراها عدوى «الزهق»؟ لم أكن في حاجة لأودِّع. هل هذا ألم إضافي أم حرية ألا تحتاج إلى وداع؟ أعي أني أواصل أوهامي بركوب أسفار مستحيلة الوصول، حتى ولو تعددت المحطات. نزولي إلى الجنوب لن يغيِّر — قيد خيط — من خريطة الروح ولا الأرض، بعد أن حوَّل «البرابرة» التراب إلى مسحوق غبار. واقفًا فوق حقل أنقاض، في الخارج والداخل، أيضًا، وإن كان ما يشبه الغفوة والنسيان سيد المكان. بالأحرى التناسي الظاهر، وفي الأسفل والحواشي الجمر لم ينطفئ. سأجرُّ معي بعض الأنقاض لأنها تُعدي من سار فيها، ونحن العرب، عجبًا، نُبنى ونتهدم في آنٍ من دمارنا. كأن لا أحد يشبع من الموت هنا، من داخل جاء أو خارج، ولذا سأترك بيروت على توقيت الترقب. ساستها وأهلوها يرتشفون قطرات الحياة سريعًا، تحسبهم يستعدون لتجرع مرارات قادمة. لا أحد ينسى هنا ما دام كل شيء في حالة كمون. طائرات إسرائيل تحلق دائمًا، والبلاد تموج بالأجنبي، وأصابع عديدة على الزناد، لذلك كثيرون يرحلون، كثيرون يبحثون عن لحظة طمأنينة — ولو خادعة — قبالة روشة بيروت الشهيرة، وهم يمضغون مقروطة بسيطة، ولا أستطيع أن أقدِّر عدد الذين تركت ورائي ممن يحنون للاستشهاد من أجل ما يعتقدون.

أما أنا، فغادرت التراب اللبناني أخيرًا في ٢٤ أيلول (سبتمبر) في نقطة المصنع، لا فرحًا ولا حزينًا، لأدخل إلى التراب السوري، ومنه أعبر إلى التراب الأردني، من أجل الوصول إلى عمَّان، المحطة التي سأقلع منها بالطائرة إلى باريس، بعض إقامتي، لكن أي هول قبل ذلك؟!

١٨

في نقطة «المصنع» أمسك شرطي الحدود اللبناني بجواز المواطن العربي، وقلَّبه بعصبية، وبَرْطَم بكلمات قرف. حدق بعدها في صاحبه شزرًا، وارتجف الواقف خوفًا، وأخيرًا منَّ

الشرطي بختمه المبارك فوق الجواز، لكن، وببساطة، طوَّح به في وجه المواطن العربي الذي شكر له فعله بكل تهذيب، وهو يتراجع إلى الخلف، لا تعنيه الإهانة بقدر ما بدا يطلب السلامة. في طريق العودة لم يتكلم السيد عبُّود كثيرًا، فعدا أنه صائم، ونحن صرنا في شهر رمضان، فإن له خطته التي لن يتأخر عن تنفيذها بمجرد وصولنا إلى بلدة شتورة قبيل الحدود اللبنانية، لنتبضَّع عند متجر من زبائنه. حين تركنا دمشق على اليمين، وسرنا في الطريق السوري السيَّار نقصد الأردن مباشرة، لم يأخذ السائق المبجَّل رأينا في محطة الاستراحة قبل أن نتوقف في الحدود، بل اختار — بمطلق إرادته — المحطة للوقوف وجوبًا عند متجر من زبائنه، وثانٍ، وثالث، حتى حسبنا أننا نسافر في جولة للتبضع إرضاء لنهم وعمولات السائق الصائم. ما لم يمنعه من خلط الأوراق بين مغازلة «بريئة» لسيدة تركب إلى جواره، والتذكير، بين الفينة والأخرى، بفوائد شهر العبادة والغفران، تحسبه واحدًا من فقهاء هذه الأيام يفتون على هواهم في الدنيا والآخرة.

أما وقد وصلنا إلى الحدود السورية فإن الرجل، على قول المثل «فص ملح وذاب» وتبخرت شجاعته التي ما انفك يستعرضها في المسافة، من أن عمره أطول من عمر الطريق، وأنه، وهو الأردني، أحد أبطال حرب الجولان، وعنتريات غيرها. في هذه الحدود رأيت البناية كبيرة حقًّا، والعاملين فيها غفير. وأنت تلاحظ أن الجواز يُتداول بين عشرات الأيدي قبل أن يستعيده صاحبه مختومًا «إذا مِشِي الحال». واتفق أن جوازي وقع بين يدي شرطية لطيفة الشكل والتصرف، فإنها، وقد تصفَّحته، استرعى انتباهها المهنة المكتوبة لصاحبه، فـ «أمطرت لؤلؤًا من نرجس، وسقتْ/وردًا، وعضَّت على العِنَّاب بالبَرَد» على قول يزيد بن معاوية، وأشهرت حبها للكُتَّاب والأدب، وكيت. ورغم أني لم أردَّ المجاملة بالمثل، كأن أُثني على الشرطة والشرطيات، خاصة في القطر السوري الشقيق، فإنها ما قصَّرت والله، ففي دقيقتين استعدت وثيقتي مختومة، وكنت أول عائد إلى السيارة ينظر إليَّ السائق الجبان مبهوتًا، ورغم أنني أقسمت بأني لم أدفع أي «حلاوة» تسمَّرت دهشته في وجهه معلنًا: كيف فعلتَ بهذه السرعة، ولم يكمل عبارة نطقتْ بها عيناه الماكرتان، «والحدود على ما نعرف!»

حضر الركاب جميعهم بعد طول انتظار، وكأنهم يعبرون الصراط، واستغفرنا الله، وحمدنا شاكرين على كل حال، فنحن في الشهر الفضيل، ينبغي للمرء أن يصون لسانه عن العيب، ومنه شتم رجال الحدود الذين تتعدد حواجزهم، ومراقبتهم، وتفتيشهم، وكأن المسافرين قوم نازلون من غريب الكواكب، وعلى كل لم يكن في حوزتي متاع غريب، ولا

في رأسي يدور أي شيء مريب. لا أذكر عدد هذه الحواجز، ولا سحنات القائمين عليها، لا أذكر واحدًا منهم ابتسم لنا أو رد التحية، وإن لم يصدر منهم — على العموم — أي سلوك مشين، ولا أخفي أني رحت ألتمس لهم الأعذار، وإن قلت في نفسي: والله إن هذا العدد من الحواجز كثير على الأمة الواحدة؛ في كل مرة أدفع جوازي إلى السائق الذي يتكفل بالباقي، ولدى تفتيش الأمتعة أحتفظ بهدوئي، لا أعبِّر عن الاشمئزاز من اليد التي تغوص فيما تظنه عجينًا، همِّي، همُّ جميع رفقة السفر، ألَّا يصبح اليوم أغبر، وأن نصل إلى عمان سالمين غانمين، إن شاء الله.

حسبت ذلك سهلًا في البداية، توهمت، لأكتشف أن دونه خرط القتاد، وبالذات في البلد الذي تعددت زياراتي له، وقدَّرت أني مؤتمن في أمان، في الأردن بالذات يا بهوات! تركنا الحدود السورية أخيرًا، ودخلنا تراب المملكة الهاشمية في حدود «جابر». نزلنا كالمعتاد من السيارات للتوجه إلى مكاتب الختم، نحن بين أردنيٍّ ولبناني و«محسوبكم» المغربي. قصدت الواجهة المخصصة للعرب فأمرني مَن خلفها — بحزمٍ — بالذهاب إلى هناك من غير أن يرفع وجهه إليَّ، وفهمت أنه يقصد الشباك الأردني حيث اصطف خلق اندسست فيه. لا أذكر كم انتظرنا، لكنَّا تعبنا ومللنا، ونحن عند الظهيرة في صيام، والجو والله حار. أخيرًا حلَّ دوري، أنا الواقف مع غيري مع طابور كالقطيع، دفعت جوازي فأخذه الفتى، وهو فعلًا في مقتبل العمر، وطفق ينقل نظره بين وثيقة سفري ووجهي، ينقل ويعيد، حتى إن المطوبرين نووا بي الظنون، وبدءوا يتذمرون، وشككت بنفسي، وهو يرقن على حاسوبه أنني مسجل في حالة اشتباه، أو ارتكبت جرمًا غاب عن الحسبان، وكذلك كان.

بدا أني صرت لغزًا أمامه ولذا قرر «فض الاشتباك» فغادر نقطته حاملًا جوازي، ورأيته يقصد مكتبًا في الجهة القصوى من البناية، خفيًّا — نوعًا ما — عن الأنظار. دخل إليه وبقيت أرقبه عن بُعد، والمطوبرون ينظرون إليَّ — هذه المرة — حذرًا، أولم أتسبب لهم في كل هذا الانتظار؟ بلى، لكن غيري، على ما رأيت كان، أيضًا، في ورطة. فقد ندَّت صرخة في المكان صدرت عن شخص كأنه انبثق من عدم، أطلق عقيرته يحتج بشجاعة غبطته عليها، وإن كانت غرابة شكله — خلقة وهندامًا — يتيحان له الأعذار. صرخ، وبعربية فصيحة: «هل أبقى هنا إلى يوم القيامة، تجلسونني هنا، تقولون إني في حالة اشتباه مع شخص آخر، هل أنا معزة أم غنمة؟!» ونويت أن أقلده في اللحظة التي نادى فيها الفتى على اسمي من المكتب القصي. هرولت إليه، ودخلت، سلمت على رجلين، جلست على كرسي: ما اسمك، من أنت، مهنتك، أبوك، أمك، من أين جئت، أين ستذهب، ماذا ذهبت

تفعل في بيروت، لماذا ذهبت، عند من نزلت، الله، الله، أنت حقًّا؟ ومع سلسلة أسئلته — بالأحرى استنطاقه — أشهد أن الرجل حافظ على ابتسامة عريضة، ودفع يده برفق في حقيبة صغيرة بيدي أخرج منها بهدوء كامل دفترًا، كنت أدوِّن فيه ملاحظات الطريق، وقال بدوره إنه يحب الأدب، وأنا عاجز عن تعييره بأنه قليل أدب؛ إذ يدفع أصابعه في مخصوص الناس. وهذا كله يهون؛ إذ ظل متشبثًا بسؤاله من أكون؟ فأسقط في يدي، حقًّا، وعدا أوراقي الثبوتية التي لا يعترف بها، ليس لي جواب.

بلى، وجدتها كما وجد نيوتن نظريته بالصدفة العابرة، يا لسخرية المقارنة، لكن ما العمل؟! خاطبت رجل الاستخبارات، فهذا — على الأغلب — موقعه، يا سيدي أنا هو فلان بن فلان، ومهنتي كذا بين المهن، وسألته مباغتًا: هل تحسن استخدام الحاسوب؟ فأجاب بارتباك، أولًا، ثم بالإيجاب ثانيًا، فواصلت: اذهب إلى محرك الأبحاث الشهير «غوغل»، وارقن اسمي ويأتيك البيان، ok! لم يزد كلمة ولم ينقص، وإذا نحن وقوف والرجل يصطحبني رفيقًا، معتذرًا: عفوًا يا دكتور، ويا، ويا، إلى شباك الجوازات أخذته مختومًا بإقامة لشهر، بينا طائرتي من عمان إلى باريس بعد يومين وجوبًا. وحين عدت إلى السيارة وجدت السائق والركاب الباقين في حالة ارتعاب، وسألني الماكر ما الخبر فأجبته بأن الأمر مجرد سوء فهم، سوء تفاهم، وأضفت كأني أكلم نفسي: كثيرًا ما يحدث بين الإخوة العرب. هذا ولم أنسَ بعد أن حطت الطائرة أخيرًا — في مطار شارل ديغول بالضاحية الباريسية — أن أرفع أكف الضراعة إلى العلي القدير كي يحفظ Google ويديم علينا نِعَمَه، وأن يشملنا وإياه بالرحمة والمغفرة والرضوان إلى يوم الدين، آمين يا رب العالمين.

باريس – الرباط في ٣٠ / ١١ / ٢٠٠٦م

ملحق

نص الهائم على وجهه

الطريق إلى مادبا

١

لم أفكر في هذا الطريق، ولا في غيره بعد أن وضعت حقيبة العودة من البرازيل نهاية شهر تموز (يوليو). البرازيل نفسها لم أفكر فيها، وكل ما هنالك أنني قررت أن أحسم أمري مع بلدٍ ألحَّ طويلًا على بالي وخيالي فقلت إليه، ومرة واحدة هناك، كأنما انقشع السحر لأعود إلى رشدي الذي لا يرشد، والعطش باقٍ أبدًا إلى سواه.

٢

من أين جاءني اسم هذا المكان، وكيف طرق رأسي، ولمه؟ حيَّرتني الأسئلة ثلاثتُها فغالبتها، غلبتها بالتناسي، وما ذاك إلا لأن الأردن في قلبها، وصوت فيروز كنت أسمعه من يفاعة بعيدة يهمز مجلجلًا: «وستغسل يا نهر الأردن/وجهي بمياه قدسية/وستمحو يا نهر الأردن/آثار القدم الهمجية!» إنما أي سبيل إلى النسيان والشرق هناك، قلبي في الشرق وإليه توَّاق؟!

٣

صيف العام الماضي كأن يدًا إلهية وضعتني على كفِّها، هدهدتني بين ريحين، واحدة للصِّبا، وثانية من شطح الهوى، فألفيتني أعبُر من نكهة باريس تحت محجري إلى شميم العرار، هناك في اللحظة التي قطفت، لم أعد أذكر، أصورة خلَّبًا أم قُبلة حلوبًا قطفتُ من جهة «المفرق»، بعدها تهت ولم أحفل بالجمهور فوق مدرجات «جرش»، أمرُّ عن بُعد، ينبهني أني تركت أعضائي مبعثرة في المُتاه، فتعجبتُ من قولهم لأني من قديم كنت جسدًا، أقدم منه صرتُ بددًا، ولعل إسرائي اليوم يغدو لي مددًا.

٤

بلى انتبهت أن أعضائي إما غبار أو رماد، ونشرة الأخبار تقصفني بين النوم واليقظة، حتى وأنا في قارة المهاجرين البعيدة خلف الأطلسي، وقلت ليس من قُصِف ودُمِّر كمن سمع، والشمس التي تلفحني بين مغربي الأقصى، وفوق جسور «السين» غير تلك التي أشمها من ذراعي في جبين الشرق، كالملَّاح يلحس ملحه ليداوي جرح غانية في البر البعيد. أوه، يا لَرومانسيتي المتفسخة في زمن، حياة الذباب فيه أثمن من بقاء العرب، أوه حقًّا!

٥

الكلام لا يخرج اليوم من قاموس، والبلاغة ليست وشاحًا من زمرد أو حرير، هي كتلة مجسدة في يد تقبض يدها، صاحبها، وتلقي به في حمأة النار، وإن بعد افترار ثغر النهار على مدن من حطام، وأنا أجر ذيول الدمار من «حارة حريك» إلى قمة «مارون الراس»، أجوس، كآخر مقاتل لم يقل وداعًا للسلاح، ولا أخبره أحدٌ أن الشهداء الآن يغفون قليلًا و«يموتون، كي يفرغوا للسهر»؛ حذار، ابتعدوا عن طريقي؛ فخطوتي ملغمة، بل هي الانفجار، فحذار!

٦

لا يهم كل الخراب، القتل والمقتولين، من المقت سأقول أطفال قانا، أيضًا وأيضًا، رغم أن مشموم النَّوَّار ما زال نديًّا، زكيًّا، على قبر زينب، دمعة مني بلَّلته فارتجف، قبرها، لعله

قلبها، كفرخ ذبيح، يقع وينهض، دمه/دمنا من الأرض إلى الأفق يسيح. لا يهم أن نموت في كل الوقت الذي مضى، ولكن كيف نستطيع أن نعيش، بعد كل ذاك الموت، اليوم ثم غدًا.

٧

ولم تكن بيروت بعد مشهد الحرب إلا فكرة من ضباب، أو جناحي غراب؛ لم تكن قط. الشوارع التي سكنتني زمنًا هوت في الخواء كجيب مثقوب، والزواريب مثقلة بالظلام، والزوايا والتكايا جراب منفوخ إما بالهراء، أو تلوك الكلام الذي لم يعد له من مزاد، بعد أن جاب الرصاص طول وعرض شغاف البلاد، واتكأ الشعراء المهترئون، مثلهم فصيل طويل من جراء، على مسند الوهم وبذر الوصايا، كالعهد بهم، ولحس الهباء!

٨

سرت وحدي، دليلي إلى طرقات أخرى للتيه حدس خراب قديم يتجدد، ما انفك يمضي ويئوب، يتفسخ مثل هذي الأرض الهشيم، لا البحر يغسل أدرانها، ولا كل ما نزف من الدم يكفي قربانًا لطرد الهمجية وسلالة السفلة. الذين عرفتُ في بيروت ماتوا جميعًا، غيرهم يعرضون لحودهم، أحيانًا لحومهم، ليفلتوا من المسغبة. لذا ترى وجوههم مثل عجين، وعيونهم مدلاة في ألسنة تقتات بفاسد الهواء والكلام الفج، ولا بأس من رقص تنكري في قلب الأجمة.

٩

وحدها عناية، عناية جابر، وهي إيقاع شارد من «أغاني» الأصبهاني، تُعد للفجر قهوته، وتذهب للروشة كي تعطي لبحر بيروت رضاع الصباح، يوشوش في أذنها شيئًا، تأتي إلى مقهى «الويمبي» تكتبه، قبل أن يتهافت التنابل على ما تبقى من غلال المجاز. وحدها سقتني، أطعمتني بهمسٍ، ليس إلا، أنا الذي «نزلت بكذابين ضيفهم/عن القرى وعن الترحال محدود» ثم آوت، وقد تأبطت عصفا عَبَر، وعوَّلت على الرحيل — أخيرًا — إلى سِفر الحكمة الفانية.

١٠

في منتصف الليل، والأحبة سجف الظلام دونهم، عندما تخلو «الحمراء» إلا من ندامى الأرق، هم الأرق، يهبط مثل ملاك، يبرز لمحته مثل الشفق، سيد، شاعرها، اسمه، ظله، لا يتبدل، بول شاوول لمحته — عن بُعد — قادمًا من الأزل، هو شاعر حقًّا لا إشاعة في الخفاء، على رأسه أدغال وبِيدٌ ونار، قوافل شتى من عرب ومن عجم، قرآن وإنجيل وديوان أحمد، أيائل وغزلان تلاعب كفه، للمدافع أعطى ظهره، للنجم أعطى صوته، للعباب، وآواني في البلد اليباب.

١١

لم أنس فيروز، بل قلت سأصعد نحو صوتها في مرقاة النهر، سنجدل الحنين بنهر الأردن، نشحذه على صخر جبل نيبو، نغتسل في مياه نسوته الجوفية، ونضطجع معًا على لحاف الفسيفساء حتى شفيف الأبدية. أترك الصوت هنا، ظل عمر مضى، كل ما أسمعه رجع صدى، وأذهب إلى مداه ليستقبلني وجه الأرض الأبيض، لونها المفضض، بالحليب وبالسكر إنا أعطيناك الكوثر، خذها، هي من جسد الأنبياء وأكثر، هيت لك، روحك منذ اليوم في مادبا.

١٢

لم أعرف ما الذي أغواني فيها، ولا كيف السبيل إلى الوصول، وما زلت لا أعرف، رغم انصرام الفصول على دم لي، وماء من أعراقي يجري تحت القلعة «قلعة الأكروبوليس». تعجَّب كل من سألتُ كيف أبحث عن طلل والدنيا حولي عمران؟ تعجبتُ بدوري شأني باليباب، لِمَ أهوى الركض نحو حتفي، إلى السراب، ومادبا هذه هل تشبه فاس أم تفوقها حسنًا، أم هي توءم نادى صنوه في منام الأولياء، فأضحى إدريس نبطيًّا، وسيحونَ من دوحة الشرفاء.

١٣

قالت، وقد جلستُ بجانبها، تقودني إلى حيث لا أدري أو إلى حرشها: الروايات في هذا الشأن ثلاث؛ واحدة تقول إن الأصل في الاسم ماء، تليه الفاكهة، هي إذن الأرض الخصبة،

جنة الفاكهة. ثانية تقول إن سرها في أرض مؤاب؛ من حيث أشار الله إلى موسى بالأرض المقدسة. أما الثالثة، ويحك، فهي إما امتلاك أو هلاك، وفي كلا الحالين فإني — مهما تحيرت — وتأولتُ لا أرى لك منها أي فكاك.

١٤

أنا الذي تحيرتُ، وخفتُ لو حبَّذت تفسير الفاكهة أن تفوتني جنة الآخرة، حتى وهي، أو كانت زينة الأرض بأجمعها. وزدت أخاف، بالأحرى أتلهف لسماع الصوت، صوت الله الأكبر، أينك؟ ويحك، أوتكفر؟! إنه في نيبو «الذي في أرض مؤاب قبالة أريحا»، وفي «ذيبان» و«حسبان» وفيك، هو في كل الأكوان، ويحك، هو من هداك إليها، وما كنت لتهتدي لولا أن هداك... ولسوف يعطيك فترضى، «وأما بنعمة ربك فحدث».

١٥

مادبا! مادبا! من أين يأتي الصوت؟ من صاحب النداء؟ أنت! أنت! هل أنت محموم يا الأسمر، يا الغريب، ومدَّت يدًا إلى جبين المغرب فاشتعلتْ في يدها غابات الأطلس، توهجتْ — كالجمر — جبال الريف، خَبَبُ أفراس عبد الكريم الخطابي، وصهيلٌ ما زال يسمع لموسى بن نصير في خليج أغادير، فسبحان الذي أسرى بعبده من موج الأطلسي إليك، إلى خليج العقبة. مادبا! مادبا! من أين يبدأ الطريق إليك، أم أرحل من غير أن أراك وفي الجوف حريق؟!

١٦

أنظر، هنا تتفرع الطرقات، فواحدة تذهب إلى البحر الميت، ثانية إلى البتراء، والثالثة إلى معان. حسنًا، والطريق إليك، عفوًا، لا شك أني محموم، أقصد إلى مادبا، من أي اتجاه، أريد أن أرى خارطة الفسيفساء، كنيسة الروم، وفلسطين والأردن والقدس ودلتا النيل، أريد أن أشهد عبقرية الفنان سلمانوس، البحار التي رسم بالأزرق والأسود، والأنهار بالأزرق، والسهول بالأخضر، والقمم بالحجارة البيض، والصدر بالرمان الأصهب؛ أوه إني محموم!

١٧

لا، كلا، أنت في منتهى الصواب، حتى ولو بدوتَ كالمجنون. أنسيت كيف شردت مني العام الفائت في «المفرق» واختلطت عليك الصور، وها أنت تعود للفعلة ذاتها، تشطح شطح جنون، ولكني لا أضمن لك اليوم حسن العاقبة لأن في رسم الفسيفساء أيلًا وغزالة يرعيان حول الملكة، وبينهما شجرة، وما إخالك إلا تضيع، قلبي عليك يا الأسمر الأطلسي، أخاف عليك من الملكة، الغزالة؛ بل خافي عليَّ منك، أنت جماع ما في الفسيفساء، أوه لَكَم أنا محموم!

١٨

مضت تقود السيارة فحسبتُها تارة بُراقًا، وطورًا شعاعًا سينفذ — قريبًا — إلى كوكب مجهول. لم نحسم أي طريق سنأخذ، ولم يكن لي خيار في المتاه، أنا الهائم على قلبي كيف أملك أيَّ خيار. كانت نظرتها نحو الأفق بصدرٍ يرتج أمامها، ونفس ساخن أحس به دبقًا على اليدين، ما لبث أن استحال نهرًا من حليبٍ ارتمت فيه عشترون إلهة مادبا، ويد أخرى ممدودة إليَّ قائلة أن تعال؛ فأرخيتُها وتركتها تسعى بين الماء والضوء إلى مستقر لها في كوكب منذور.

١٩

نسيت يدي، نسيتني كلِّي، إلا بعض كتلة مني تهتز فوق المقعد، فلا حدود لجموح البراق. كل السيارة انزاحت، واصطف الركاب على قارعة الزمن، والأرصفة انسحبت إلى الوراء تفسح أكثر، بينا نظرتها مرة أخرى تنفذ كسكين حاد في جلد الشمس العمودية، والنفس الحار حمم بركانية تدبق حُبيبات على حافة الشفتين، أو لُهاث كلمات متقطعة أسمعها تقول: سآخذك، سآخذك إليها وأبقيك فيها حتى ما بعد الزمان، أنا «وادي السير»، «أنا سقف السيل» … هيا!

٢٠

فجأة اختلطت هيَّاها مع أزيز، وتغطى الجو حولنا بالأجنحة، بالأسْود.

– ما هذا، أطلب مادبا، وإذا السماء أجنحة، فهل أنتِ دليلي لأهتدي أم للضياع؟

– بلى، بلى، أنت وصلت.
– إلى أين؟
– طبعًا، إلى مادبا أو بالأحرى مشارفها.
– مشارف؟
– نعم، ألا تسمع الأزيز، ألا ترى كل هذا النحل؟
– أجل، إنما، إنما يا سيد...
– من الأفضل ألا تنبس، سترى، بل ستذوق.
– لكن أين؟ متى؟
– هنيهة، الآن، في المنحلة، ماذا؟ يا لَغفلتي، كيف أبحث عن مادبا، وأنا في يقين العسل!

هنداوي